رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي

الأستاذة عقيلة حسين

دار ابن حزم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي

الأستاذة عقيلة حسين

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

إهداء

- إلى والدي الكريمين.
- إلى أستاذي الفاضل حسين أبو لبابة.
- إلى شقيقاتي وكل أهلي.
- إلى كل إخواتي وصديقاتي العزيزات اللواتي أقتسم معهن هموم الفكر والدعوة داخل وخارج وطني الجزائر.
- إلى كل شرقية رأت بأن الغرب لا شيء.
- إلى كل غربية رأت الشرق كل شيء. أهدي هذا الكتاب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

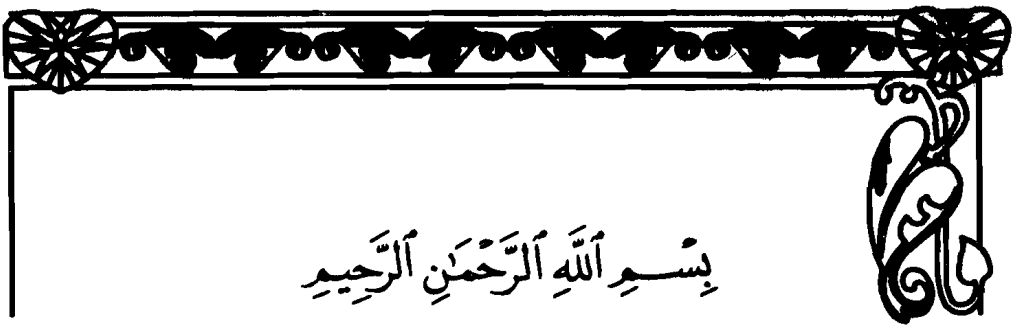

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم
فضيلة الأستاذ الدكتور أبو لبابة حسين
رئيس جامعة الزيتونة سابقاً

لَمْ يَتَعَرَّضْ مَعْلَمٌ مِنْ مَعَالِمِ الإِسلام وَلاَ حِصْنٌ مِنْ حُصُونِهِ إِلَى هُجُومٍ ظَالِمٍ شَرِسٍ كَمَا تَعَرَّضَتِ الأُسْرَةُ الْمُسْلِمَةُ عَامَّةً وَالْمَرأَةُ الْمُسْلِمَةُ خَاصَّةً، وَأَوَّلُ مَنِ اجْتَرَأَ عَلَى الأُمَّةِ بِالْهُجُومِ عَلَى مُؤَسَّسَةِ أُسْرَتِهَا الْمُسْتَشْرِقُونَ، بَعْدَ أَنِ اجْتَرَأَ إِخْوَانُهُمْ الصَّلِيبِيُّونَ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى أَرْضِ الإِسْلاَمِ وَمُقَدَّسَاتِهِ فِي الأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، فِي حُرُوبٍ صَلِيبِيَّةٍ مُتَوَحِشَةٍ مُرَوِّعَةٍ امْتَدَّتْ قُرَابَةَ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ [١٠٩٩ ـ ١٢٧٠]، فَكَانَتْ جُلُّ الدِّرَاسَاتِ وَالْكِتَابَاتِ الاسْتِشْرَاقِيَةِ تُقَدِّمُ الإِسْلاَمَ عَلَى أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلْمَرْأَةِ مُجْحِفٌ بِحُقُوقِهَا.

وَلاَ يُخْفَى أَنَّ هَذِهِ الأَفْكَارَ تَصْدُرُ عَنْ إِيدِيُولُوجِيَّاتٍ أَفْرَزَهَا الصِّرَاعُ الْحَضَارِيُّ الْعَقَائِدِيُّ، وتَحْتَكِمُ إِلَى الاسْتِكْبَارِ الْغَرْبِيّ الصَّلِيبِيّ الَّذِي يَسْعَى إِلَى الْهَيْمَنَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَفَرْضِ سُلْطَانِهِ السِّيَاسِيّ وَالاقْتِصَادِيّ وَالثَّقَافِيّ، وتَصْدِيرِ نَمُوذَجِ حَيَاتِهِ إِلَى بِلاَدِ الإِسْلاَمِ.

وَإِنَّ رُوحَ التَّعصُّبِ وَالْعِدَاءِ الَّتِي انْطَلَقُوا مِنْهَا فِي دِرَاسَةِ الإِسْلاَمِ سَدَّتْ عَلَيْهِمْ مَنَافِذَ الْحِكْمَةِ وَالمَوْضُوعِيَّةِ، فَكَانَتِ السِّمَةُ الغَالِبَةُ عَلَى كِتَابَاتِهِمْ الْهُجُومَ

وَالتَّحْرِيضَ أَوِ التَّحْلِيلَ الأَعْوَجَ، وَالْفَهْمَ الْبَعِيدَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى دَرَجَةِ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ، يُوقِعُهُمْ فِي كُلِّ هَذِهِ الآثَامِ جَهْلُهُمْ بِحَقَائِقِ الإِسْلاَمِ وَتَعَالِيمِهِ وَشَرِيعَتِهِ وَتَارِيخِهِ، وَإِسْقَاطُهُمْ أَوْضَاعَهُمْ وَمَا تُصَوِّرُهُ مَرْجِعِيَّاتُهُمُ الْمُحَرَّفَةُ، عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَخَلْطُهُمُ الْفَاضِحُ بَيْنَ حَقَائِقِ الشَّرِيعَةِ وَتَصَرُّفَاتِ بَعْضِ الْجَهَلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَدُورُ مَا يَكْتُبُهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَمَا يَنْشُرُونَهُ، وَمَا يَنْفُثُونَهُ فِي وَسَائِلِ إِعْلاَمِهِمْ المختلفة حول:

١ ـ زَوْجَات النَّبِيّ ﷺ، وَيُرَكِّزُونَ عَلَى زَوَاجِهِ ﷺ مِنَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ وَيُورِدُونَ حَوْلَهُ مِنَ الأَكَاذِيبِ وَالْخَيَالاَتِ وَالْجَهَالاَتِ مَا يَضْحَكُ لَهُ تِلْمِيذُ الْمَدْرَسَةِ الابْتِدَائِيَّة، وَزَوَاجِهِ مِنْ عَائِشَةَ وَيَقِفُونَ طَوِيلاً عِنْدَ أُخْلُوقَةِ الإِفْكِ، وَزَوَاجِهِ مِنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ الَّتِي يَتَنَاوَلُونَهَا بِالكَثِيرِ مِنَ الإِثَارَةِ الْمُزَيَّفَةِ وَالخَيَالِ الْمَرِيضِ.

٢ ـ نِظَامِ الأُسْرَةِ.

٣ ـ الْحِجَابِ.

٤ ـ تَعَدُّد الزَّوْجَاتِ، وَيُرَكِّزُونَ عَلَى تَعَدُّدِ زوجات النَّبِيِّ ﷺ.

٥ ـ حُقُوق الْمَرْأَةِ وَوَاجِبَاتِهَا.

وَالْمُسْتَشْرِقُونَ لاَ يَتْرُكُونَ فُرْصَةً وَلاَ مُنَاسَبَةً مُوَاتِيَةً وَغَيْرَ مُوَاتِيَةٍ إِلاَّ وَيُقْحِمُونَ فِيهَا الْحَدِيثَ عَنِ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ إِمَّا تَصْرِيحاً وَإِمَّا تَلْمِيحاً، بِإِسْهَابٍ وَطُولٍ أَوْ بِإِشَارَاتٍ عَابِرَةٍ وَلَكِنَّهَا مُعَبِّرَةٌ عَمَّا تُخْفِيهِ صُدُورُهُمْ، فَيُصْدِرُونَ مِنْ خِلاَلِهَا أَحْكَامَهُمُ الظَّالِمَةَ بِلاَ تَوَرُّعٍ وَلاَ مَنْطِقٍ، وَهِيَ أَحْكَامٌ مُزْعِجَةٌ وَمُخِيفَةٌ ـ عَلَى مَلْحَظِ عَالِمِ الأَدْيَانِ الأَلْمَانِيّ «Kueng» ـ بِسَبَبِ اعْوِجَاجِهَا، وَأَخْطَائِهَا، وَبِسَبَبِ الطَّرِيقَةِ الشِّرِّيرَةِ الَّتِي تُلْقَى بِهَا تِلْكَ الأَحْكَامُ عَنِ الإِسْلاَمِ.

وَلاَ أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ عَاقِلاً وَاحِداً يَدُورُ بِخَلَدِهِ وَلَوْ فِي الْخَيَالِ أَنَّ هَؤُلاَءِ الْمُسْتَشْرِقِينَ فِي حَمْلَتِهِمْ الظَّالِمَةِ عَلَى الأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ يَهْدِفُونَ إِلَى النُّهُوضِ بِهَا وَمُسَاعَدَتِهَا عَلَى خِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ وَالإِسْهَامِ فِي رُقِيِّهِ، فَالْحَقِيقَةُ الَّتِي لاَ مِرَاءَ فِيهَا أَنَّهُمْ فِي حَمْلَتِهِمْ الشَّعْوَاءِ هَذِهِ يَهْدِفُونَ إِلَى هَدْمِ الأُسْرَةِ وَتَدْمِيرِ الْمُجْتَمَعِ وَجَعْلِ الْمَرْأَةِ أَدَاةً لِلأَهْوَاءِ وَالنَّزَوَاتِ، وَإِبْعَادِ الْمَرْأَةِ عَنْ رِسَالَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، وَتَحْطِيمِ الْقِيَمِ الأَخْلاَقِيَّةِ وَالإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِفْسَادِ الْعَلاَقَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَالتَسَلُّلِ إِلَى قَلْبِ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ لِزَعْزَعَةِ ثِقَتِهَا فِي الإِسْلاَمِ بِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْمَرْأَةِ الْقُدْوَةِ وَتَبْشِيعِ صُورَةِ الْمَرْأَةِ كَمَا يُرِيدُهَا الإِسْلاَمُ، بَلْ فَإِنَّهُمْ سَعَوْا وَبِلاَ مُوَارَبَةٍ بِجُهودِ إِخْوَانِهِمُ الْمَنَصِّرِينَ إِلَى تَمْسِيحِها أَوْ مَسْخِهَا إِذَا عَجَزُوا عَنْ تَمْسِيحِهَا، وَهُوَ أَقْصَرُ الطُّرُقِ لِهَدْمِ الْمُجْتَمَعَاتِ الإِسْلاَمِيَّةِ وَتَشْوِيهِ هَوِيَّتِهَا وَتَدْجِينِهَا وَتَرْكِيعِهَا.

وَهِيَ أَخْطَارٌ حَمَلَتِ الْعَدِيدَ مِنَ الأَقْلاَمِ الْمُسْلِمَةِ الْمُخْلِصَةِ عَلَى التَّصَدِّي لَهَا وَفَضْحِهَا وَبَيَانِ تَهَافُتِهَا وَكَشْفِ بوَاطِنِهَا، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ شُرُورِهَا.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ تَنَاوَلَتِ الْبَاحِثَةُ النَّجِيبَةُ الأُسْتَاذَةُ عَقِيلَةُ حِسِين الأُسْتَاذَةُ بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ هَذَا الْمَوْضُوعَ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْفَهْمِ الْعَمِيقِ وَالْوَعْيِ الْجَلِيِّ وَالْعِلْمِ الْمُسْتَنِيرِ، فَدَرَسَتْ بَصَبْرٍ وَأَنَاةٍ وَتَعَقُّلٍ كِتَابَاتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ حَوْلَ الأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ وَفَحَصَتْهَا بِبَصِيرَةٍ وَإِنْصَافٍ، فَعَرَّتِ الْمُتَحَامِلِينَ الظَّلَمَةَ وَبَيَّنَتْ أَهْدَافَهُمْ، وَكَشَفَتْ عَنْ زَيْفِ مَصَادِرِهِمْ الَّتِي هِيَ فِي مُجْمَلِهَا مَشْبُوهَةٌ كَكِتَابِ «ألف لَيْلَةٍ وَلَيْلَة» الّذي يَصِفُهُ ابْنُ النَّدِيمِ مِنْ رِجَالِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ لِلْهِجْرَةِ بِكِتَابِ الْحَمَاقَةِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَكِتَابِ «الأَغَانِي» لأَبِي الْفَرَجِ الإِصْفَهَانِيِّ الَّذِي يَقُولُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ مِنْ رِجَالِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَنْ مُؤَلِّفِهِ: «كَانَ أَكْذَبَ النَّاسِ»، وَالّذِي كَشَفَتْ دِرَاسَةٌ مُحْدَثَةٌ لِوَلِيدِ الأَعْظَمِيِّ عَنْ شُعُوبِيَّتِهِ وَحِقْدِهِ وَفَسَادِهِ. أَوْ هِيَ أَخْبَارٌ وَاهِيَةٌ ضَعِيفَةٌ بَلْ وَمَوْضُوعَةٌ يَلْتَقِطُونَهَا مِمَّا تَسَرَّبَ مِنْهَا إِلَى التَّفَاسِيرِ كَتَفْسِيرَيْ الطَّبَرِيِّ وَالرَّازِيِّ أَوْ إِلَى بَعْضِ الْكُتُبِ الأُخْرَى. وَقَدْ

تَكُونُ هَذِهِ الْمَصَادِرُ اسْتِشْرَاقِيَّةً فَتُصْبِحُ الْمَسْأَلَةُ تَزْيِيداً لِنَفْسِ الأَخْطَاءِ وَالْجَهَالاتِ يُوحِي بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. كَمَا كَشَفَتِ الكَاتِبَةُ عَنْ مُحَاولاَتِهِمْ الَّتِي لاَ تَنِي لِلَيّ أَعْنَاقِ الْحَقِيقَةِ، وَرَصَدَتْ طَبِيعَةَ مَنْهجِهِمْ وَانْحِرَافَهُ عَنِ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيّ الْقَوِيمِ، كَمَا عَرَّفَتْ بِالْمُنْصِفِينَ مِنْهُمْ وَبِمَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ حُرُوبٍ لاَ هَوَادَةَ فِيهَا مِنْ زُمَلاَئِهِمْ الَّذِينَ آثَرُوا الدَّوْسَ عَلَى الْحَقِيقَةِ والتَّصَامُمَ عَنْ سَمَاعِ صَوْتِهَا الْقَوِيّ. وَجَلَّتْ مَوْقِفَ الإِسْلاَمِ مِنَ الْمَرْأَةِ وَمَا أَوْلاَهَا بِهِ مِنْ تَكْرِيمٍ وَمَا حَبَاهَا بِهِ مِنْ تَبْجِيلٍ وَرِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ، وبَيَّنَتْ بِالدَّلِيلِ تَهَافُتَ تُهَمِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَتَفَاهَتِهَا وَمَا تُوصَمُ بِهِ مِنَ الْجَهْلِ الْفَاضِحِ بِحَقَائِقِ الإِسْلاَمِ، وَأَسْقَطَتْ عَنْهَا مَا تَتَسَرْبَلُ بِهِ مِنْ دَعَاوَى الْمَنْهَجِيَّةِ وَمَا تَتَوشَّحُ بِهِ مِنْ رَغْبَةٍ كَاذِبَةٍ فِي النُّهُوضِ بِالمَرْأَةِ وَاسْتِرْدَادِ حُقُوقِهَا الضَّائِعَةِ!!.

كَمَا تَعَرَّضَتِ الأُسْتَاذَةُ الْمؤَلِّفَةُ بِالدَّرْسِ لِتَلاَمِيذِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَمَنْ تَأَثَّرَ بِدَعَاوَاهُمْ لاَ سِيَّمَا الْعَلْمَانِيِّينَ الَّذِينَ لَمْ يُلْزِمُوا أَنْفُسَهُمْ الْعَوْدَةَ إِلَى أُصُولِ الإِسْلاَمِ وَاسْتِخْلاَصَ الْحَقَائِقِ النَّاصِعَةِ مِنْهُ وَالْوقِوفَ عَلَى مَا وَفَّرَهُ الإِسْلاَمُ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ مِنْ حُرِّيَّةٍ وَحُقُوقٍ تَقِفُ بِهَا عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ مَعَ شَقِيقِهَا الرَّجُلِ، وَإِنَّما آثَرُوا أَنْ يَكُونُوا أَبْوَاقاً لِلْمُسْتَشْرِقِينَ وَرَجْعاً لِصَدَى شُبَهِهِمْ وَأَكَاذِيبِهِمْ وَتَحَامُلِهِمْ عَلَى الإِسْلاَمِ وَشَرِيعَتِهِ، بَلْ فَإِنَّ بَعْضَ صَنَائِعِهِمْ مِنَ الْمُتَغَرِّبِينَ الْعَلْمَانِيِّينَ ذَهَبَ إِلَى أَبْعَدَ مِمَّا سطَّرَهُ الْمُسْتَشْرِقُون، حَتَّى بَلَغَتْ بِأَحَدِهِمْ شَقْوَتُهُ وعَدَاوَتُهُ للإِسْلاَمِ أَنْ أَطْلَقَ وَبِلاَ حَيَاءٍ عَلَى مَا شَرَّعَهُ الإِسْلاَمُ فِي شَأْنِ الْمَرْأَةِ وَالأُسْرَةِ «مَشْرُوع الاضْطِهَادِ»!!

لَقَدْ قَالُوا زوراً وَبُهْتَاناً: إِنَّ الْمَرْأَةَ تُمَثِّلُ فِي الإِسْلاَمِ اللَّعْنَةَ، وَتَرْمُزُ إِلَى الْخَطِيئَةِ وَالدَّنَسِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي دَفَعَ عَنْهَا الإِسْلاَمُ اللَّعْنَةَ الَّتِي أَلْصَقَتْهَا بِهَا الْيَهُودِيَّةُ والنَّصْرَانِيَّةُ، وَبَرَّأَهَا مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ إِخْرَاجِ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَجَعَلَهُمَا مَعاً ضَحِيَّةَ وَسْوَسَةِ الْشَّيْطَانِ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، وسَوَّاهَا بِالرَّجُلِ فِي الإِنْسَانِيَّةِ وَأَصْلِ الْخِلْقَةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وحَرَّرَهَا مِنْ مَظْلَمَةِ الضِّيقِ بِوِلاَدَتِها وَوُجُودِهَا، وَنَسَبَ مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ ذَلِكَ إِلَى السَّفَهِ وَالْجَهْلِ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

كَمَا سَوَّى بَيْنَهُمَا فِي الْمَسْؤُولِيَّةِ، فَهُمَا سَوَاءٌ فِي التَّدَيُّنِ وَالإِيْمَانِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالْعِبَادَةِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْهِجْرَةِ وَالْبَيْعَةِ. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١]. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا...﴾ [الممتحنة: ١٢]. وَسَوَّى بَيْنَهُمَا فِي الْمَسْؤُولِيَّةِ الْجِنَائِيَّةِ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٩] ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]. وَقَرَّرَ الإِسْلاَمُ أَهْلِيَّتَهَا فِي تَحَمُّلِ وَأَدَاءِ مَسْؤُولِيَّةِ الأَمَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَفِي الْقِيَامِ بِكُلِّ الالْتِزَامَاتِ الْمَالِيَّةِ، وَوَرَّثَهَا كَبِيرَةً كَانَتْ أَوْ صَغِيرَةً حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ حَمْلاً فِي بَطْنِ أُمِّهَا. وَالْمَرْأَةُ فِي الإِسْلاَمِ تَكُونُ بِصَلاَحِهَا وَتُقَاهَا وَجِهَادِهَا وَلِيَّةً وَصِدِّيقَةً وَشَهِيدَةً.

وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِالنِّسَاءِ وَبِالزَّوْجَاتِ خَاصَّةً خَيْرًا، وَوَسَمَ مَنْ يُكْرِمُهُنَّ بِالْخَيْرِيَّةِ وَالْكَرَمِ وَمَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِنَّ بِاللُّؤْمِ وَالسَّفَهِ فقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ**»، وَقَالَ: «**مَا أَكْرَمَهُنَّ إِلاَّ كَرِيمٌ وَمَا أَهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ**».

وَمِمَّا يَحْلُو لِلْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْمتَغَرِّبِينَ وَالْعَلْمَانِيِّينَ أَنْ يُشَهِّرُوا بِهِ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ، وَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ ظُلْمًا لِلْمَرْأَةِ وَهَضْماً لِحَقِّهَا مُتَنَاسِينَ أَنَّ

التَّعَدُّد فِطْرَةٌ فَطَر اللَّهُ عَلَيْهَا النَّاسَ مُنْذُ الْخَلِيقَةِ الأُولَى، وَقَدْ أَبَاحَتْهُ الأَدْيَانُ السَّمَاوِيَّةُ، وَكَانَ كُلُّ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَدِّدِينَ، كَمَا عَرَفَتْهُ شُعُوبُ الأَرْضِ قَدِيماً وَحَدِيثاً، ثُمَّ إِنَّ الإِسْلاَمَ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ أَبَاحَهُ دُونَ أَنْ يَفْرِضَهُ، وَوَضَعَ لَهُ ضَوَابِطَ، فَحَدَّدَ عَدَدَ الزَّوْجَاتِ، وَشَرَطَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الإِنْفَاقِ، وَبِالْعَدْلِ الْمَادِّيِّ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ مَعَ حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ.

وَالتَّعَدُّدُ لَمْ تُحَرِّمْهُ النَّصْرَانِيَّةُ، فَلاَ يُوجَدُ نَصٌّ وَاحِدٌ فِي الأَنَاجِيلِ يَقُولُ بِذَلِكَ، وَرُؤَسَاءُ الْكَنِيسَةِ هُمُ الَّذِينَ قَرَّرُوا جَعْلَ فَرْدِيَّةِ الزَّوْجَةِ أَمْرَاً قَسْرِيَّاً جَبْرِيًّا تَمَامَاً مِثْلَمَا ابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ، إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعَ التَّعَدُّدَ السِّرِيَّ وَالْعَلَنِي عَبْرَ الْعَلاَقَاتِ غَيْرِ الْمَشْرُوعَةِ خَارِجَ حُدُودِ الزَّوْجِيَّةِ فِي الأَوْسَاطِ الْغَرْبِيَّةِ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ، حَتَّى أَنَّ الرَّحَالَةَ الْغَرْبِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ لاَحَظُوا أَنَّ التَّعَدُّدَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَقَلُّ مِنْهُ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ، بَلْ وَهَذَا الْمُسْتَشْرِقُ الْفَرَنْسِيُّ الْمُسْلِمُ نَاصِرُ الدِّين دِينِيهْ - وَهُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى خَفَايَا الْمُجْتَمَعِ الْغَرْبِيّ - يَقُولُ بِكُلِّ وُضُوحٍ: «وَهَلْ يَسْتَطِيعُ شَخْصٌ أَنْ يَقُولَ بِعَدَمِ وُجُودِ التَّعَدُّدِ فِي الْغَرْبِ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الضَّحِكُ مَأْخَذَهُ؟!».

ثُمَّ إِنَّ نَظَرِيَّةَ مَنْعِ التَّعَدُّدِ الَّتِي يَأْخُذُ بِهَا الْغَرْبُ ظَاهِرَاً أَفْرَزَتْ ثَلاَثَةَ مَسَاوِىءَ جَسِيمَةِ الْبَلاَءِ وَهْيَ:

١ ـ انْتِشَارُ الدَّعَارَةِ.

٢ ـ وَتَفَاقُمُ الْعُنُوسَةِ.

٣ ـ وَكَثْرَةُ الأَبْنَاءِ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ، الَّذِينَ أَصْبَحُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِمْ فِي الْغَرْبِ الأَبْنَاءَ الطَّبِيعِيِّينَ، وَالَّذِينَ أَصْبَحُوا يُمَثِّلُونَ ظَاهِرَةً تَقِضُّ مَضْجَعَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْغَرْبِيَّةِ.

أَمَّا تَعْلِيلاَتُ الْمُسْتَشْرِقِينَ لإِبَاحَةِ الإِسْلاَمِ التَّعَدُّدَ فَتُثِيرُ السُّخْرِيَةَ، فَإِنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّه:

١ ـ مِنْ وَضْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِجَلْبِ الرِّجَالِ إِلَى الإِسْلاَمِ.

٢ ـ وَلِجَلْبِ النِّسَاءِ كَذَلِكَ حَيْثُ وَعَدَهُنَّ بِتَعَدُّدِ الأَزْوَاجِ «هَكَذَا!».

٣ ـ وَتَلْبِيَةً لِعَيْبٍ فِي الرَّجُلِ الشَّرْقِيِّ ذِي الشَّهْوَةِ العَارِمَةِ.

٤ ـ وَلاِرْتِبَاطِهِ بِالْعَقِيدَةِ، فَالْغَرْبِيُّ يَمِيلُ إِلَى تَعَدُّدِ الآلِهَةِ وَوَحْدَةِ الزَّوْجَةِ والشَّرْقِيُّ يَمِيلُ إِلَى تَوْحِيدِ الآلِهَةِ وَتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ... وَهْيَ تَبْرِيرَاتٌ كَمَا نَرَى وَهْمِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ لاَ تَسْتَنِدُ إِلَى أَسَاسٍ عِلْمِيّ وَلاَ صِلَةَ لَهَا بِالإِسْلاَمِ.

وَإِذَا كُنَّا نَجِدُ لِلْمُسْتَشْرِقِينَ مُبَرِّراً لِمُعَادَاتِهِمْ التَّعَدُّدَ نَظَراً لِكُفْرِهِمْ بِالإِسْلاَمِ وَعَدَاوَتِهِمْ لِشَرِيعَتِهِ، فَإِنَّنَا لاَ نَجِدُ أَيَّ مُبَرِّرٍ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُتَغَرِّبِينَ حِينَ يَدْعُونَ إِلَى تَحْرِيمِ التَّعَدُّدِ فَهُمْ بِعَمَلِهِمْ هَذَا يَتَفَصَّوْنَ مِمَّا يُوجِبُهُ الإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ مِنَ الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الإِسْلاَمُ وَالالْتِزَامَ بِشَرِيعَتِهِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَزُجُّونَ بِمُجْتَمَعَاتِهِمْ فِي أَتُونِ الْفَسَادِ الَّذِي تَكْتَوِي بِنَارِهِ الْمُجْتَمَعَاتُ الغَرْبِيَّةُ الَّتِي تُحَرِّم التَّعَدُّدَ قَانُوناً وَتُمَارِسُهُ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ وَاقِعِيًا، وَهُوَ أَمْرٌ يُحَرِّمُهُ الإِسْلاَمُ وَيُدِينُهُ بِحَدٍّ صَارِمٍ هُوَ حَدُّ الزِّنَا.

وَمِمَّا تَعَرَّضَ لِعُدْوَانِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَهُجُومَاتِهِمْ وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ صَنَعَائِهِمْ مِنَ الْمُتَغَرِّبِينَ «الْحِجَابُ»، وَهُوَ فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَلِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خُصُوصِيَّةٌ وَهْيَ وُجُوبُ سَتْرِ الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ. وَالْحِجَابُ هُوَ عُنْوَانُ الْحَيَاءِ وَالْحِشْمَةِ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَتَشْرِيعُهُ جُزْءٌ مِنْ تَكْرِيمِهَا لاَ رَمْزاً لِلتَّنَكُّرِ لِحُقُوقِهَا وَحَدًّا مِنْ حُرِّيَّتِهَا وَشَلاًّ لِحَرَكَتِهَا كَمَا يَدَّعِي الْمُسْتَشْرِقُونَ وَأَعْدَاءُ الْحِجَاب. وَنَحْنُ نَسْأَلُ دُعَاةَ تَعْرِي الْمَرْأَةَ وَسُفُورِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَاذَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٩]؟ وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؟ [أَيْ يُلْقِينَ خُمُرَهُنَّ وَهِيَ أَغْطِيَةُ الرَّأْسِ وَيُسْدِلْنَهَا عَلَى جُيُوبِهِنَّ أَيْ فَتَحَاتِ صُدُورِهِنَّ لِئَلاَّ

يَبْدُوَ شَيْءٌ مِنَ النَّحرِ وَالصَّدْرِ]. هَلْ تُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ القَطِعِيَّةِ الثُّبُوتِ وَالدَّلاَلَةِ؟ أَمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا يَفْتَرِيهِ الْمُسْتَشْرِقُونَ مِنْ أَنَّ الْحِجَابَ وَضَعَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ غَيْرَةً عَلَى نِسَائِهِ! أَوْ بِمَا نَشَرَتْه إِحْدَى الصُّحُفِ الشُّيُوعِيَّةِ «لِسِيمُون دِي بُوفُوَارْ» الشَّرْقِ، نَوَال السَّعْدَاوِيّ دَاعِيَةِ الْحُرِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ، مِنْ أَنَّ أُصُولَ الْحِجَابِ التَّارِيخِيَةَ تَعُودُ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي تَرَى فِي الْمَرْأَةِ رَمْزاً لِلْخَطِيئَةِ الأُولَى فَاتَّخَذَتْهُ لِتَسْتُرَ خَطِيئَتَهَا، وَهْيَ تَنْفِي وُجُودَ آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَنُصُّ عَلَى تَحْجِيبِ الْمَرْأَةِ، وَتَتَحَدَّى مَنْ يَقُولُ بِغَيْرِ ذَلِكَ!!.

لَقَدْ جَنَّدَ الإِسْتِعْمَارُ أَتْبَاعَهُ وَأَنْصَارَهُ ـ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ الْيَهُودِ ـ وحَرَّضَ صَنَائِعَهُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ ـ وَلاَ أَقُولُ الْمُثَقَّفِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ ثَقَافَةً غَيْرَ إِسْلاَمِيَّةٍ ـ مِمَّنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ «النُّخْبَة» رِجَالاً وَنِساءً لِلْهُجُومِ عَلَى الْحِجَابِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى تَرْكِهِ بِدَعْوَى أَنَّهُ يَمْنَعُ الْمَرأَةَ مِنَ الْمُشَارَكَةَ فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ ثَقَافِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً!؟

وَتَصَدَّتْ الأُسْتَاذَةُ الْكَاتِبَةُ لِكُلِّ هَذِهِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ فَكَشَفَتْ ازْدِوَاجِيَّةَ الْغَرْبِ فِي النَّظْرَةِ وَفِي إِصْدَارِهِ الأَحْكَامَ، وَلِتُثْبِتَ أَنَّ الْحِجَابَ لاَ يُعِيقُ الْمُشَارَكَةِ البنّاءة في المجتمع، ذكّرتْ بالرّاهبات وهنّ محجّباتٌ إلاَّ أنَّ الحجابَ لم يمنعهنَّ من المشاركةِ الْفَاعِلَةِ فِي خِدْمَةِ الْمَسِيحِيَّةِ وَالاسْتِمَاتَةِ فِي نَشْرِهَا، وَفِي نَهْضَةِ أُورُبَّا وَخِدْمَةِ مُجْتَمَعَاتِهَا عَلَى كُلِّ الأَصْعِدَةِ. ذَلِكَ أَنَّ التَّدَيُّنَ ـ عَلَى مَلْحَظِ الأُسْتَاذَةِ ـ إِذَا كَانَ فِي الْمَسِيحِيَّةِ خَاصًّا بِالرُّهْبَانِ وَالرَّاهِبَاتِ فَإِنَّهُ فِي الإِسْلاَمِ لاَ يَخُصُّ فِئَةً دُونَ أُخْرَى مِنَ الْمُكَلَّفِينَ الْمَدْعُوِّينَ للالْتِزامِ بِالشَّرْعِ وَالتَّسْلِيمِ لأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ.

وَهَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الْمُحَجَّبَةَ ـ الَّتِي اضْطَرَّتْهَا ظُرُوفُها الْمَعِيشِيَّةُ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْعَمَلِ ـ فِي الْبِلاَدِ الإِسْلاَمِيَّةِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِفَرْضِيَّةِ الْحِجَاب، وَلاَ تَقْبَلُ لِبَنَاتِهَا التَّسَلُّبَ مِنْ ثِيَابِ الْحِشْمَةِ، تُؤَدِّي وَاجِبَاتِهَا فِي التَّعْلِيمِ وَالإِدَارَةِ وَالتَّمْرِيضِ وَغَيْرِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ وَهِيَ تُقَدِّمُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْمَجَالاَتِ عِلْمَهَا

وَفِكْرَهَا وَخِبْرَتَهَا وَإِخْلاَصَهَا فِي خِدْمَةِ دِينِهَا وَوَطَنِهَا، أَمَّا إِبدَاءُ مَفَاتِنِهَا وَإِظْهَارُ زِينَتِهَا فَمَجَالُهُ بَيْتُهَا لاَ مَيْدَانَ الْعَمَلِ وَالإِنْتَاجِ.

وَكَمَا تَصَدَّتِ الأُسْتَاذَةُ إِلَى الْمُسْتَشْرِقِينَ وَفَصَّلَتِ الْقَوْلَ فِي مَجَالِ اهْتِمَامَاتِهِمْ بِالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ، فَإِنَّهَا لَمْ تُغْفِلْ تَمْحِيصَ فَصْلٍ مِنْ دِرَاسَتِهَا لأَثَرِ الاسْتِشْرَاقِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيّ، فَرَصَدَتْ هَذِهِ الآثَارَ السَّلْبِيَّةَ مُنْذُ بِدَايَاتِهَا الأُولَى، وَالَّتِي تَجَلَّتْ فِي تَلاَمِيذِهِمْ الرُّوحِيِّينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ دَعَاوَى وَأَفْكَارٍ هَدْمِيَّةٍ تُشَوِّهُ حَقَائِقَ الإِسْلاَمِ وَتُحَارِبُ مُسَلَّمَاتِهِ.

وَلاَ يَخْفَى أَنَّ الاسْتِعْمَارَ الْغَرْبِيَّ قَدَّمَ لاجْتِيَاحِهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْبِلاَدِ الإِسْلاَمِيَّةِ بِزَرْعِ مَحَاضِنَ وَمَعَاهِدَ تَقُومُ عَلَيْهَا الْمُؤَسَّسَاتِ الْكَنَسِيَّةُ وَالإِرْسَالِيَّاتُ الْغَرْبِيَّةُ فَتَخَرَّجَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَنْ يَحْمِلُ اسْمَ الإِسْلاَمِ وَلَكِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْكَوْنِ بِعُيُونٍ غَرْبِيَّةٍ صَلِيبِيَّةٍ أَوْ عَلْمَانِيَّةٍ مُنَاوِئَةٍ لِكُلِّ مَا هُوَ إِسْلاَمٌ وَلِكُلِّ مَا يَخْدُمُ مُقَوِّمَاتِ الأُمَّةِ.

وَالْكَاتِبَةُ تُشِيرُ إِلَى مَلْحُوظَةٍ جَدِيرَةٍ بِالانْتِبَاهِ وَهِيَ أَنَّ فِي الْمُسْتَشْرِقِين مُنْصِفِينَ إِلاَّ أَنَّ الْوَلِهِينَ بِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لاَ يُقَلِّدُونَ إِلاَّ الْمُتَحَامِلِينَ عَلَى الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ وَقَدْ كَشَفَتِ الْغِطَاءَ عَنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ لِتَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ الَّذِي يُنَادِي بِهِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمُ وَهُوَ «أَنْ تَتَمَرَّدَ الْمَرأَةُ الْمُسْلِمَةُ عَلَى دِينِهَا وَقِيَمِهَا وَعِفَّتِهَا». وَتَنَاوَلَتْ بِالدَّرْسِ تِلْكَ الدَّعَاوَى الْمَوْبُوءَةَ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ هؤُلاَءِ الأَتْبَاعِ بِتَشْجِيعٍ مِنْ عُتَاةِ الاسْتِعْمَارِ وَتَحْتَ حِمَايَةِ حِرَابِهِ.

- بِدَايَةً مِنْ دَعْوَةِ رِفَاعَةَ الطَّهْطَاوِيّ (١٨٠١ - ١٨٧٣م) - الَّذِي تَعَلَّمَ فِي فِرَنْسَا عَلَى كِبَارِ الْمُسْتَشْرِقِينَ - إِلَى الاخْتِلاَطِ وَالسُّفُورِ وَمَنْعِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ وَتَزْيِينِ الرَّقْصِ على الطَّرِيقَةِ الأُرُوبِيَّةِ الَّتِي يَرَى فِيهَا أَنَاقَةً وَفُتُوَّةً.

- إِلى دَعوَةِ الصَّلِيبِيَّ مَرْقص فَهْمِيّ الْمُحَامِيّ الَّذِي شَجَّعَهُ وَلِيُّهُ اللُّورْدْ

كُرُومر Cromer ت ١٩١٧م الْمَنْدُوبُ البريطاني عَلَى مِصْرَ (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧م) عَلَى حَشْرِ أَنْفِهِ فِي قَضَايَا الإِسْلاَمِ فَدَعَّمَ فِي كِتَابِهِ «المرأة في الشرق» «مَا بَدَأَ بِهِ الطَّهْطَاوِيُّ ثُمَّ تَقَدَّمَ خُطْوَةً جَدِيدَةً فِي الْعُدْوَانِ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ فَدَعَا إِلَى إِبَاحَةِ الزَّوَاجِ بَيْنَ الْمُسْلِمَاتِ وَالأَقْبَاطِ، وَقَدْ تَبَنَّى الاسْتِعْمَارُ مَشْرُوعَهُ وَعقَدَ لِكِتَابِهِ الْجَلسَاتِ الدِّرَاسِيَّةَ فِي صَالُونَاتِ الْمُتَفَسِّخَات مِنْ خَادِنَاتِ حُكَّام الاسْتِعْمَارِ وَأَذْنَابِهِ مِثْلَ «نَازِلْي فَاضِل» التي خَتَمَتْ حَيَاتَهَا بِالتَّنَصُّرِ وَالارْتِدَادِ عَنِ الإِسْلاَمِ.

ـ فَدَعْوَةُ قَاسِم أَمِين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨م) إِلَى أَنْ تَتَحَرَّرَ الْفَتَاةُ الْمُسْلِمَةُ مُنْذُ سِنِّ الْعِشْرِين مِنْ مُرَاقَبَةِ أُسْرَتِهَا فَتُسَافِرَ بِمُفْرَدِهَا وَتُخَالِطَ مَنْ تَشَاءُ! بَلْ وَيَدْعُو إِلَى أَنْ تَكُونَ لِلزَّوْجَةِ أَصْدِقَاؤُهَا مِنْ غَيْرِ أَصْدِقَاءِ زَوْجِهَا! وَعلَى الزَّوْجِ أَنْ يَقْبَلَ بِأَنْ تَعِيشَ زَوْجَتُهُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تُرِيحُهَا!

ـ إِلى هَدَى شَعْرَاوِيّ الَّتِي اعْتَبَرَتِ الحِجَابَ مِنَ التَّقَالِيدِ الْبَالِيَةِ!.

ـ إلى دُرِيَّةَ شَفِيقِ المرأةِ الْغَامِضَةِ التي أَشَادَتْ الصَّحَافَةُ البريطَانِيَّةُ بِجُرْأَتِهَا وَوَصْفَتْهَا بِأَنَّها مُحَرِّرَةُ الْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ أَغْلاَلِ الإِسْلاَمِ وَتَقَالِيدِهِ، وَالتِّي أَنْهَتْ حَيَاتَهَا مُنْتَحِرَةً سَنَةَ ١٩٧٥م.

ـ إِلى الصَّلِيبِيّ سَلاَمَةَ مُوسَى (١٨٨٧ ـ ١٩٨٥م) الَّذِي لَمْ يَكْتَفِ بِالدَّعْوَةِ بِكُلِّ جُرْأَةٍ إِلَى تَحْرِيرِ المَرْأَةِ مِنْ مَبَادِئِهَا الإِسْلاَمِيَّة وَإِنَّمَا دَعَا إِلَى التَّخَلُّص مِنَ الدِّينِ كُلِّيَّةً.

ـ إِلَى الطَّاهر الحَدَّادِ ت ١٩٣٥م الَّذِي أَصْدَرَ كِتَابَهُ «امرأتُنا في الشريعَةِ والمُجْتَمَع» سَنَةَ ١٩٣٠م كَحَلْقَةٍ فِي سِلْسِلَةِ مُحَارَبَةِ الإِسْلاَمِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى تَمْسِيحِ تُونُسَ عَبْرَ الْمُؤْتَمَرِ «الإفخارستي» «الَّذِي عُقِدَ فِي نَفْسِ السَّنَةِ وَالَّذِي يُعْتَبَرُ حَمْلَةً صَلِيبِيَّةً سِلْمِيَّةً ـ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ مُنَظِّمِيهِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ـ وَقَدْ دَعَا فِي كِتَابِهِ إِلَى مَنْعِ التَّعَدُّد وَنَزْعِ الحِجَابِ وَتَأْبِيدِ الزَّوَاجِ بِتَعْسِيرِ الطَّلاَقِ وَجَعْلِهِ

أَمَامَ الْمَحَاكِمِ وُصُولاً إِلَى مَنْعِهِ، وَالتَّسْوِيَةِ فِي الإِرْثِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَٱسْتِبْدَالِ عُقُوبَةِ الزِّنَا. . . والكثيرُ مِنْ هَذِهِ الأَفْكَارِ الْمُنَاوِئَةِ للإِسْلاَمِ وَسْوَسَ لَهُ بِهَا الْقِسُّ «جُوزيف سَلامة» أَحَدُ كِبَارِ دُعَاةِ التَّنْصِيرِ بِجَمْعِيَّةِ الآبَاءِ الْبِيضِ الَّتِي مَهَّدَ لِتَأْسِيسِهَا الكَارْدِينَالْ «شَارلْ لاَفيجري» رَئِيسُ أَسَاقِفَةِ قَرْطَاجْ وَالْجَزَائِرِ ت **١٨٩٢**م. بَلْ لاَ يَسْتَبْعِدُ بعضُ الباحثين أَنْ يَكُونَ الكتابُ كُلَّهُ مِنْ وَحْيِ هَذَا القِسِيس الصَّلِيبِيّ، وَقَدْ تَوَلَّتْ الكنيسة نَشْرَهُ خَارِجَ تُونُسَ، كما قامتْ سُلْطَةُ الاحْتِلاَلِ الفَرَنْسِيّ بِالإِشَادَةِ بِالْكِتَابِ وَإِقَامَةِ حَفْلِ تَكْرِيمٍ لِمُؤَلِّفِهِ. أَمَّا الصَّحَافَةُ الاسْتِعْمَارِيَّةُ فَاحْتَفَتْ بِهِ احْتِفَاءً كَبِيراً فَقَدْ خَصَّصَتْ صَحِيفَةُ «تونس الفرنسيّة» مقَالاً مُطَوّلاً لِنَصْرِ الْكِتَابِ وَصَاحِبِه، كَمَا أَنَّ رَأْسَ الاشْتِرَاكِيّينَ الطَّبِيبَ الْيَهُودِيَّ «كُوهِينْ حَدْرِيَّة» كَتَبَ مَقَالَيْنِ فِي صَحِيفَةِ «تُونُس الاشتراكية» دَافَعَ فِيهِمَا عَنِ الْحَدَّاد وَمَجَّدَ أَفْكَارَهُ وجُرْأَتَهُ. . . فَاحْتِفَاءُ هَؤُلاَءِ الْيَهُودِ وَالصَّلِيبِيّينَ وَالاشْتِرَاكِيّينَ الْمُتَطَرِّفِينَ وَمُبَارَكَةُ الاسْتِعْمَارِ تُفْصِحُ عَنْ طَبِيعَةِ الْكِتَابِ وَمَدَى مُنَاوَءَتِهِ الإِسْلاَمَ وَشَرِيعَتَهُ.

ـ وأَفْرَزَتْ هَذِهِ الْحَمَلاَتُ الْمُوْبُوءَةُ مَوْجَاتٍ مِنَ الْمُنْبَهِرِينَ بِهَذَا الْفِكْرِ الْمُعَادِي لِمَعَالِمِ الإِسْلاَمِ وَشَارَاتِهِ، مِنْ ذَلِكَ مَثَلاً عِيَاض ابْنُ عَاشُورْ الذي يَتَهَجَّمُ عَلَى الحِجَابِ ويَعْتَبِرُهُ وُضِعَ لِحِمَايَةِ الرَّجُلِ مِنْ هَذَا الفَزَعِ الْمُحْرِقِ، وَهَذَا الاضْطِرَابِ الْعَنِيفِ الَّذِي تُسَبِّبُهُ الْمَرْأَةُ. . . حتَّى بَدَأَ يَقُومُ عَالِمٌ تَهَوُّسِيٌّ ذُو أَرْكَانٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا أَنَّ الْمَرْأَةَ أَصْلُ الْخَطَايَا وَهْيَ رَمْزُ النَّجَاسَةِ. . . «فَهُوَ لاَ يَكْتَفِي بِإِلْصَاقِ بَعْضِ الْعَقَائِدِ الْيَهُودِيَّةِ فِي الْمَرْأَةِ، بِالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَقَدْ بَرَّأَهَا الْقُرْآنُ بِآيَاتٍ مُحْكَمَةٍ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الأَبَاطِيلِ وَإِنَّمَا يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى التَّعْرِيضِ بِبَعْضِ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ والأَحَاديث النَّبَوِيَّةِ الَّتِي يَتَعَمَّدُ ابْتِسَارَهَا وَاجْتِثَاثَهَا مِنْ إِطَارِها الصَّحِيح». وَقَدْ تجاوَزَتْهُ فِي الْجُرْأَةِ فَاطِمَة الْمَرْنِيسِي فِي كِتَابِهَا «الحريم السِّيَاسِيُّ: النبيّ والنساء» فَقَدْ شَكَّكَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيم، وَرَدَّتْ أَحَادِيثَ صَحِيحَةً لَمْ تَرُقْهَا لأَنَّها فِي زعْمِهَا ضِدُّ النِّسَاءِ، وَجَرَّحَتْ بَعْضَ الصَّحَابَةِ

الَّذِينَ عَدَّلَهُمُ اللَّهُ وَزَكَّاهُمْ رَسُولُهُ ﷺ، بل وَاتَّهَمَتِ الرَّسُول ﷺ بَعدم الْعَدْلِ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ، وَبَلغَ بِهَا التَّطَرُّفُ أَنِ اعْتَبَرَتْ وَضْعِيَّةَ الْمَرْأَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَحْسَنَ بِكَثِيرٍ مِنْهَا فِي الإِسْلاَمِ!! وَهَذَا الْغُلُوُّ فِي مُعَادَاةِ الإِسْلاَمِ مَكَّنَ لَهَا عِنْدَ خُصُومِ الإِسْلاَمِ فَرَوَّجُوا لِكِتَابَاتِهَا وَمَا يَزَالُونَ يُرَوِّجُونَ لَهَا عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ فِي وَسَائِلِ إِعْلاَمِهِمْ الْمَقْرُوءَةِ وَالْمَسْمُوعَةِ وَالمَرْئِيَّةِ.

لَقَدْ أَجَادَتْ الأُسْتَاذَةُ عَقِيلَةُ تَنَاوُلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْقَدِيمِ الْجَدِيدِ وَأَفَادَتْ، فَرَغْمَ كَثْرَةِ الْمُؤَلَّفَاتِ فِي الاسْتِشْرَاقِ فَإِنَّ الْمَكْتَبَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ تَبْقَى فِي حَاجَةٍ إِلَى كِتَابٍ مُمَحَّضٍ لاسْتِجْلاَءِ مَوَاقِفِ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ لِخُطورَتِهِ يَحْتَاجُ إِلَى عِدَّةِ جُهُودٍ مُخْلِصَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ لأَنَّ الْحَمْلَةَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ بِاعْتِبارِهَا عُنْواناً بَارِزاً مِنْ عَنَاوِينِ الْهَوِيَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ مُتَوَاصِلَةٌ وَبِضَرَاوَةٍ.

فَالعَالَمُ الإِسْلاَمِيُّ الْيَوْمَ يَتَعَرَّضُ إِلَى مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ الْغَارَةِ الصَّلِيبِيَّة التَّغرِيبيَّةِ، فَبَعْدَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبيّة وَمَآسِيهَا جَابَهَ الاحْتِلاَلَ العَسْكَرِيَّ الاسْتِعْمَارِيّ الْمَذْعُومَ بِالْغَزْوِ الْفِكْرِيَّ مُتَمَثِّلاً فِي مُؤَسَّسَاتِ الاسْتِشْرَاقِ وَجحافل التَّنْصِيرِ الَّتِي وَجَدَتْ فِي ظِلِّ هَيْمَنَتِهِ الْمَنَاخَ الْمُلاَئِم لِتَشْوِيهِ الإِسْلاَمِ وَنَشْرِ الشُّبَهِ حَوْلَهُ وَإِيجَادِ بَطَانَةٍ لَهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَخَرَّجُوا عَلَى فِكْرِهِمْ فَأَضْحَوْا يَنْظُرُونَ إِلَى الْكَوْنِ بِعُيُونِهِمْ، وَهَا هُوَ الْيَوْمَ يُوَاجِهُ الْمَرْحَلَةَ الْجَدِيدَةَ مِنَ الْغَارَةِ مُمَثَّلَةً فِي الْعَوْلَمَةِ الَّتِي تَسعَى لإِتْمَامِ مَا عَجَزَ الاسْتِشْرَاقُ وَالتَّنْصِيرُ عَنْ تَحْقِيقِهِ، ذَلِكَ أَنَّ الْعَوْلَمَةَ وَلَئِنِ اتَّشَحَتْ بِوِشَاحِ الاقْتِصَادِ إِلاَّ أَنَّهَا تُخْفِي أَهْدَافاً خَطِيرةً فِي مُقَدِّمَتِهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْهَوِيّة بِكُلِّ مَا تُمَثِّلُهُ مِنْ أَبْعَادٍ عَقَدِيَّة وَثَقَافِيَّةٍ وحضَارِيَّةٍ، وَيَبْدُو أَنَّها لَنْ تَتَوَرَّعَ عَنِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ لِفَرْضِ إِرَادَتِهَا، إِذَا عَجَزَ التَّشْوِيهُ وَالتَّجْوِيعُ عَنْ تَحْقِيقِ مَا يَبْتَغُون مِنْ مَحْوِ هَوِيَّةِ الشُّعُوبِ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الْهَوِيَّةُ الإِسْلاَمِيَّةُ.

إِنَّ كِتَابَ الأُسْتَاذَة عقيلة حسين كَلِمَةُ حَقٍّ فِي وَجْهِ هَذِهِ الغَارَاتِ

الظَّالمَةِ، تَجَلَّى فِيهَا عِلْمُهَا وَكَفَاءَتُهَا وَإِخْلاصُهَا وَحِكْمَتُهَا الْبَالِغَةُ فِي تَنَاوُلِ هَذَا الْمَوْضُوعِ وَسَبْرِ خَفَايَاهُ وَإِبرَازِ خَبَايَاهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْتُبَ لِعَمَلِهَا هَذَا الْقَبُولَ وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِهَا وَأَنْ يُثِيبَهَا عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ مَا يُجْزِي الصَّالِحِينَ.

وَاللَّهُ مِنْ وَراءِ الْقَصْدِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

أ. د. أبو لبابة حسين
مدينة العين ـ جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة
الجمعة ٢٠ صفر الخير ١٤٢٣ هـ (٠٣ ـ ٠٥ ـ /٢٠٠٢م)

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

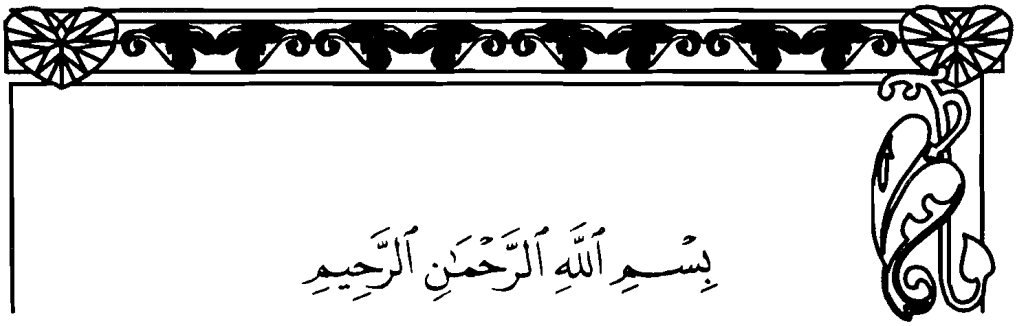

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

تعتبر المرأة المسلمة جزء من هذا الشرق، الذي هو موضوع الدراسات الغربية، بشتى اللغات، ومن شتى الدول الغربية والأمريكية.

وقد دأب الكثيرون من هؤلاء الباحثين والكتاب، من منطلق هذه الثقافة الغربية، على تقديم الإسلام كعدو للمرأة، وكدين رجالي جاء ليفرض هيمنة الرجل ويجعل المرأة مهمشة.

وهذا الإنتاج الفكري ـ مع الأسف ـ إما أن يلقى كل الترحيب والانبهار، بل التقليد والاتباع، وإما أن يلقى كل الرّفض، بل والتحذير من الاطلاع عليه ودراسته. وكلاّ الاتجاهين خطأ.

والتحذير من الاطلاع عليه قد يكون أكثر خطأ، وذلك لأن معرفة الغير جزء من معرفة تصرفاته وأهدافه، ومعرفة الغير يجعل الباحث النزيه يرد على بني ملته ووطنه ولغته وحضارته بكل موضوعية، لأن هؤلاء ما هم إلا ناقلين لهذا الفكر الغربي.

يقول في هذا الصدد الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ:

(من الأخطاء التاريخية التي أساءت إلينا كثيراً جهلتنا بغيرنا، وقصورنا

عن إدراك أحوالهم العامة، وقد يكون هذا الغير خصماً ضاغناً أو عدواً مزعجاً، وأكثر الغارات التي قوضت بنياننا الحضاري كانت الزلزال المباغتة لا يعرف لها وقت أو تتخذ لها أهبة. وقد سقطت عواصم وضاعت من دار الإسلام أقطار، والمسلمون في غفلات أول الليل... لقد كانت دراستنا للآخرين صفراً، مع أنّ الآخرين كانت تغلي مراجلهم ولا يفتئون يفكرون في النيل منّا والإتيان على ديننا من القواعد!).

إن الدعوة إلى قيام نظام عالمي جديد شهدت أوجهاً بداية هذه الألفية الجديدة، لتعتمد الجانب الاقتصادي نهجاً ومنهجاً في العولمة، ولكن في خلفياتها وفي عمق تحركاتها ترمي إلى التغير الجذري للأبعاد الثقافية والحضارية وتنميط السلوكات وطرق العيش ومحو الأعراف والتقاليد والديانات والهوايات في أسرنا ومجتمعاتنا.

والاستشراق هو الجانب العلمي والنظري الذي يعوّل عليه في تحقيق هذه الأهداف. فالكتابات الغربية تصور الإسلام والمسلمين بصور مشوهة، تربطها أحياناً بالإرهاب والتطرف، وأخرى بوظيفة المرأة في معاناتها في الأوساط الإسلامية، والإيهام بأن تعاليم الإسلام كلها حيف عليها وإقصاء لها كإنسان من المجتمع.

وفي ظل الطرح المتدفق كالسيل الجرار لقضايا المرأة والأسرة، قانون الأسرة، الحجاب، الحريات، المساوات، وغيرها. وعليه فتداخل العوامل الطبيعية والتاريخية الذاتية والموضوعية تجعل من المقاربات جميعها تقع في القواعد الأحادية، فتختزل القضية إلى أحد عناصرها، دون النظرة الشاملة، فيتم تجاوز العناصر والمتغيرات الأخرى.

وفي موقف الدراسات الاستشراقية؟ تتناثر الحجج والبراهين خارج دائرة العقل في محاولة يائسة للوقوف في وجه القيم والمبادىء، ومهما حاول الخطاب المقترح حول قضايا المرأة المسلمة سواء أكان من طرف

المستشرقين أو أتباعهم من الشرقيين أن ينأى بنفسه عن الانحياز، فلا بد أن يقع في فضاء الإيديولوجيا والخلفيات المكشوفة.

تقول الدكتورة أنا ماري شمل: «إن الكثير من الأحكام الظالمة التي نلصقها بالإسلام ناشئة عن سوء فهمنا وخطئنا في القياس المنطلق من معاييرنا الغربية ومثلنا وقيَمنا وليدة القرن العشرين المشرف على النهاية، هنا لب المشكلة والتي يجسدها تساؤلنا؟ هل يمكن أن تكون القيم الغربية، قيم المجتمع المعدوم إلا له، قيماً مطلقة؟!!».

ولا يخفى على أي مسلم الخلفيات والإيديولوجيات التي ينطلق منها الغرب في كتاباته عن المرأة المسلمة.

فقد كانت الدراسات الاستشراقية حول المرأة المسلمة كثيرة جداً حيث أنهم أقحموا هذا الموضوع في كل دراساتهم، فإن تطرقوا إلى التاريخ ذكروا أموراً في المرأة، وإن تطرقوا إلى علم الاجتماع ذكروا الأسرة العربية وأشاروا إلى وضع المرأة في الأسرة، وإن تطرقوا إلى الفقه والقانون ذكروا أموراً كثيرة عن المرأة وإن تطرقوا إلى العقائد ذكروا المرأة، وهكذا ما من علم أو مجال أو حدث مباشر أو غير مباشر إلا وكانت المرأة المسلمة موضوعاً للدراسة، تارة تلميحاً، وتارة تصريحاً، وأحياناً هجوماً وتحريضاً، وأحياناً أخرى وصفاً مغرضاً أو تحليلاً أعرجاً.

ولا يخرج الحديث عن المرأة المسلمة عن هذه المحاور: زوجات النبي ﷺ، الحقوق والواجبات، التعدد، نظام الأسرة، الحجاب.

ومن هذا المنطلق أردت أن يكون موضوع هذا الكتاب «المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي» لأبين ما يلي:

١ ـ تسليط الضوء على جانب مهم، أرى أنه لم يأخذ حقه من الدراسة والتحليل والنقد من طرف الباحثين الذين اعتمدوا بهذا الجانب وهو الدراسات الاستشراقية.

٢ ـ كثرة الكتابات النسائية التي تصب في قالب الاستشراق وقلة الدراسات النسائية التي تصب في إطار الإسلام والحق.

٣ ـ محاولة متواضعة لتصحيح المفاهيم والمغالطات والأخطاء المنهجية والعلمية التي صدرت عن المستشرقين ومن شأنها أن تؤثر سلباً على الذين لا يملكون خلفية عن هذا الصراع الحضاري.

٤ ـ المساهمة في إيقاظ الهمم، والدعوة إلى الله، وتوعية المرأة المسلمة، وإشعارها بخطورة ما يحاك ويدبر لها من مؤامرات، يقول محمد الغزالي: «إن المرأة المطروحة وراء سجن من الجهل والعمى يموت معها نصف الأمة ويمرض النصف الآخر، والمرأة المتروكة للغي والهوى تضطرب معها الأمة بأكملها، ويلعب بزمامهم شيطان، والأمة الإسلامية الآن نصفان: نصف لا مكانة للمرأة فيه، ونصف مكان المرأة فيه غلط».

لقد اخترت لهذا الكتاب هذا العنوان «المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي». ولعل القارىء يرى في عنوان هذا الكتاب شيئاً قد فاته الزمن وانتهى، فالكثيرون يقولون بأن الاستشراق انتهى وأن الغرب قد قرر التوقف على استخدام هذا المصطلح، ولم يعد يفي بوصف الباحثين المختصين في العالم الإسلامي. وقد ظهرت مصطلحات أخرى جذابة كما كان الاستشراق مصطلحاً جذاباً منها العولمة والكوكية والأمركة والباحثين العرب والمسلمين أكثروا من استعمالها في الوقت الراهن. لا لسبب إلا أن هذه المصطلحات هي التي يتداولها الغرب هذه الأيام. فموضة المصطلحات يصنعها الغرب، كما يصنع موضات كثيرة، الألبسة، المأكولات، المشروبات، السيارات. . . .؟!

ولكن الحقيقة التي لا مجال لإنكارها ولو تغيرت المصطلحات هي قضية علاقة الغرب بالشرق، ومحاولة هيمنة الغرب على الشرق ودراسته لا تنتهي وذلك عبر الإعلام، العولمة الأمركة صراع الحضارات. . . فالغرب

أصبح يتبادل الأدوار، فقد انتهى دور أوروبا الغربية بحروبها الصليبية واستشراقها، وجاءت أمريكا بعولمتها... ولكن الانتماء الذي لا يتغير بتغير المصطلحات هو مصطلح الشرق بكل خصائصه ومفاهيمه ومصطلحاته. وعليه فيبقى مصطلح الاستشراق صالحاً للاستعمال، ومفعوله أقوى من أي وقت مضى، وإذا كان الاستشراق قد شوّه صورة ومعالم وحضارة هذا الشرق في نظر الغرب، فإن الاستشراق الجديد بعولمته يريد أن يمحو صورة هذا الشرق وهويته، وتكملة للأدوار ما زال الاستشراق صالحاً كمصطلح له مدلوله وحضوره.

وتبقى المرأة المسلمة موضوعاً ووسيلة وهدفاً لكل الدراسات التي تخص الشرق. بل أهم الدراسات التي يعوّل عليها من تغيير صورة هذا الشرق حضارياً وثقافياً واقتصادياً. وما تعدد المؤتمرات حول قضايا المرأة منذ عقد التسعينات بدءاً من مؤتمر البيئة، فمؤتمر السكان بالقاهرة، ثم مؤتمر التنمية الاجتماعية بما سطرته من أولويات، حق التربية والتعليم والشغل وكلّها وسائل لتحقيق التحرر الذي تسعى إليه المرأة.

هذه المؤتمرات كغيرها تأتي في سياق سياسي اقتصادي بالدرجة الأولى، وتتخذ المرأة فيه ذريعة لمشاريع تهدف ظاهراً إلى تعميم الرفاهية وضمان حقوق الإنسان لجميع الأمم والشعوب وفي باطنها ترسيخ للمزيد من إقصاء الديانات والعمل على التبعية واستنزاف الخصوصيات والهويات الثقافية التي لا تنفصل في البلاد الإسلامية عن التعاليم والأخلاق التي يمليها الإسلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

الاستشراق

الفصل الأول: الاستشراق أهدافه ووسائله.

الفصل الثاني: علاقة الاستشراق بالقوى العالمية الكبرى.

الفصل الثالث: الاتجاهات العلمية والموضوعية للاستشراق.

الفصل الرابع: مجالات الدراسات الاستشراقية.

الفصل الخامس: مواقف العلماء المسلمين والعرب من الاستشراق

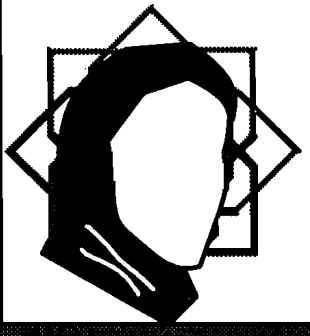

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول:

الاستشراق أهدافه ووسائله

المبحث الأول ـ تعريف الاستشراق

المبحث الثاني ـ رقعته الجغرافية

المبحث الثالث ـ أهداف الاستشراق

المبحث الرابع ـ وسائل الاستشراق

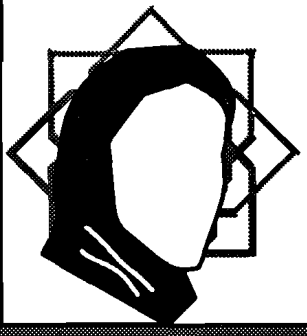

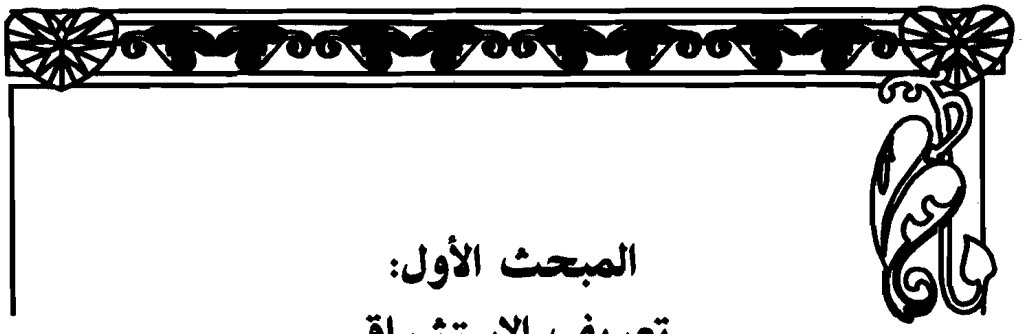

المبحث الأول:
تعريف الاستشراق

تعريف الاستشراق لغة:

الاستشراق كلمة مركبة من الشرق وإضافة (است) والتي تعني في قواعد اللغة العربية طلب الشيء. فالاستشراق إذن هو طلب الشرق.

والشرق كما جاء في لسان العرب[1] في مادة شرق، شرقت الشمس شروقاً طلعت، واسم الموضع المشرق، والتشريق الآخذ من ناحية المشرق، وشرقوا ذهبوا إلى المشرق أو أتوا المشرق.

وجاء في تاج العروس[2]، الشرق، الشمس حين تشرق وحيث تشرق الشمس، وقيل: الشرق الضوء الذي يدخل في شق الباب، وشرقت الشمس شرقاً وشروقاً طلعت وأضاءت وانبسطت على الأرض.

تعريف الاستشراق اصطلاحاً:

عرف الاستشراق بعدة تعاريف، من طرف الباحثين العرب والمسلمين ومن طرف المستشرقين.

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور دار إحياء التراث ـ بيروت ط ـ ١ ١٩٨٨ ـ مج ٧ ـ مادة شرق.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس ـ الزبيدي ـ دراسة وتحقيق علي شيري ـ دار الفكر ـ ١٩٩٤ ـ جـ ١٣ ـ ص ٢٣٧.

فقد عرف الدكتور حسن حنفي الاستشراق بقوله: (الاستشراق هو هذه المجموعة من الدراسات التي قام بها الباحثون الأوروبيون في أوج النهضة الأوروبية، إبان المد الاستعماري الأوروبي عندما أرادت أوربا جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتنية أي في المستعمرات خارج أوربا)[1].

من خلال هذا التعريف نجد أن المؤلف حصر الاستشراق في فترة النهضة الأوربية، وأنه نشأ لأغراض استعمارية.

مع أن الاستشراق استمر وتواصل حتى بعد استقلال معظم المستعمرات ولم يشر إلى الاستشراق الأمريكي والكندي بل حصره في أوربا، كما عرّف الاستشراق بأنّه (تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي، وحضارته وثقافته وعلومه، كما يطلق لفظ مستشرق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومصطلح شرق يشمل الشرق الأدنى والأوسط والأقصى)[2].

كما عرّف الاستشراق أحمد عبد التواب غراب بأنه (هو دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون ـ من أهل الكتاب بوجه خاص ـ للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخاً ونظماً وثروات وإمكانات... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتضليلهم، وفرض التبعية للغرب ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي) ليست كل الدراسات الاستشراقية أكاديمية.

---

(١) هموم الفكر والوطن ـ حسن حنفي ـ دار قباء ـ القاهرة ـ ط ٢ ١٩٩٨ ـ ص ٥٤٥.

(٢) الاستشراق والتبشير ـ قراءة تاريخية موجزة ـ محمد سيد الجليند ـ دار قباء ـ القاهرة ـ ١٩٩٩ ـ ص ٧.

يقول المستشرق الفرنسي رودنسون مكسيم (إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسات الشرق، والحاجة كانت ماسة لوجود متخصص للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية).

وقال رودي بارت (الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي).

والمستشرق بالمعنى العام تطلق على كلّ عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كلّه، أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه.

والمستشرق بالمعنى الخاص هو الذي يعني بالدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته[1].

وقال «ميكائيل انجلو جويدي»: ليس صاحب علم الشرق (أو المستشرق) الجدير بهذا اللقب الذي يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف غرائب عادات بعض الشعوب، بل أنّه هو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق، وبين الوقوف على القوّة الروحية والأدبية الكبيرة، التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية وهو من تعاطى درس الحضارات القديمة، ومن أمكنه أن يقرر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى أو في النهضة الحديثة)[2].

وقال المستشرق الإنجليزي آربري (من تبحر في لغات الشرق وآدابه فهو مستشرق).

---

(١) الدراسات الإسلامية العربية في الجامعات الألمانية ـ رودي بارت ـ ترجمة مصطفى ماهر ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ ص ١١.

(٢) مجلة الزهراء ـ ربيع الأول ـ ١٣٤٧ هـ. وهي محاضرة ألقاها هذا المستشرق بالقاهرة وأورد هذا التعريف في هذه المحاضرة.

وجاء في الموسوعة العالمية أن الاستشراق (هو حقل معرفي وإبداعي ضخم نشأ في الغرب (أوربا وأمريكا الشمالية) لدراسة الثقافات الشرقية (الآسيوية غالباً) وتمثلها في الفنون المختلفة، وتعتبر الجوانب السياسية والعلمية والدينية هي الأبرز بين جوانبه المختلفة فقد كان الهاجس الرئيسي وراء نشوته)[١].

ويقول الباحثون أنّ الصورة المشبوهة والتعصب الديني ما زال قائماً، وخاصة في تصور المستشرقين للقرآن والرسول والإسلام عموماً.

وذلك أن الصورة التي شكلها الاستشراق إنما استمدها من مصادر كنيسة، كُتبت أيام الصراع العنيف بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية وحروب الدولة العثمانية مع أوربا)[٢].

لقد تكلّم الباحث المعروف إدورد السعيد عن الاستشراق ونجده يتحدث عن الاستشراق كمعنى اصطلاحي في مواضع كثيرة من كتابه المعروف والمشهور (الاستشراق).

فالاستشراق عنده (هو الفرع من فروع المعرفة الذي تناول به الشرق (وبه يتناول) بطريقة منظمة من حيث هو موضوع للتعلّم والاكتشاف والتطبيق)[٣].

وقال في موضع آخر (أمّا الاستشراق فإنه حقل ذو طموح جغرافي وافر، وما دام المستشرقون تقليدياً، قد شغلوا أنفسهم بالأشياء الشرقية (فالمختص بالفقه الإسلامي، تماماً كالمختص باللهجات الصينية، أو الديانات

---

(١) الموسوعة العالمية ـ مؤسسة أمال الموسوعة للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية ـ ط ٢ ـ ١٩٩٩ ـ ج ١ ص ٧١٣.

(٢) نفس المرجع.

(٣) الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، إدورد السعيد، نقله إلى العربية كمال أبو ديب، الطبعة الرابعة، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ١٩٩٥ ص ٢٦٠.

الهندية، هو مستشرق في عرف من يسمون أنفسهم مستشرقين)[1].

ويقول في موضع آخر (الاستشراق قراءة الشرق بمنطق سلطوي ويؤسس للتمييز بين نمط المعرفة الغربية، التي توصف دائماً بالعقلانية، وبين الثقافة الشرقية التي بدت في كل التقريرات الاستشراقية عنواناً لنمط التفكير الأسطوري، ونموذجاً لعقل لا يمتلك الربط بين البرهان، وبين المقدمات والنتائج)[2].

هذه إذن جملة من تعاريف لعلم الاستشراق والمستشرق من طرف الباحثين العرب والمسلمين، ومن طرف المستشرقين، إلا أن بعضهم، وخاصة في الوقت الراهن يريدون التوقف عن استخدام مصطلح (استشراق)، فقد قال لويس برنارد على حملات تاريخية، ودلالات سلبية، ولم يعد يفي بوصف الباحثين المختصين في العالم الإسلامي.

وكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد بباريس عام ١٩٧٣م، بأن يستغنى عن مصطلح (استشراق)، ويطلق على هذه المنظمة (المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا) وعارض هذا القرار روسيا ومن يدور في فلكها واستخدم مصطلح (استشراق) في المجد بدون تحفظ.

ولعل من يريد تغيير هذا المصطلح هو أوربا الغربية وأمريكا (وذلك بغياب المستشرق التقليدي، وظهور الخبير الغربي المتخصص في مجال من المجالات السياسية والاقتصادية والدينية والعسكرية واللغوية، وغياب مراكز الاستشراق التقليدية، وظهور مراكز بحوث الشرق الأوسط)[3].

---

(١) نفس المرجع ـ ص ٨٣.

(٢) الاستشراق، إدورد السعيد.

(٣) الاستشراق في أزمة ـ مقالة لأنور عبد الملك ـ مجلة الفكر العربي المعاصر.

ويرجع بعض الباحثين[1] إلى أن السبب في تخلي أوربا وأمريكا عن مصطلح مستشرق واستبداله بخبير يرجع إلى:

١ ـ استقلال معظم الدول العربية والإسلامية من الاستعمار.

٢ ـ التبعية الاستشراقية للاستعمار والتنصير والصهيونية.

٣ ـ تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية في الغرب.

٤ ـ غياب المنهج في الدراسات الاستشراقية.

٥ ـ الصحوة الإسلامية ومواجهة الاستشراق والتنصير.

إلا أن الدكتور إدورد السعيد يرى بأن هذا المصطلح ما زال صالحاً للعصر الحالي وإن تعددت التسميات والمصطلحات فالمضمون واحد. (واحتمال أن يسمي المستشرق نفسه مستشرقاً اليوم أقل مما كان عليه في أي وقت آخر حتى الحرب العالمية الثانية تقريباً، ومع ذلك فإن هذه التسمية ما تزال مفيدة، كما هو الأمر عندما تستمر الجامعات في طرح مناهج تدريسية أو تأسيس دوائر اللغات الشرقية أو الحضارات الشرقية ثمة معهد للدراسات الشرقية في جامعة أكسفورد...)[2].

فإذن يبقى الاستشراق مصطلحاً صالحاً للاستعمال، وإن أراد استبداله بالدراسات والأبحاث والخبراء في العلوم الإنسانية.

وتبقى مصادر هؤلاء الخبراء والباحثين هي تلك الدراسات التي أعدّها أولئك المستشرقون حول الإسلام خصوصاً، والشرق عموماً.

(١) أنور عبدالملك ـ الاستشراق في أزمة ـ مجلة الفكر العربي المعاصر.

(٢) الاستشراق إدورد السعيد ـ ص ٨٣.

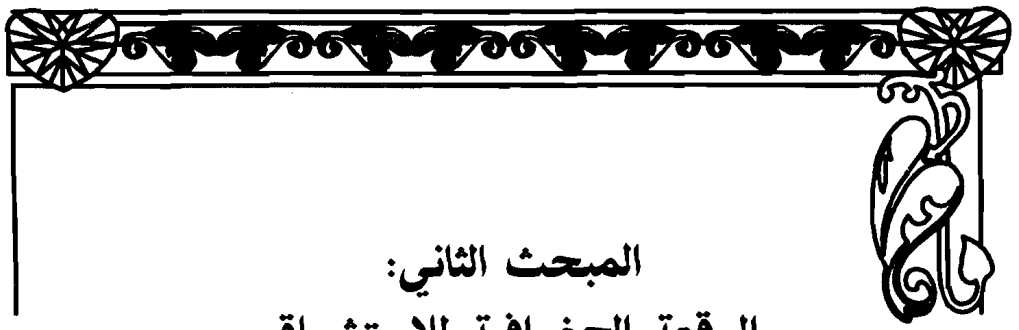

المبحث الثاني:
الرقعة الجغرافية للاستشراق

يرجع الكثير من الباحثين النشأة الأولى للاستشراق إلى انهزام الصليبيين في القدس، الذين بدأوا يحرضون شعوبهم على غزو الشرق، واعتبار هذه الحرب حرباً دينية، ومنه يمكننا أن نستنتج أن الرقعة الجغرافية للاستشراق بدأت من الدول الاستعمارية الكبرى بأوروبا، وهي فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وهولندا، ولم يكن الاستشراق حبيس الدول الاستعمارية فقط، بل اهتمت الكثير من الدول بالدراسات الإسلامية والعربية وهذه الدول هي التي وصلها الإسلام عبر الفتوحات كإسبانيا وإيطاليا وروسيا بجمهورياتها الكثيرة.

لكن هذا الاهتمام بالدراسات الإسلامية الذي كان عن قناعة وحب للإسلام تحوّل بعد طرد المسلمين وإخراجهم من هذه الدول، إلى استشراق بكلّ أهدافه ووسائله وقد كانت الاستشراق محل اهتمام دول أوربا الشرقية كذلك كالمجر ويوغسلافيا وبولونيا وغيرها. وقد ضربت أمثلة عن بعض الدول التي اهتمت بالاستشراق لا على سبيل الحصر.

وعموماً فإن الوقعة الجغرافية للاستشراق هي القارة الأوربية مع تفاوت بين بلدانها، والعالم الجديد وهو أمريكا وكندا، ولعل أنشط الدول في ذلك هي فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا وأمريكا.

يقول إدورد السعيد (فقد سيطرت إنجلترا وفرنسا إلى وقت متأخر على

إمبراطوريات اسلامية شاسعة، ونجد في هذين الدولتين ـ وبمستوى أقل في إيطاليا وهولندا ـ تقليداً طويلاً من التجربة المباشرة مع العالم الإسلامي، وينعكس ذلك في نظام تعليمي أكاديمي رفيع المستوى هو مستعمرات، أو التي كانت مجاورة لبلدان إسلامية، أو التي كانت هي نفسها دولاً إسلامية ذات يوم (مثل ألبانيا، إسبانيا، روسيا إلى ما قبل الثورة) وبالمقارنة لا نجد أيّاً من الأمور التي ذكرناها تنطبق على الولايات المتحدة، مع إقرارنا بأنّه لم يسبق لمثل هذا العدد الكبير من الأمريكيين أن كتبوا وفكروا أو تكلموا حول الإسلام[1].

الاستشراق الإسباني:

تعتبر إسبانيا أقدم دولة لها علاقة بالاستشراق، باعتبار أنّ الفتوحات الإسلامية وصلت إلى إسبانيا والبرتغال في القرون الأولى وقد كانت إسبانيا والبرتغال (الأندلس) حضيرة إسلامية، تابعة للخلافة الإسلامية، لمدة ثمانية قرون، وكانت الشعوب هناك تدين بالإسلام وإن وجد أهل الكتاب وغيرهم، وكان العلماء هناك يهتمون بالإسلام واللغة العربية، في كل المجالات العلمية وظهر عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والشعراء والأدباء والمؤرخين وغيرهم.

إلاّ أنّه خلال هذه القرون لا يمكن أن نطلق على الدراسات الإسلامية الإسبانية والبرتغالية، بأنّها دراسات استشراقية، بل هي دراسات إسلامية، قام بها المسلمون عن قناعة وحب للإسلام وتعاليمه ودون هدف أو خلفية استشراقية.

وعلى هذا فالاستشراق الإسباني المبني على قواعد علم الاستشراق قد تأخر بالمقارنة مع الاستشراق الأوربي عموماً.

---

(١) الإسلام والفكر الأصولي ـ ص ٤٢.

فجذوره إذن تعود إلى ما بعد سقوط غرناطة، حيث أصبحت إسبانيا دولة استعمارية، ثم احتكت بالشرق، وبدأت تنظر إليه بمنظور آخر. فقد كان جلاء العرب والمسلمين من إسبانيا جلاء فيه حقد وقتل ودمار وتخريب للكثير من الانجازات العلمية والعمرانية، فمنه بدأت إسبانيا تنظر إلى الشرق نظرة حقد وكراهية وانتقام.

وكان القرن الثامن عشر بداية ظهور الاستشراق الإسباني، وأُنشأت عدة جامعات ومعاهد للدراسات العربية والإسلامية، ومكتبة اسكوريال الشهيرة وغيرها من المكتبات الضخمة والهامة التي تضم المخطوطات والكتب الإسلامية، كما ظهر خلال هذا القرن عدد كبير من المستشرقين الذين اهتموا بالفهرسة والتحقيق ونشر المخطوطات والتأليف في مختلف جوانب الدراسات الإسلامية.

الاستشراق الروسي:

تعتبر روسيا أقدم دولة اتصل بها المسلمون، فقد فتحت الكثير من الجمهوريات التابعة لروسيا حالياً في بداية العصر الراشدي أي في عهد الخلفاء الراشدين، وكان من هذه الجمهوريات عدد كبير من العلماء الجهابذة في التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة العربية، منهم الإمام البخاري، والإمام الترمذي والكاساني وغيرهم.

فمعظم الجمهوريات التابعة لروسيا هي جمهوريات إسلامية شعوبها تدين بالإسلام وعلماؤها يهتمون بالدراسات العربية والإسلامية بكل نزاهة وموضوعية.

فالاستشراق الروسي يشبه إلى حد بعيد الاستشراق الإسباني لأنهما كانا من الدول التابعة للخلافة الإسلامية إلى أن سقطت الدولة العثمانية وظهرت بذور الشيوعية بروسيا فبدأ الاستشراق كعلم مع أواخر القرن الثامن عشر،

(فأول جامعة فتحت قسماً لتدريس اللغة العربية هي جامعة خاركوف سنة ١٨٠٤م. وكانت الدراسات الاستشراقية قليلة تتقطع تارة وتستأنف طوراً وبدأ ازدهار الدراسات الاستشراقية بروسيا في أواخر القرن التاسع عشر)[١] حيث أسست أقسام وكراسي لتدريس العربية، والمكتبات والمجلات ومعاهد...

الاستشراق الألماني:

يرجع الكثير من الباحثين إلى أن الاستشراق الألماني ظهر مع الحروب الصليبية وألفت الكتب وأنشأت المطابع والكراسي للدراسات العربية منذ القرن السادس عشر الميلادي. وبعدما كان الاتصال عن طريق الاستعمار وفي مطلع القرن الثامن عشر تعلم الألمان اللغات الشرقية في هولندا ولما عادوا إلى ألمانيا أنشأوا لها أقساماً خاصة بجامعاتهم ومنها اللغة العربية (فأنشأت مدرسة اللغات الشرقية في برلين عام ١٨٨٧ ويعد فلاشير (١٨٠١ ـ ١٨٨٨م) وإيفالد (١٨٠٣ ـ ١٨٢٥) أشهر مؤسسي الدراسات العربية في ألمانيا وتخرج عليهما الكثير من المستشرقين) الذين اهتموا بالتدريس وفهرسة المخطوطات وتنظيم المكتبات وتحقيق للكتب ونشرها وإصدار المجلات المتخصصة في الاستشراق وغيرها[٢].

الاستشراق الهولندي:

يرجع تاريخ الاستشراق الهولندي[٣] عند الكثير من الباحثين إلى القرن السادس عشر الميلادي، حيث أنشأ كرسي اللغة العربية ثم للدراسات الإسلامية في جامعة ليدن، واتصلت هولندا بحرب المغرب الأقصى وموانىء الشرق الأوسط والإمبراطورية العثمانية ولا سيما بمسلمي الهند الشرقية،

---

(١) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ دار المعارف ـ ط ٤ ـ بيروت ـ جـ ٣ ـ ص ٥٣ ـ ٦٧.

(٢) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ص ٣٤٢ ـ ٣٥٤.

(٣) انظر المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ ص ٢٩٥ ـ ٣٠١.

اتصالاً سياسياً وتجارياً وثقافياً لأن هولندا كانت دولة استعمارية آنذاك. ولما اجتاح الفرنسيون المستعمرات الهولندية وتقلصت مصالحها في الدول الشرقية. قصرت الدراسات الاستشراقية على المجالات العلمية واهتموا بتاريخ الشرق وجغرافيته وتحقيق ذواته وجمع المخطوطات والترجمة والفهرسة للدراسات العربية والإسلامية. وكانت جامعات ومعاهد كثيرة تهتم بهذا المجال كجامعة لندن وجامعة أمستردام وجامعة أوكرفت والمعهد الشرقي لدراسة الشرق والإسلام، والمعهد الهولندي لآثار ولغات الشرق الأدنى وغيرها. كما أنشأت هولندا مكتبات جمعت الكثير من المخطوطات النفيسة وأشهرها مكتبة جامعة ليدن. وقد أشرف على هذه الجامعات والكراسي الخاصة باللغة العربية والدراسات الإسلامية الكثير من المستشرقين الهولنديين الذين تناولوا الدراسات الشرقية من جوانب عدة، التحقيق، الفهرسة، التآليف، الترجمة وغيرها.

الاستشراق الإيطالي[1]:

تعتبر إيطاليا أقدم الأمم اتصالاً بالشرق، وكان لها احتكاك كبير وقديم باللغة العربية، وقد كان للفاتيكان دور كبير في إدخال تعلم اللغات الشرقية إلى إيطاليا، وذلك منذ القرن العاشر الميلادي.

فقد عنيت جامعة بولونيا عام ١٠٧٦م بعلوم العرب، وعنيت جامعة نابولي عام ١٢٢٤م بثقافاتهم، وجامعة سيانا عام ١٢٢٦م بآدابهم وجامعة روما بدراسة الآثار واللغة العربية والألسنية...

كما أُسس مركز اللغات الشرقية في روما عام ١٦٢٣م، وعيّن الأب جارديان من القدس أول أستاذ للعربية هناك، كما أنتجت إيطاليا دراسات وحوليات ومجلات تهتم بالدراسات الشرقية.

---

(١) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ جـ ٣.

وقد كان الإقبال على هذه الدراسات قليلاً جداً من قبل الإيطاليين مقارنة مع غيرهم من الأوربيين.

فلم يشتهر منهم إلا القليل. وفي القرن التاسع عشر عاد النشاط إلى الاستشراق الإيطالي ونظمت إيطاليا لدراسة اللغات الشرقية، وعهدت بها إلى أولائك المستشرقين مثل أماري ونيللو والأسقف بوجارديني وغيرهم.

الاستشراق الفرنسي:

لقد كان لفرنسا احتكاك بالعرب والمسلمين منذ الفتوحات الإسلامية، التي وصلت إلى جنوب فرنسا بقرب من إسبانيا وقد طلب الفرنسيون الثقافة العربية في مدارس الأندلس وصقلية وبعدما أنشئت المدارس لتعليم اللغة العربية، وجلبت الكثير من المخطوطات والكتب من كلّ أنحاء العالم الإسلامي.

وقد أنشأت فرنسا أول كرسي للغة العربية في بداية القرن الرابع عشر للميلاد في مدارسها وجامعاتها. كما أنشىء في هذا العصر كرسي للدراسات الإسلامية في جامعة باريس تتمة للقسم العربي في السربون ويهتم بتاريخ وحضارة العرب والفقه الإسلامي.

(ولم تقتصر فرنسا على تعليم اللغة العربية على مدارسها وجامعاتها بفرنسا بل أنشأت مثيلاتها في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا وخاصة في مستعمراتها، فقد أسس معهد الدراسات العليا بتونس، ومدرسة الآداب العالية بالجزائر عام ١٨٨١م ومعهد الدراسات المغربية بالرباط ١٩٣١، والمعهد الفرنسي بدمشق. . .)[١].

---

(١) المستشرقون ـ جـ ٢ ص ٢٣٢ ـ.

الاستشراق الإنجليزي:

يرجع بعض الباحثين بداية الاستشراق الإنجليزي إلى ما قبل الحروب الصليبية حيث توجه نفر من الإنجليز إلى الأندلس للدراسة في جامعاتها ومدارسها، ومنهم (ادلارد أوبات) المتوفي عام ١١٣٥م، الذي قام برحلات واسعة إلى الأندلس وسوريا، ودرس من خلالها اللغة العربية والعلوم الإسلامية وعاد إلى بريطانيا فعمل معلماً للأمير هنري)...[١] إلا أنّ هذه البداية لم تؤلف تياراً استشراقياً كما نعرفه الآن. فقد غلب الطابع الفردي. حتى جاء القرن ١٧م الذي يعدّه الباحثون البداية الحقيقية للدراسات الاستشراقية في إنجلترا وذلك بإنشاء كراسي اللغة العربية في الجامعات البريطانية الكبرى. فقد تأسس كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج (عام ١٦٣٢) وفي أكسفورد عام ١٦٣٦م. وكان أبرز المشترقين في هذه الفترة هو (وليام بدول) ت ١٦٣٢م. وكانت خلفيته العلمية كنيسية، مما جعله يتخذ موقفاً معادياً للإسلام وللرسول ـ ﷺ ـ وظهر ذلك جلياً في كتاباته التي نشرت.

ويعلق أحد المشترقين على الدراسات العربية والإسلامية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت يقول هولت (... ومع ذلك فإنّ صورة الدراسات العربية عموماً صورة كئيبة فإن بعض الأساتذة لم يكونوا يعرفون اللغة التي من المروض عليهم تدريسها إلا قليلاً، أو لا يعرفونها تماماً. ولم يقدموا شيئاً حقيقياً لتوسع آفاق الدراسات)[٢].

وفي القرن التاسع عشر للميلاد، انتشرت حركة الاستعمار العالمي وأصبحت بريطانيا أكبر قوة استعمارية في العالم، وقعت أجزاء كبيرة من الشرق والعالم الإسلامي تحت الاستعمار البريطاني ومنه ازدادت دراسات المستشرقين، كما ازدادت المعرفة الاستشراقية بعالم الشرق كمجال معرفي خصب، واكتشاف

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ـ جـ ٢ ص ٤٣ ـ ٤٨.

(٢) الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي (د/ مازن المطبقاني) ص ٣٠.

علمي لمجتمعات لم تكن معروفة من قبل، ومن أبرز المستشرقين في هذه الفترة (إدورد وليام لين) ت ١٨٧٦م الذي ألف كتاباً في أخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم. وألف قاموسه المشهور (English lexican Arabic -) الذي نشر منه في حياته خمسة أجزاء ونشر ابنه الأجزاء الباقية.

ومنهم أيضاً (إدورد هنري ت ١٨٨٣م) وألف كتاب (التصوف الشرقي) وكتاب (قواعد اللغة العربية).

ومنهم أيضاً (وليم رايت ت ١٨٨٩م) الذي عمل أستاذاً في جامعة لندن وكمبردج ونشر كتاب (نفح الطيب للمقري) وكتاب (الكامل للمبرد) وترجم كتاب كليلة ودمنة ورحلة ابن جيرو من المستشرقين الانجليز المشهورين كذلك (ريتشارد بيرتون ١٨٩٠م) الذي ترجم كتاب (ألف ليلة وليلة) وقال في مقدمته (إنه إنما يتعرف مواطنوه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم، ليكون لديهم الحنكة الضرورية لحكم المسلمين والواقعين ضمن امبراطوريتهم).

الاستشراق الأمريكي:

تصنف أمريكا ضمن دول العالم الجديد، وبالتالي فالاستشراق الأمريكي ليس استشراقاً قديماً، كما هو في دول أوربا، بل هو استشراق معاصر حديث، ويرجع الكثير من الباحثين إلى أنّ الاستشراق الأمريكي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية، لمّا انقلب ميزان القوى لها فبدأت تخطط للعولمة والهيمنة على العالم، وخاصة العالم الإسلامي الغني بثرواته المادية والبشرية والمعنوية.

فكانت أمريكا تريد أن تنفرد بقيادة العالم ولا يمكنها ذلك إلا بمعرفة ثقافة شعوبه وقيمه فأنشأت مراكز البحوث الكثيرة والمؤسسات العلمية المختلفة والمعاهد العليا للدراسات الشرقية.

وأصبح الاستشراق علماً نشيطاً وغزيراً غزارة عدد الباحثين فيه من

الأوربيين الذين أغرتهم أمريكا بالأموال والتشجيعات، وعدد المراكز والمعاهد والمؤسسات التي أنشئت لهذه الدراسات وعدد الباحثين والعلماء الذين أرسلوا إلى الدول الإسلامية للاطلاع مباشرة على أحوالها وظروفها.

وخلال خمسين سنة نشط الاستشراق الأمريكي عبر الندوات والدراسات والكتب ووسائل الإعلام وما زال يقدم المدد والتشجيع للدراسات الشرقية يقول الدكتور مازن المطبقاني (انتشرت مراكز الدراسات العربية الإسلامية وأقسام الشرق الأوسط في الجامعات والمعاهد العلمية الأمريكية حتى تجاوز عددها المئات وبدأت نشاطاً مجموعاً في دراسة العالم الإسلامي، وبعد مضي فترة من الزمن لم تطل كثيراً أصبحت هذه المراكز عصب السياسة الأمريكية تمد السياسيين بالمعلومات والمقترحات والآراء والخطط، وحدث تبادل في المراكز فكم مستشرق أو متخصص في الدراسات العربية الإسلامية انتقل إلى العمل السياسي وكم سياسي ترك السياسة إلى العمل الجامعي والبحث والدراسة[1].

ويذكر إدورد سعيد (أن الخبرة الأمريكية مع الإسلام قليلة، وقدر يسير من هذه التجارب الملموسة البينة، فقد كانت الاتصالات الأمريكية بالإسلام محدودة جداً في القرن التاسع عشر، ويتبادر إلى أذهاننا بعض الرحالة مثل مارك توين أو هيرمان ملفيل أو الإرساليات التبشيرية المتناثرة هنا وهناك، أو الحملات العسكرية إلى شمالي إفريقيا والتي كان عمرها محدوداً، أما على الصعيد الثقافي فالإسلام يخطى بموقع واضح في أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية، وكان الخبراء الأكاديميون عادة ينجزون أعمالهم حول الإسلام في زوايا هادئة في خلوات اللاهوتية، لا في ظل الأضواء المتوهجة للاستشراق ولا على صفحات الصحف والمجلات الرائجة...

---

(١) بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر ـ د/ مازن المطبقاني ـ ط ١ ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م ـ ص ٣٦.

ومن ناحية ثانية، نجد أنّ جميع البارزين الكبار في الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية هم غرباء المولد، فهناك اللبناني الأصل فيليب حتى في جامعة برنستون، والنمساوي غوشاف فون غرونباوم في جامعة شيكاقو وكولومبيا، والإنجليزي هـ. أ. ر. جب في جامعة هارفارد، والألماني جوزيف شاخت في جامعة كولومبيا...)[1] ورغم تأخر ظهور (الاستشراق في أمريكا، وظهوره على يد غير الأمريكيين فإن الاستشراق هناك نشط والدراسات كثيرة سواء عن طريق وسائل الإعلام أو الدراسات الجامعية المتخصصة.

هذه هي الدول العظمى التي نشأ وترعرع الاستشراق، ومعظمها تلك الدول الاستعمارية التي دخلت مع الشرق في صدامات وصراعات كثيرة من حروب صليبية إلى استعمار إلى هيمنة ثقافية واقتصادية إلى العولمة. يقول إدورد السعيد (لقد قام الاستشراق بكل تأكيد في البلاد التي رغبت بامتلاك مستعمرات، أو التي كانت مجاورة لبلدان إسلامية، أو التي كانت هي نفسها دولاً إسلامية ذات يوم مثل ألبانيا وإسبانيا وروسيا. أما أمريكا فلم يسبق لمثل هذا العدد الكبير من الأمريكيين أن كتبوا وفكروا وتكلموا حول الإسلام... لقد كانت الاتصالات الأمريكية بالإسلام محدودة جداً في القرن التاسع عشر.... وعلى الصعيد الثقافي فالإسلام يحظى بموقع واضح في أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية... فالدراسات الإسلامية في الحقل الأكاديمي تنتمي عموماً إلى برامج المناطق (أوربا الغربية، الاتحاد السوفياتي، جنوب شرق آسيا...)[2].

---

(١) الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، تأليف بونارد لويس ـ إدورد السعيد ـ دار الجيل ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ ـ ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) انظر ـ الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية ـ تأليف بونارد لويس ـ إدورد السعيد ـ دار الجيل ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩٤ ـ ص ٤٠ ـ ٤٤ ـ ٥٥.

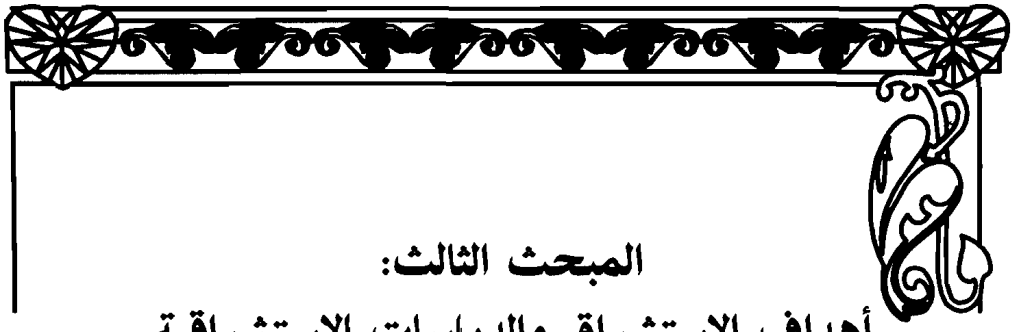

المبحث الثالث:
أهداف الاستشراق والدراسات الاستشراقية

إن الدراسات الاستشراقية كثيرة جداً، وأكثر الدراسات تناولاً هي اللغة العربية والعلوم الشرعية مقارنة مع العلوم الأخرى التي تميز بها المسلمون. ولعل أبرز هدف للاستشراق هو (إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربي وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر)[1].

فالنزعة الاستشراقية تقوم على احتقار الحضارات الشرقية بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة. وأصبغت عليها طابع التخلف والانحطاط وذلك راجع في نظرهم ـ إلى أن العقول الإسلامية تحجرت في حضارة الأوهام والخيال التي أصبحت حاجزاً مانعاً أمام كلّ اختراع وتقدم. وعلى هذا الأساس يعتقد المستشرقون ويبدون ذلك صراحة في كتبهم، أنّه أصبح من الضروري للذات الشرقية والعربية أن تسير على درب أوربا حتى يتسنى لها تسيير شؤونها الإدارية والسياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية وفي هذا الصدد يقول إدورد السعيد (بالنسبة إلى الغرب، انطوى فهم الإسلام على محاولة تحويل تنوعه إلى جوهر وجداني، غير قابل للتطور، وقلب أصالته

(١) معالم الثقافة الإسلامية ـ د/عبد الكريم عثمان ـ ص ٩٩.

إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية ومسخ شعوبه إلى كاريكاتورات مثيرة للرعب)[1].

ويعتبر الدكتور حسن حنفي أن أهداف الاستشراق واضحة ومكشوفة (فالاستشراق ليس علماً على الإطلاق يكشف عن حقيقة بل هو سلاح في أيدي الدول الغربية لتحجيم الأنا، وهيمنة الآخر، يكشف عن الغرب عقليته وتاريخه وأهدافه ومناهجه أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس)[2].

إن الأهداف واضحة وجلية في الدراسات الاستشراقية، فالهدف العام هو تحجيم الآخر وتضييق مجال تحركه وحديثه ثقافياً ودينياً اقتصادياً وسياسياً وذلك بالتركيز على جملة من الدراسات لأهم مقومات الشخصية الإسلامية منها:

١ ـ إنكار أن يكون القرآن الكريم كتاباً سماوياً منزّلاً من عند الله ـ تعالى ـ وزعمهم أنه ليس أكثر من تعبير عن انطباع البيئة العربية في نفس الرسول ـ ﷺ ـ وقد تصدى لرفض هذه الأباطيل عدد كبير من علماء الإسلام والباحثين.

٢ ـ التشكيك في كون الرسول ـ ﷺ ـ نبياً مبعوثاً من عند الله ـ تعالى ـ وخاتم النبيين وفسروا مظاهر الوحي بتفسيرات بعيدة عن العلمية والموضوعية.

٣ ـ إنكار أن الإسلام دين خاتم لكل الديانات وناسخ لبعض الشرائع ومثبت للوحدانية واعتباره دين ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية، دون مستند علمي موضوعي.

---

(١) تعقيبات على الاستشراق ـ إدورد سعيد ـ ص ٢٨.

(٢) هموم الفكر والوطن ـ حسن حنفي ـ ص ٥٤٥.

٤ ـ التشكيك في صحة الحديث النبوي، الذي اعتمده العلماء المحققون، متجاهلين كل الجهود التي بذلت من طرف العلماء في تنقية الحديث الصحيح.

٥ ـ التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي، وذلك التشريع المتكامل الصالح لكل زمان ومكان، لم يجتمع مثله لجميع الأمم في جميع العصور، فلم يتوانوا في نسبه إلى الفقه الروماني أو الفكر اليهودي أو المسيحي.

٦ ـ التشكيك في قدرة اللغة العربية مسايرة التطور العلمي، كما شككوا في غنى الأدب العربي، وفي صحة الشعر الجاهلي...

٧ ـ التشكيك في التراث الإسلامي وقيمته العلمية الكبيرة في تحريك عجلة التطور الحضاري للبلاد الإسلامية واعتباره لا شيء ولا إبداع فيه بل العرب ليسوا إلا نقلة للفلسفة الرومانية واليونانية فقط.

هذه بعض المجالات التي أخذت جهداً ووقتاً كبيراً من المستشرقين حيث أنها أهم أهدافهم ووسائلهم التي يمكن أن يقزموا الآخر (الشرق) ويضعفوا حضارته وهويته.

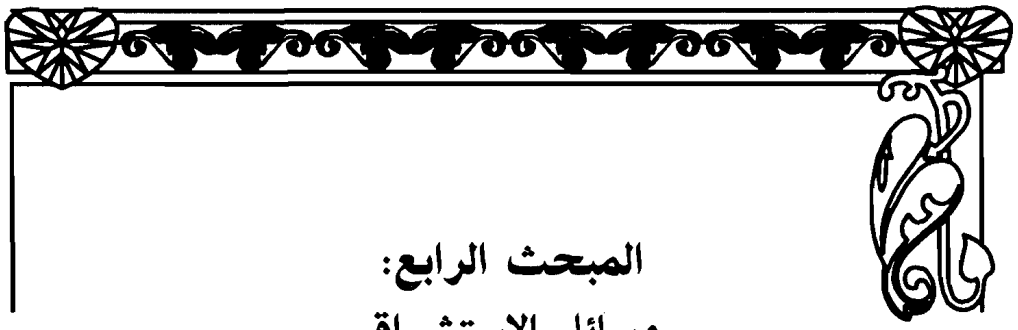

المبحث الرابع:
وسائل الاستشراق

لقد حدّد الاستشراق منذ نشأته دوافعه التي وإن اختلفت شكلاً فهي تتفق جوهراً فمن دافع تبشيري استعماري إلى دافع اقتصادي سياسي، إلى دافع علمي ثقافي، إلا أنّ الموضوعية كانت قليلة بالمقارنة مع حجم الدراسات الكبير جداً.

يقول إدورد السعيد (إنه من خصائص الاستشراق النظرة الاستعلائية والارتباط بالإمبريالية والاستعمار وتشويه تاريخ الإسلام والمسلمين)[1].

ومن أجل تحقيق كل الأهداف والدوافع اتخذ الاستشراق جملة من الوسائل للوصول إلى الأهداف.

١ ـ إنشاء المعاهد والجامعات:

لم تخل دولة أوربية اهتمت بالاستشراق من إنشاء جامعة أو معهد عال للدراسات العربية والإسلامية منذ بداية احتكاكها بالشرق، فكانت الجامعات الغربية والأمريكية تهتم بالدراسات الشرقية عبر معاهد متخصصة أو في مجالات التدريس الغربية كالفلسفة والتاريخ والسياسة وعلم الاجتماع وغيرها.

---

(١) تعقيبات عند الاستشراق ـ ص ـ ٣٣١.

٢ ـ إنشاء المكتبات واقتناء الكتب:

لم يتأخر المستشرقون في اقتناء الكتب العربية، وإعمار مكتباتهم بها وكان هذا الاقتناء عن طريق الشراء أو السرقة أو النقل المباشر خاصة أثناء فترة الاستعمار الذي اجتاح معظم الدول العربية، وتكاد الكتب المهمة التي لا نجدها في بلاد المسلمين توجد في بلاد الغرب.

٣ ـ جمع المخطوطات وفهرستها:

لا تخلو مكتبة أو مركز علمي بأوربا من المخطوطات العربية الهامة في مختلف العلوم والفنون، وتحصلت عليها أوربا إما عن طريق الاستيلاء بالقوة أيام الاستعمار، أو عن طريق الشراء، أو الأخذ. وقد كان اهتمام المستشرقين بالمخطوطات كبيراً جداً وذلك لوعيهم بقيمة هذه المخطوطات حضارياً وثقافياً، وقد اعتنى المستشرقون بالمخطوطات ليس جمعاً واقتناء وصيانة فقط، بل وضعوا لها فهارس دقيقة وتقوم على منهجية علمية لتسهيل مهمة الباحثين فقد قامت باحثة روسية في القرن ١٦م بفهرسة نوادر مخطوطات القرآن الكريم، وأثنى على هذا العمل الشيخ أمين الخولي.

وما فعله كارل بروكلمان لا يجهله أي باحث، فكتابه تاريخ الأدب العربي لا يستغني عنه باحث. وهو الذي فهرس الكتب العربية المخطوط منها والمطبوع فهرسة علمية دقيقة، وقد كان بروكلمان دائم العناية بكتابه هذا وبإكماله على مدى نصف قرن وذلك بناء على ما يكتشف من مخطوطات ويقوم الآن الباحث التركي فؤاد سزكين بإكمال هذا العمل الجبار وذلك في كتابه (تاريخ التراث العربي) باللغة الألمانية. وقد ترجم بعضه إلى اللغة العربية ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنين.

تحقيق المخطوطات ونشرها:

ولم يكن عمل المستشرقين مقتصراً على اقتناء المخطوطات وملأ

رفوف المكتبات بها، وبفهرستها، بل انتشرت في أوربا حركة نشيطة لتحقيق المخطوطات ونشرها والغرض هو الاطلاع أكثر على تراث المسلمين، فحققوا الكثير من الكتب ونشروا الكثير كذلك في مختلف العلوم الشرعية واللغوية منها نشرهم لسيرة ابن هشام، والاتقان للسيوطي، والمغازي للواقدي، تاريخ الطبري، والكامل للمبرد والإصابة لابن حجر والأحكام السلطانية للماوردي والاشتقاق لابن دريد وكتاب سيبويه وتجارب الأمم لابن مسكويه، وفهرست ابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وصحيح البخاري ومقالات الإسلاميين للأشعري، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني والأغاني للأصفهاني وطبقات ابن سعد الفقه الأكبر لأبي حنيفة وعدد كبير من دواوين الشعر العربي لمختلف الشعراء.

فهذه الفهارس التي وضعت للمخطوطات والكتب العربية، وهذه المخطوطات التي نشرت وحققت وإن استفاد منها الباحثون المسلمون والعرب، فإنها لم تضع من طرف المستشرقين لهذا الغرض، بل وضعت من أجل البحث الاستشراقي وإثرائه وتطوره. وأكثر المخطوطات تحقيقاً ونشراً هي التي تدور في فلك الفلسفة وعلم الكلام، وكتب الضعيف والشاذ من التاريخ وغيرها.

ويقول إدور السعيد (لقد استجاب الاستشراق للثقافة التي أنتجته أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم الذي كان هو أيضاً من نتاج الغرب وهكذا فإن لتاريخ الاستشراق في آن واحد ومع الثقافة المسيطرة المحيطة به)[1].

تأليف الكتب والبحوث والدراسات:

لقد كان نشاط المستشرقين كبيراً في تأليف الكتب والبحوث في الموضوعات المختلفة عن الإسلام واتجاهاته والرسول ﷺ والقرآن والسنة

(١) الاستشراق ـ ص ٥٥.

والتاريخ والأدب وعلم الاجتماع والتصوف وعلم الكلام وكانت هذه الكتب تتسم بالموضوعية حيناً وبالذاتية والتعصب والبعد عن المنهج العلمي أحياناً كثيرة وقد ذكر الأستاذ أنور الجندي أن إنتاج المستشرقين بلغ ستين ألف كتاب خلال القرنين الماضيين.

تأليف المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف:

لم يؤلف المستشرقون كتباً ودراسات وبحوثاً في مجال معين فقط بل كانت جهودهم كبيرة في تأليف المعاجم والموسوعات الضخمة والكبيرة التي تتطلب جهداً ومالاً ووقتاً.

فقد كان لهم باع طويل في تأليف المعاجم والقواميس اللغوية، وكان أول قاموس أنجز هو قاموس لاتيني عربي في القرن الثاني عشر الميلادي إضافة إلى قواميس كثيرة التي تجمع بين العربية وغيرها من اللغات الأوربية المختلفة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

ومن المعاجم المهمة التي ألفت المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ويشمل كتب السنة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وقام بهذه المهمة مجموعة من المستشرقين وترجمه فؤاد عبد الباقي إلى العربية.

إضافة إلى القواميس والمعاجم ألف المستشرقون دائرة المعارف الإسلامية وهي إنجاز ضخم اشترك فيه عدد كبير منهم، وقسموا المواد بينهم. وقد صدرت سنة ١٩١٣م إلى ١٩٣٨م في طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية... وقد قام بترجمتها مجموعة من الباحثين المصريين ولم تكتمل إلى يومنا هذا بل وصلت إلى حرف العين.

وصدرت هذه الدائرة في طبعة أخرى، أعيدت فيها كتابة المقالات والبحوث بناء على ما صدر ونشر واكتشف من مخطوطات وبحوث

ودراسات وظهرت هذه الطبعة باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية عام ١٩٥٤ حتى ١٩٧٧م.

والمتصفح لموادها يكتشف الكثير من التحامل والطعن والافتراء على الإسلام والمسلمين خاصة. ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين في البلاد الإسلامية.

١ ـ الاعتناء بالترجمة:

لم يقتصر نشاط المستشرقين على التأليف والتحقيق والنشر، بل تعداه إلى الاهتمام بالترجمة وذلك لتعميم الثقافة إلى كل الشعوب الأوروبية التي لا تتقن العربية، وقد قاموا بترجمة عدد كبير من الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، منها الألمانية والإنجليزية والإيطالية والروسية والفرنسية والإسبانية واللاتنية والهولندية، ومن الكتب التي ترجمت الكثير من دواوين الشعر والمعلقات وتاريخ أبي الفداء وتاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي والإحياء للغزالي والأغاني للأصفهاني وإضافة إلى الترجمات العديدة التي قام بها المستشرقون على اختلاف بلدانهم ولغاتهم للقرآن الكريم.

إصدار دوريات ونشرات ومجلات:

لقد أصدر المستشرقون العديد من المجلات والدوريات والمطبوعات المختلفة والمتخصصة في العالم الإسلامي والعربي.

منها مجلة (ينابيع الشرق) التي صدرت في فينا عام ١٨٠٩م ـ ١٨١٨م ومجلة الإسلام بفرنسا عام ١٨٩٥ (تسمى le monde musulmant) ومجلة عالم الإسلام ببريطانيا عام ١٩٠٦ ومجلة الإسلام بألمانيا عام ١٩١٠م وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون في الوقت الحاضر هي (مجلة العالم الإسلامي the muslim world) وهي مجلة أنشأها صموئيل زويمر عام ١٩١١م وتصدر الآن من هارنفورد بأمريكا.

وبالإضافة إلى المجلات والنشريات والدوريات المختصة في العالم الإسلامي والتي تصدرها معظم الدول الأوربية. فهناك أيضاً صحفات وأعمدة في الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات والدوريات لتشويه الإسلام والمقدسات يقرأها الغرب يومياً مع أخبار السياسة والمجتمع والفكر. ولعل الاستشراق يظهر مفضوح الأهداف والوسائل عندما تكتب جرائده ومجلاته مقالات للأطفال تشوه صورة النبي ـ ﷺ ـ يقول عبدالله بن كنون من المغرب (أذكر للإعتبار أنني كنت في إسبانيا ذات يوم، وصادف وجودي في غرناطة يوم الاثنين، وهو يوم تعطل فيه الصحف الإسبانية ولا تصدر إلا صحيفة واحدة تسمى صحيفة الاثنين، فأخذت هذه الجريدة لأنظر فيها أنباء اليوم... فإذا داخلها ملحق صغير للأطفال يكاد يستغرقه كلّه، مقال رئيسي بعنوان (محمد النبي المزيّف) يكتب بلغة سهلة ومبسطة ولكنها مليئة بالهزء والسخرية، وقد بني المقال على فكرة أن القرآن مقتبس من التوراة والانجيل اقتباساً مشوهاً لأن صاحبه ـ على حد تعبير الكاتب ـ كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة وإنّما تلقف ما ضمنه كتابه من أفواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب، ومن بعض الرهبان الذين لقيهم في أثناء رحلته إلى الشام)[1].

ويعلق الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ على هذا النص (وهكذا يعمل النصارى على تنشئة أبناءهم من الصغر على احترام عقيدتهم ـ وحدها ـ ويرابط الكاثوليك في حصن غرناطة مستأنفين إلى اليوم مطاردة الإسلام حتى في نشرات الأطفال...؟)[2].

ـ عقد المؤتمرات والندوات:

لقد عقد المستشرقون العديد من المؤتمرات والندوات العلمية حول

---

(١) علل وأدوية ـ محمد الغزالي ـ ص ٦٧.

(٢) نفس المرجع ـ ص ٦٧.

الاستشراق وكانوا يحضرون من كل مكان والهدف هو تنسيق الجهود وتبادل المعارف حول هذا الشرق الجذاب، وقد أحصى بعض الباحثين عددها إلى حوالي ثلاثين مؤتمراً منذ مؤتمر باريس عام ١٨٧٣م. هذا عدا المؤتمرات والندوات الإقليمية.

إلقاء محاضرات في الجامعات والتجمعات العلمية:

كان المستشرقون يترددون على الجامعات بالدول العربية لإلقاء المحاضرات ولقاء الباحثين والمناقشة معهم في كل المجالات العلمية فقد ترددوا على جامعات القاهرة ودمشق ولبنان وبغداد والرباط والجزائر وكراتشي لاهور ليتحدثوا عن الإسلام ويتعجب الأستاذ أبو الأعلى المودودي من هذا لامور فيقول (وأسفاه، لقد أصبح المسلمون يرجعون إلى أهل الغرب (أوربا وأمريكا) يسألونهم: ما هو الإسلام وما هو تاريخه، وما هي حضارته؟... ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين...)[1].

(١) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ٢٤.

الفصل الثاني

علاقة الاستشراق بالقوى العالمية

المبحث الأول ـ الاستشراق والحروب الصليبية.

المبحث الثاني ـ علاقة الاستشراق بالتنصير والتبشير.

المبحث الثالث ـ الاستشراق والعولمة.

المبحث الرابع ـ الاستشراق وحوار الحضارات.

المبحث الخامس ـ الاستشراق والإعلام.

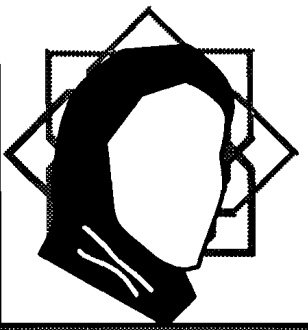

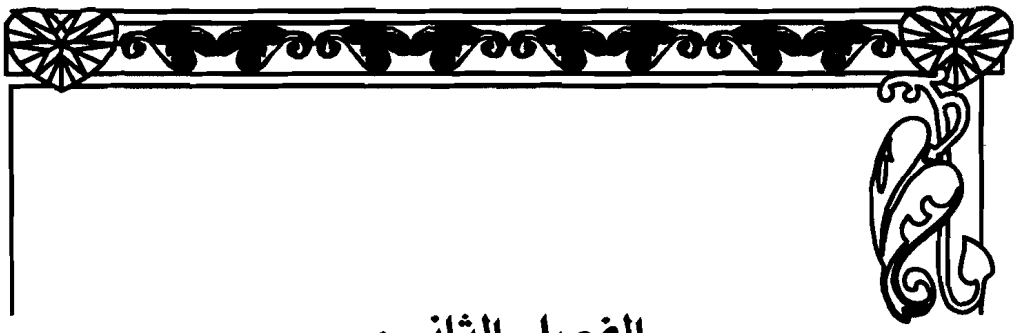

الفصل الثاني:
علاقة الاستشراق بقوى العالمية الكبرى

إن الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي كانت ولا زالت تقدم المدد للتنصير والاستعمار، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه.

فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصرين والمستعمرين بالمواد يسوقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم عالم أفكاره. فالاستشراق جزء لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ولا يمكن التقليل من شأنه، فالأوربيون كانوا وما زالوا يستقون أفكارهم وخططهم عن الإسلام والمسلمين من كتابات الأوربيين، وهم طبقة المستشرقين.

لم يكن الاستشراق بريئاً من الهدف الذي رسمه المسيحيون واليهود من أجل تطويق المد الإسلامي، والعمل على انحساره، ووقف نموه، وإن كانت أعمالهم تبدو في معظم أحوالهما في ثوب علمي وأكاديمي.

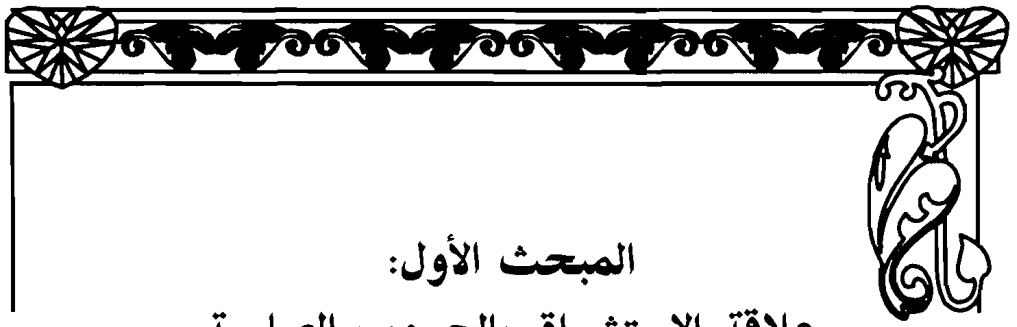

المبحث الأول:
علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية

يربط الكثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره، وذلك الفشل الذريع الذي منيت به أوربا في الحروب الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي.

والجدير بالذكر أن الحملات الصليبية المتكررة على العالم الإسلامي قد رفعت الصليب شعاراً لهذه الحرب، لتعلم العالم الأوربي أنها حرب دينية مقدسة من ناحية أسبابها ودوافعها، ومن ناحية غاياتها وأهدافها.

ولم يجد الغرب وسيلة مثلى لإحكام السيطرة على الشرق الذي هزمه في الحروب الصليبية إلا عن طريق دراسة هذا الشرق من كل النواحي لتطويقه.

يقول مالك بن نبي رحمه الله ـ (إن أوربا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل وبعد توماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته، من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر. وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي

لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتيسير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية، لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها)[1].

فقد كانت الحروب الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي والتي دامت نحو قرنين من الزمان، كانت نتيجة شحنة من الحقد والكراهية التي شحن بها المستشرقون المتعصبون الشعوب الأوربية، واعتبار أن المسلمين كفرة متوحشين، وجهادهم واجب مقدس، ويعد الاستشراق أثناء الحروب الصليبية أشد حقداً وشراسة في عدائه للإسلام والمسلمين. ومنه فالاستشراق يشكل خليفة فكرية لكل تحرك سلبي أو إيجابي من الغرب تجاه الشرق.

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي ـ مالك بن نبي ـ ص ٨.

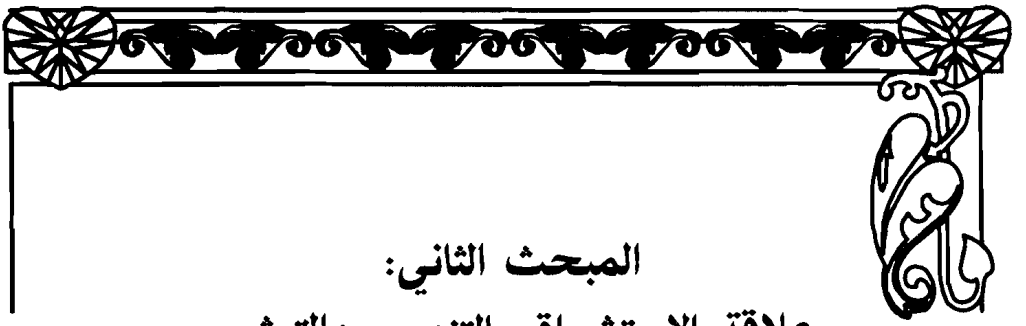

المبحث الثاني:
علاقة الاستشراق بالتنصير والتبشير

لقد كان العصر الوسيط مسرحاً لمعركة وصراع بين نموذجي العولمة الإسلامي والعولمة المسيحي، وهي المعركة التي لم تحسم بعد بين النموذج الاستخلافي والنموذج الحلولي.

والصراع كان حاداً بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وقد ذَكَى هذا الصراع وزاده احتداماً المستشرقون، الذين لعبوا دوراً لا يستهان به فقد سخروا أنفسهم ومعارفهم من أجل نصرة التبشير، وتشويه صورة الإسلام في الغرب، والعمل على تنصير المسلمين بتحسين صورة المسيحية في بلاد الإسلام، وكانت معظم دراساتهم وبحوثهم نصب في هذا المجال، والحقيقة الواضحة للعيان أن معظم المستشرقين كانوا من صنف المبشرين والمنصرين خلال القرون الماضية ولا يزالون إلى الآن مع تفاوت في حدة الطرح، وتناول الموضوعات والأبحاث يقول إدوارد دينسون روس: (إنّ المعرفة بالمحمدية التي تملكها أوربا منذ قرون قائمة على أساس التقارير المشبوهة والمغلوطة كلّياً، والتي أعدها المسيحيون، وهذا هو الأمر الذي أدى إلى نشر الأكاذيب والافتراءات المتنوعة حول المحمدية، فكل خير وجدوه في المحمدية أخفوه تماماً، وكل شيء غير محمود في عين أوربا كبروه وبالغوا في بيانه).

الاستشراق هو الخلفية الأساسية للتنصير والتبشير المسيحي في بلاد الإسلام، فمعرفة الشرق الإسلامي كانت الوسيلة المهمة والمثلى للمبشرين والنصارى ويقول: مارسيل بوازار في كتابه «الإسلام اليوم»: (إن أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام عديدة ومعقدة، إنها تستند أساساً على دوافع دينية، تاريخية، نفسية، ثقافية وتثقيفية ومجدداً الآن على اعتبارات سياسية واجتماعية واقتصادية).

فالاستشراق لا يخلو من خلفية دينية تبشيرية، وتشويه صورة الإسلام، والعمل على نشر المسيحية في كل أصقاع العالم الإسلامي.

فالنشاط التبشيري لا يقوم إلا على فهم لغات الشرق وتقاليده وعاداته للدخول إليه، وجندت لهذا التبشير النساء كلهن.

وقد تناول موضوع المرأة المسلمة في مؤتمر عام **١٩٠٦**م (الأعمال النسائية في التبشير) كمحور في جدول أعماله حضرته مجموعات كثيرة من مندوبي الإرساليات التبشيرية من مختلف الدول الأوروبية وأمريكا وقد أولى المؤتمر هذا العنصر اهتماماً كبيراً، لأنه يتعلق بنصف مسلمي العالم.

وقد تداولت على منصة المؤتمر سيدات مبشرات من مختلف المناطق للخطابة في أخبار نجاحهن، وأشرن إلى أن المدارس والعيادات الطبية، وزيارة قرى الفلاحين وسائل ناجحة في نشر النصرانية بين طبقات المجتمع المسلم.

ويقول شائليه (لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات للمسيح إن عدد النساء المسلمات عظيم جداً... فكل نشاط مجد للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن... نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى قلب نساء العالم المسلمات كلّهن في هذا الجيل)[1].

---

(١) التراث والحضارة الإسلامية ـ ماهر عبد القادر ـ دار النهضة العربية بيروت ـ ص ٥١.

ورغم كل هذه الجهود في التبشير والتنصير، فإن بعض المستشرقين الذين تحروا الموضوعية في دراساتهم يرون صعوبة بل استحالة النجاح في ضم عدد كبير من المسلمين إلى المسيحية.

فهذا الدكتور (كريستان سنوك هرجونيه) الهولندي الذي أمضى سنين طويلة في الهند الشرقية، مستشاراً لحكومة هولندا، واستطاع أن يدرس قضايا الإسلام من خلال إقامته بالهند الشرقية وسياحته في البلاد الإسلامية خلال ربع قرن يقول: (إن المبشرين لا يزالون يتوقعون انضمام كلّ الأديان إليهم أما بالنسبة للإسلام فلا تتحقق أحلامهم، لأن الدين الإسلامي سيظل ديناً قويّاً نشيطاً، ذلك لأن للإسلام شرائع تتعلق بالحياة في كلّ أطوارها، شخصية، عمومية وفردية اجتماعية...)[1].

بل يذهب بعضهم إلى أكثر من استحالة تنصير المسلمين بل دخول النصارى في الإسلام فيقول (إتيان دينيه المسلم): «فيرى أن نفراً من النصارى في مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة... فيكثر عددهم على مر الأيام...»[2].

(١) الإسلام والثقافة ـ أنور الجندي ـ ص ٧ ـ ٨.

(٢) الرسول في كتابات المستشرقين ـ ص ٧٦ ـ ٧٧.

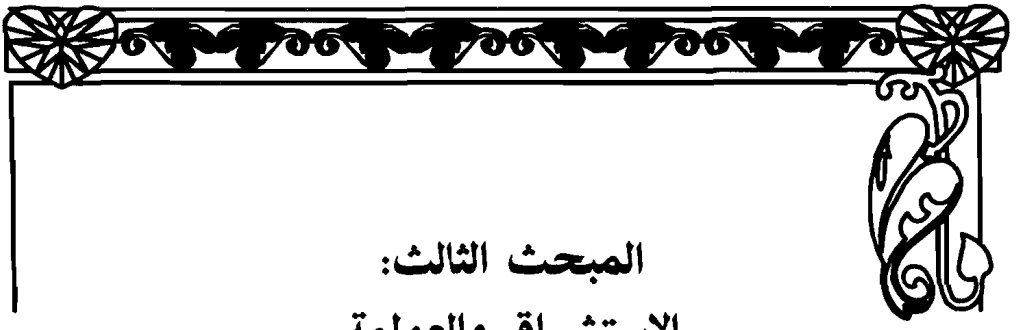

المبحث الثالث:
الاستشراق والعولمة

وصف صادق جلال العظم العولمة بأنّها: (حقيقة التحوّل الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز، وقيادتها تحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل الفكري).

إنّ العولمة مرتبطة بوحدة الفكر وإلغاء الخصوصيات والهويّات وسيطرة نموذج واحد في الفكر والهويّة والإقتصاد والعادات.

يقول نيجامين كونستن (إن الحديث الذي يتردد على الألسنة اليوم هو حديث التأحيد (uniformite) نفس الرموز، نفس المعايير، نفس القوانين والنظم، وقد يتدرج بنا الأمر إلى تأحيد اللغة نفسها، ونسعى إلى تحقيق الكمال في كل تنظيم اجتماعي، ونأسف لعدم قدرتنا على نسف كل المدن لإعادة بنائها وفق تصميم واحد، وتسوية كل الجبال حتى تصبح الأرض كلّها مهاداً، وأستغرب كوننا لم نأمر بعد بحمل الناس على نفس اللباس حتى لا يصطدم وينزعج السيّد (يقصد نابليون) برؤية مناظر مشينة)[1].

---

(١) مجلة كلية أصول الدين للبحوث والدراسات الإسلامية ـ تصدر عن كلية أصول الدين ـ جامعة الجزائر ـ مقالة حق التنوع الثقافي بين العولمة والإسلام ـ مقال للدكتور يوسف حسين ـ ص ١٩٣.

لقد كان العصر الوسيط مسرحاً لمعركة بين نموذجي العولمة الإسلامي والمسيحي، والمعركة التي لم تحسم بعد، والتي سيكون الوصول إلى حل مرض لها مساعداً على تحديد مستقبل الإنسانية بين عولمة النموذج الاستخلافي والنموذج الحلولي.

لقد فهم الاستشراق هذا الصراع: وفهم خطورة عولمة النموذج الاستخلافي، فكتب ودرس وأنتج العديد من الدراسات التي تنبىء بخطورة الإسلام على الغرب، وخطورة الصحوة الإسلامية، فقام الغرب بتسخير كلّ الوسائل لزيادة التعمق في دراسة هذا الشرق من الناحية الإجتماعية والأسرية والعادات والتقاليد وذلك لإحكام السيطرة عليها، ليس السيطرة العسكرية والاستعمارية بل عولمة النموذج الغربي في كل شيء يقول جيرار بونو (ومن مطار إلى آخر، ومن هيلتون إلى آخر، نكون قد قطعنا العالم كلّه من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، دون إحساس بالغربة ولا شعور بالانتقال من منظر إلى آخر فحيثما ارتحلنا تصادفنا نفس الأشكال المعمارية من زجاج وحديد، ونفس الطرق السيارة، ونفس حالات الاكتظاظ، ونفس الملاعب، ونفس قنينات كوكاكولا، وحتى الأشياء الغريبة فقدت خصوصيتها، وأصبحت الآن تصدر للعالم أجمع من نفس المعامل، ويمكنك التأكد من هذا إذا آنست رغبة من نفسك).

لقد بين أحد العلماء الغربيين كيف أن الاستشراق تطور من الحروب إلى الغزو الثقافي إلى العولمة في كل شيء ومحو كل الخصوصيات، يقول سرج لاتوش (لقد تشكل الغرب بعد سلسلة من التحولات المتتالية، فقد عرف المد والجزر في القديم مع النهضة الكارولنجية والحروب الصليبية، ثم المد مع الحملة الاستعمارية الكبيرة الأولى التي قادها الغزاة في القرن السادس عشر، ثم عرف مداً جديداً في القرن السابع عشر حيث تطور إلى

شكل من الاستعمار الفكري مع الاكتشافات العلمية الكبرى، ثم إنجازات القرن الثامن عشر، ثم مرحلة التخلص من الاستعمار وأخيراً السيطرة بالعلم والتقنية حيث تنتهي إلى هذه الظاهرة التي أفرزت لنا كوكباً تربطه شبكة قوية من الاتصالات المتداخلة والمكثفة والتي تعمل دون انقطاع).

وفكرة فوكوياما تدور حول إنهاء التاريخ الحضاري لجميع الدول والشعوب لصالح الحضارة الغربية التي تعولم الإنسان وكل مظاهر حضارته المادية والمعنوية في كل مكان.

ومنه فإن مهمة الاستشراق وهدفه وإن اختلف في الوسيلة فهو لم يختلف في الغاية، والجهود كبيرة من الدوائر الاستشراقية وخاصة الاستشراق الأمريكي الذي نشط خلال هذه السنوات الأخيرة وهو يبذل جهوداً كبيرة لإرساء فكرة العولمة وتعميم النموذج الغربي الأمريكي.

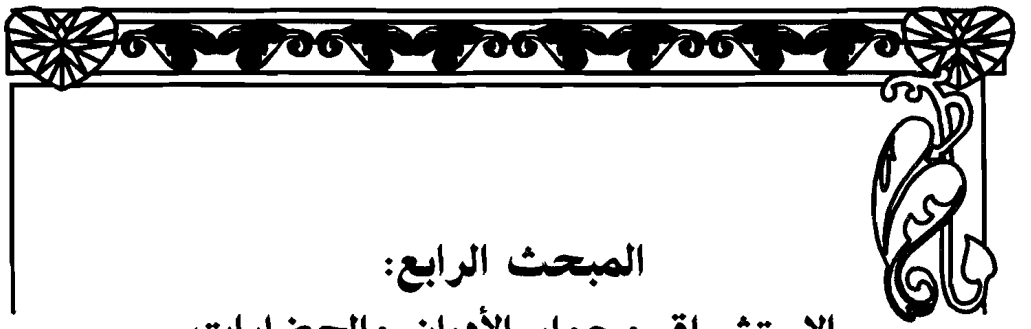

المبحث الرابع:
الاستشراق وحوار الأديان والحضارات

لقد أصبحت أوربا وأمريكا تنادي في الآونة الأخيرة بالحوار، الحوار بين الأديان والحضارات، ولم يفوت المستشرقون هذه الفرصة بل استغلوها للكتابة حول الموضوع، وإن كانوا قد سبقوا هذا العصر في الحديث عن هذا الموضوع، وذلك بالتحذير من هذا الحوار ومد جسور النقاش وتبادل الآراء مع الحضارة الإسلامية وظهر ذلك جلياً في كتاباتهم، فهم يرون أن الإسلام ليس دين حوار ولا تبادل آراء، بل المسلمون متعصبون ولا يقبلون إلا رأيهم، فهذا ريمون شارب يقول: (. . . وفي النهاية، فإن التسامح الذي رسمه القرآن يشترط على كل من يريد التمتع بهذا التسامح تصديقه بالكتاب المنزل وقد قيل عن المسلمين أنهم متسامحون ومتعصبون في نفس الوقت)[1].

ويصور مستشرق آخر المسلمين بأنهم ليسوا أمة حوار ويلغون الآخر، وكأن ما يظنه في نفسه أسقطه على الآخر. وكلنا يعلم أن القرآن الكريم أسس للحوار وإقناع الآخر بالموعظة والحكمة. يقول كلود ليفي شتراروس في كتابه: (بئس الدارين): (الإسلام دين يرتكز على عدم قدرته على ربط الصلات بالخارج، أكثر مما يرتكز على بداهة الوحي. . . وإذا قارنا بينه

(١) مناهج المستشرقين ـ جـ ٢ ص ٨٢.

وبين الرفق الكوني عند البوذيين وإرادة الحوار عند المسيحيين، فإن التعصب الإسلامي يكتسي صبغة غير واعية عند من يقترف هذه الجريمة، وذلك أن المسلمين لا يحاولون دائماً جر الآخرين بأساليب عنيفة إلى مشاطرتهم حقائقهم، بل موقفهم أعمق من ذلك، إذ يستحيل عليهم أن يتحملوا وجود الغير كغير، ولم يبق لهم إلا طريقة واحدة لحماية النفس من الشح والمذلة هي في أن يعتبروا الآخرين (عدماً) فالمسلمون غير قادرين على أن يعتقدوا بإمكانية وجود إيمان يخالف إيمانهم أو سلوك فائق على سلوكهم)[1].

هكذا يحكم على التسامح والحوار الإسلامي باسم التسامح الغربي وهكذا يكون الاستشراق القاعدة والخلفية الفكرية لكل ما من شأنه أن يؤسس حواراً بين الحضارات قائم على الاحترام وحسن الظن في الآخر، فهذا المستشرق يريد أن يحذر الغرب من حوار الشرق لأن هذا الشرق متعصب ولا يحسن الحوار.

ويقول الأستاذ أنور الجندي أن المستشرقين قدموا ٦٠ ألف كتاب عن الإسلام مكتوبة من وجهة نظرهم، وفيها معاداة للإسلام وتشويه للحقائق، كتبت خلال ١٥٠ عاماً الماضية، وهي مصدر معلومات الغربيين والمسلمين في الغرب عن الإسلام اليوم.

ويقول حسن حنفي (. . . لقد أسس ماسنيون (دار السلام) من أجل الحوار الإسلامي المسيحي والإسلام بحساب المسيحية، وعلى أية حال الوئام الإسلامي المسيحي أفضل من العداء الغربي الإسلامي، ولكن هل تيسير التاريخ بالأمنيات؟ وقد يقول البعض أن الهدف هو الاحتواء والهيمنة، لم يتغير في كلتا الحالتين، بالرغم من اختلاف الوسائل والأدوات مرة بالعداء الواضح ومرة بالاستمالة والقول الحسن)[2].

---

(١) Tristes tropiques- claude pavy strauss - paris - 1955 page - 437.

(٢) هموم الوطن والفكر ـ حسن حنفي ص ـ ٥٤٨.

فالغرب إذن له خلفية عامة عن الإسلام من خلال كتابات المستشرقين وآرائهم والحوار الذي ينادي به الكثيرون لا يعدو أن يخرج من دائرة الصراع القديم والجديد، وتعدد الوسائل وتغيرها تماشياً مع تغير الزمن.

فهذا هاملتون جب الذي كان من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية فقد جاء في مقدمته للكتاب الذي أصدرته جماعة من المستشرقين المختلفي الأجناس بعنوان (إلى أين يتجه الإسلام) (whither islam) قوله: (إن مشكلة الإسلام ـ بالقياس إلى الأوربيين ليست مشكلة أكاديمية خالصة فحسب، فإن لتعاليم الدين الإسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم ما يجعل لها مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي، فالإسلام ليس مجرد مجموعة من القوانين الدينية، ولكنه حضارة كاملة).

وعلى ذلك فصراع الحضارات مؤسس له، بشكل يثبت أن الخلفية الاستعمارية وعقده الاستعلاء والنظرة الدونية للآخر هي المنطق في أي حوار حضاري قد يخوضه الغرب مع الآخر، وخاصة المسلمين، ولكن قد يكون الحوار مثمراً وفعالاً إذا كان بين العلماء وخاصة المعتدلين منهم يقول الدكتور حمدي زقزوق (ومن هنا فلا بد من إقامة الجسور بين علماء المسلمين والمعتدلين من المستشرقين حتى يمكن إجراء حوار مثمر بين الطرفين، وتوجد هناك صلات فردية بين بعض علماء المسلمين وبعض المستشرقين، وهناك مستشرقون معاصرون يتوخون الموضوعية وعلى استعداد للحوار العلمي مع العلماء المسلمين وتجري منذ فترة محاولات لإقامة قنوات اتصال بين الجانبين لتنظيم الحوار على المستوى العلمي بين الطرفين. ومن المصلحة الإسلامية أن يكون هناك مثل هذا الحوار لعرض وجهة النظر الإسلامية في شتى الموضوعات الخلافية على أسس علمية سليمة، فذلك سيكون له من غير شك أثره الإيجابي في تصحيح الكثير من الأخطاء)[1].

---

(١) الإسلام في مرآة الفكر العربي ـ حمدي زقزوق ـ ص ١٨.

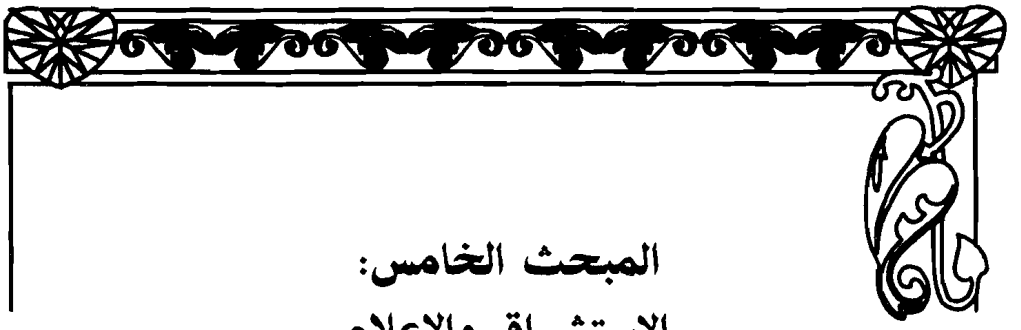

المبحث الخامس:
الاستشراق والإعلام

لقد ازدهر الاستشراق ونما كعلم وكإيديولوجية، وكمصدر للفكر الغربي عن الشرق عموماً، والشرق الإسلامي خصوصاً، وذلك لكثرة الإمكانيات التي خصصت له، من مراكز البحوث والدراسات، وكراسي بالجامعات، فهو ـ أي: الاستشراق ـ الخلفية الثقافية للشعوب الأوربية عن الإسلام والمسلمين، فكل ما يكتبه المستشرقون هو الحقيقة الناصعة التي لا تكذب، ولم يبق الاستشراق حبيس الأطروحات الأكاديمية، والدراسات الجادة في المجلات المتخصصة، والمؤتمرات العلمية، بل لعبت وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمسموعة والمكتوبة دوراً كبيراً في إثراء الدراسات الاستشراقية، وإبراز أعمال المستشرقين، فصورة الإسلام والمسلمين لا تختلف في وسائل الإعلام الغربية عن الصورة التي صور بها المستشرقون الإسلام والمسلمين في كتاباتهم.

يقول عالم الأديان الألماني المعروف (Kueng) (إن ما يمكن أن يسمعه المرء أو يقرأه عن الإسلام في وسائل الإعلام الغربية المختلفة وما يقوله المثقفون عنه أمر مزعج ومخيف، إنه مزعج بمعنى مزدوج، **أولاً**: بسبب الاعوجاج والأحكام المغلوطة التي تتكشف في هذه الأفهام، **وثانياً**: بسبب الطريقة المخيفة والشريرة التي تلقى بها الأحكام عن الإسلام)[1].

---

(١) الإسلام في مرآة الغرب ـ ص ١٦٥.

وقد ذكر الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ عن الأستاذ عبدالله كنون أنه كان في زيارة لإسبانيا (وصادف وجودي في غرناطة يوم الاثنين، وهو يوم تعطل فيه الصحف الإسبانية، ولا تصدر إلا صحيفة يوم الاثنين، فأخذت الجريدة لأنظر أنباء اليوم... فإذا داخلها ملحق صغير للأطفال يكاد يستغرقه كله، مقال رئيسي بعنوان (محمد نبي مزيف) يكتب بلغة سهلة مبسطة ولكنها مليئة بالهزء والسخرية، وقد بني المقال على فكرة أن القرآن مقتبس من التوراة اقتباساً مشوهاً لأن صاحبه ـ على حد تعبير الكاتب ـ كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة وإنما تلقف ما ضمنه كتابه من أفواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب، ومن بعض الرهبان الذين لقيهم في أثناء رحلته إلى الشام)[1] ويعلق الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ على هذا النص (وهكذا يعمل النصارى على تنشئة أبناءهم من الصغر على احترام عقيدتهم ـ وحدها ـ ويربط الكاثوليك في حصن غرناطة مستأنفين إلى اليوم مطاردة الإسلام حتى في نشرات الأطفال)[2].

ومن جهة أخرى لا يتردد الغرب في استعمال كل الوسائل الإعلامية للوصول إلى كل أفراد المجتمع الأوربي والأمريكي رجالاً ونساء وأطفالاً، وتشويه صورة الإسلام في عقولهم ونفوسهم، وما أكثر الجرائد والمجلات والحصص الإذاعية والمتلفزة عبر القنوات الأرضية والفضائية التي استغلها المستشرقون أو كان وراء من يكتب ويبرمج ويقدم هذه الحصص عن الإسلام والمسلمين، فهؤلاء المقدمون والصحافيون يستقون مادتهم الإعلامية من كتابات المستشرقين في مختلف الدول، يقول الدكتور حسن عزوزي في مقال له تحت عنوان (ظاهرة الاستشراق الصحافي): إن أحد إفرازات المؤسسة الاستشراقية الحديثة ينضوي تحت لوائها عدد هائل من الصحفيين

---

(١) علل وأدوية ـ محمد الغزالي ـ ص ٦٧.

(٢) نفس المرجع ص ٦٧.

المختصين في شؤون الإسلام والمسلمين)[1].

وأكد الدكتور على الارتباط بين الاستشراق الأكاديمي والصحافي فهو يرى أن الأكاديميين (ساهموا بشكل أو بآخر في تكوين وتأهيل أولئك الصحافيين الذين ما فتئوا يقتاتون على موائدهم، ويتزودون منها بأفكارهم وطروحاتهم الواهية)[2].

ولا يختلف الدكتور إدورد السعيد مع الدكتور حسن العزوزي حول صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، والسبب دائماً هو تلك الدراسات الاستشراقية المعدة خصيصاً لهذه الأغراض.

فيقول: (لقد غدا الإسلام اليوم بالنسبة إلى الجمهور العام في أمريكا وأوربا أخباراً بغيضة بشكل خاص وتنضوي وسائل الإعلام والحكومة والاستراتيجيون الجغرافيون والخبراء الأكاديميون المختصون بالإسلام في جوقة واحدة متناسقة: الإسلام يهدد الغرب، ولا يعني قولنا هذا بأي شكل من الأشكال بأنه لا يوجد في الغرب من صورة الإسلام غير الصور الهزلية العنصرية المزدرية به فقط، . . . بل ما أقوله هو أن صور الإسلام السلبية أشيع وأروج من كل ما عداها شيوعاً ورواجاً هائلين، وإن هذه الصور لا تطابق ماهية الإسلام بل تطابق ما تعتبره قطاعات بارزة في مجتمع معين أنه هو، وتمتلك تلك القطاعات القوة والعزم على نشر وترويج هذه الصورة المعينة للإسلام، فتصبح هذه الصورة لذلك هي الصورة الأكثر شيوعاً والأخطر حضوراً من كل ما عداها).

(١) ظاهرة الاستشراق الصحافي ـ الدكتور حسن عزوزي ـ مقالة في مجلة المسلمون ـ العدد ٨٠٥١٠ ـ نوفمبر ـ ١٩٩٤.

(٢) نفس المرجع.

الفصل الثالث

الاتجاهات العلمية والموضوعية للاستشراق

المبحث الأول: انعدام الموضوعية والعلمية في الدراسات

المبحث الثاني: خطأ في المنهج أو النتيجة مع تحري الموضوعية

المبحث الثالث: الإنصاف وتحري الحقيقة

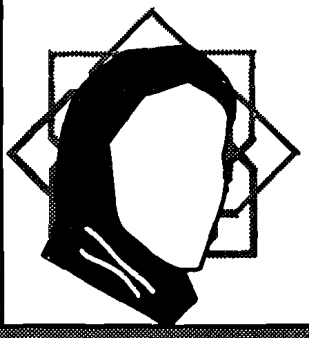

الفصل الثالث:

الاتجاهات العلمية والموضوعية للمستشرقين

إن الاستشراق ظاهرة صاحبت الصحوة الفكرية التي عاشتها أوربا، منذ أن شعرت بالتهديد الإسلامي، عن طريق الأندلس غرباً، وعن طريق تركيا شرقاً فبدأ علماء الغرب يهتمون بكل ما هو شرقي وأصبح (الاستشراق حقل ذو طموح جغرافي وافر، وما دام المستشرقون تقليدياً قد شغلوا أنفسهم بالأشياء الشرقية فالمختص بالفقه الإسلامي، تماماً كالمختص باللهجات الصينية أو الديانات الهندية، هو مستشرق في عرف من يسمون أنفسهم مستشرقين)[1].

وما دام الشرق يشكل للغرب موضوعاً دراسياً فقد كانت فئات المستشرقين تتناول بالبحث والدراسة هذا الشرق من حيث حضارته وتاريخه وعاداته وأحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية.

وكان الكم الهائل من الدراسات الاستشراقية والإنتاج العلمي الوافر للمستشرقين يتناول موضوعات الشريعة الإسلامية والعلوم الإسلامية بصفة خاصة (القرآن، السنة، السيرة النبوية، الفقه، العقيدة، التصوف) ولما كان هذا الشرق من إحدى خصائصه وهويته الإسلام كان الإسلام أكثر الموضوعات اهتماماً من طرف الغرب ومنه يمكننا تصنيف فئات المستشرقين الذين درسوا العلوم الإسلامية والعربية.

---

(١) الاستشراق ـ إدورد السعيد ـ ص ٨٣.

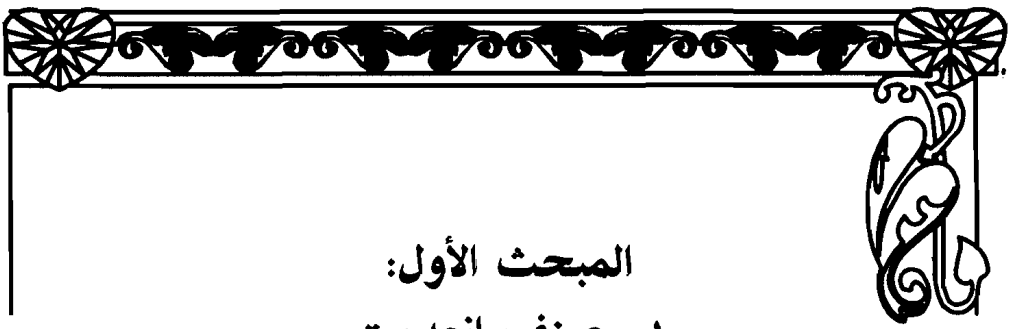

المبحث الأول:
١ ـ صنف انعدمت
في دراساتهم الموضوعية والعلمية

وهؤلاء كلهم كانوا مؤيدين لدوائر الاستعمار والتبشير وللأساليب الجهنمية التي يستعملها الاستعمار ضد المسلمين، بل كانوا هم الوسيلة المهمة والمعين الكبير للاستعمار، فهم الذين عرفوها من خلال تجاربهم، ودراساتهم لتفاصيل الحياة الشرقية، وأحوال المجتمعات، وموطن الضعف وموضع النقص، فجاءت دراستهم وأبحاثهم متأثرة بمآرب السياسة والتعصب الديني، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم.

ويظهر هذا التوجه سافراً ومكشوفاً وصريحاً في الكثير من كتابات المستشرقين خلال القرن الثامن عشر، فقد كانت مسحة التعصب الديني والتغلب على الشرق نشر المسيحية والقضاء على الإسلام أهم أهداف الدول الغربية، فكانت كتابات المستشرقين إذن مليئة بالحقد والسب والشتم وتشويه الحقائق خاصة عند تناولهم بالدراسة، القرآن، السنة النبوية، وسيرة الرسول ـ ﷺ ـ وعلى سبيل المثال جاء في قاموس الفنون والعلوم، ١٧٣٢ (الإسلام: دين أتى به محمد الذي ولد عام ٥٧١ بمكة، إحدى مدن شبه جزيرة العرب السعيدة، تحت حكم الإمبراطور موريس، لقد كان شديد الذكاء، بحيث تعلم العهد القديم والجديد، وتخيل منهما ديانة أقامها نقلاً

عن ظهر قلب، وقسمها إلى مائة وأربعة عشر فصلاً، مليئة بالروايات والأكاذيب، وهي عبارة عن قريات مجنونة لا رحمة فيها ولا نظام إن هذا الكتاب يعد من يقرأه ألف مرة بحورية في الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح).

وجاء في القاموس التاريخي الكبير الذي كتب فيه أب وأديب يدعى لويس موريري عام ١٦٧٤م (محمد نبي مزيف، عربي الموطن، ولد عام ٥٧١م وفقاً للتقدير العام، فقد والديه وهو طفل وقام عمه أبو طالب بتربيته ودفعه الفقر ليخدم أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة «كاديج» لدرجة أنه تزوجها، وأصبح وريثها الوحيد فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته، وبعد ذلك شارك كل من باتيراس، وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس وهو زاهب أسطوري وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع قرآنه، وبذلك أصبح دينه مكوناً جزئياً من اليهودية وجزء آخر من أحلام هرطقية واستهالات جنسية لطبيعة منحرفة، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة).

وجاء في كتاب التاريخ العام للأتراك على لسان المستشرق الفرنسي دومنيك بودييه عام ١٩٣٢م (وفي محاولة منه لاستثبات الشرع بمعجزات جديدة اخترع ما يلي: كان يجمع الشعب في الميدان العام ليكون شاهداً على أن روح الله تنزل عليه، وبينما هو منساق في اختراع الأقاصيص الجديدة كانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان ما قرب منكبيه وتلتقط الحب الذي كان يضعه لها في فتحه أذنه، موهماً للعرب بذلك أنها كانت تمليه إرادة الله وكلمات شرعه).

هذه بعض النصوص التي كتبها مستشرقون يدعون العلم والموضوعية وهي نصوص لا تحتاج إلى تعليق أو رد. فأبسط إنسان في المجتمع المسلم أو المجتمع الغربي يرفض ويفهم زيف وحقد من كتب هذه النصوص وبعده

على العلمية والموضوعية، وما كتبه جولدزيهر عن السنة في دائرة المعارف، وشاخت ينصب كله في هذا الاتجاه.

يرجع الكثير من الباحثين إلى أن غياب الموضوعية والعلمية وكثرة الأخطاء يعود إلى خلفية تبشيرية استعمارية أثناء الحروب الصليبية والاستعمار الأوربي لدول الشرق، أما في العصر الحديث فقد أصبحت الدراسات تميل إلى الموضوعية لغياب الأسباب السابقة والدوافع الاستعمارية والتبشيرية إلا أن الحقيقة هي غير هذه، فما زالت الدراسات الغربية في الوقت الحالي تتم عن نوايا أهداف أصحابها وتبين بعدهم عن العلمية والموضوعية في أماكن يفتخر الغرب بأنه حقق فيها العلمية والموضوعية وهي الجامعات ومؤسسات البحث العلمي والدراسات العليا.

فهذه الدكتورة فاطمة هدى نجا تقول: (قد حدثني البروفسور اندرسون[1] نفسه أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا الحصول على شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن «حقوق المرأة في الإسلام» وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة، فعجبت من ذلك، وسألت هذا المستشرق، وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعتكم؟ قال: لأنه كان يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا والإسلام قرر للمرأة كذا؟ فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟ إن آراءه في حقوق المرأة لم ينص عليها فقهاء الإسلام الأقدمون، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعي)[2].

---

(١) تقول الكاتبة أن هذا المستشرق ما زال حياً يرزق وكان رئيساً لقسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في العالم الإسلامي في معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن. وهو خريج كلية اللاهوت في جامعة كمبرج وعاش بالقاهرة وتعلم اللغة العربية هناك.

(٢) نور الإسلام وأباطيل الاستشراق ـ د/فاطمة هدى نجا ـ دار الإيمان طرابلس ـ لبنان ـ ط ١ ـ ١٩٩٣.

وتقدم الدكتور أمين المصري بموضوع أطروحة الدكتوراه هو نقد كتاب شاخت في تاريخ الفقه الإسلامي، حيث اقترح هذا الموضوع على البروفسور «اندرسون» ليكون مشرفاً عليه، فأبى عليه هذا المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب شاخت، وكذلك رفضت جامعة كمبردج هذا الموضوع.

وفي فرنسا اقترح على طالبة انتمت إلى قسم الدراسات الشرقية بالسربون موضوع «سكينة بنت الحسين» وعدم التزامها باللباس الشرعي ووضع الخمار على رأسها وذلك استناداً إلى مصادر مشبوهة أوردت هذا الخبر مثل كتاب الأغاني وغيره.

فهكذا هو شأنهم وموقفهم من كل ضعيف وشاذ التمسك والترويج له، وترك كل صحيح وعلمي يقول مصطفى السباعي رحمه الله (كنت قد كتبت عن المستشرقين كلمة موجزة في كتابي «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» قبل أن أزور أكثر جامعات أوربا عام ١٩٥٦ وأختلط بهم، وأتحدث إليهم وأناقشهم، فلما تم لي ذلك ازددت إيماناً بما كتبته عنهم واقتناعاً بخطرهم على تراثنا الإسلامي كله سواء كان تشريعياً أم حضارياً، كما يملأ نفوسهم من تعصب ضد الإسلام والعرب والمسلمين).

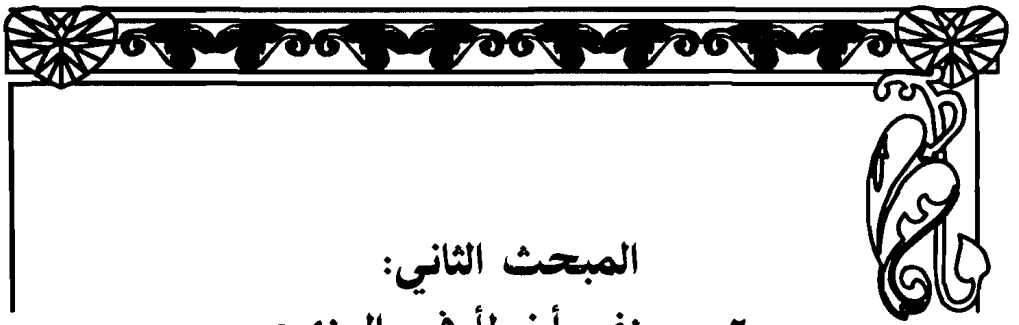

المبحث الثاني:
٢ ـ صنف أخطأ في المنهج
أو في النتيجة مع تحري الموضوعية

هذا قسم آخر من المستشرقين الذين استهواهم الشرق بكل ما فيه فأرادوا البحث في جوانب متعددة منه، وكانوا يبحثون عن الحقيقة والوصول إلى نتائج صحيحة، إلا أنهم كثيراً ما تنتهي النتائج التي يصلون إليها إلى الخطأ، وتكون الاستنباطات بعيدة عن الصواب وخاصة عندما يخوضون في مجالات العلوم الإسلامية المتشعبة والكثيرة المصادر والتفصيلات وتداخل العلوم الإسلامية مع بعضها وتكاملها يقول أحد المستشرقين (إن الباحثين الغربيين الذين يريدون التغلغل في العلوم الإسلامية يلقون عقباتٍ كئوداً، آتية من أن هذه العلوم تصدر عن مبادىء، ليس لديهم عنها أية فكرة، ومن أنها تستخدم وسائل البحث هي بالنسبة إليهم أجنبية، لأنها تتجاوز ذلك الإطار الضيق الذي يحدق بالعلوم التجريبية الغربية)[١].

لقد رد المستشرق «اسطفان فيلد» معترفاً بأن المستشرقين ليسوا كلهم نزهاء وقد وقع الخطأ منهم في الدراسات التي تناولت العلوم الإسلامية لقد كتبت مجلة الفكر الإسلامي تمهيداً لمقالة الدكتور حمدي زقزوق[٢].

---

(١) راجع نظرات استشراقية ـ محمد غلاب ـ ص ١٤.

(٢) أورد هذا المقال الدكتور حمدي زقزوق في كتابه الإسلام في مرآة الغرب ـ ص ٦٢ ـ ٦٣.

يقول (فالمستشرقون مهما بلغت دقتهم العلمية، غرباء عن هذه الأمة في دينها وحياتها ومواطن اعتزازها، وفي أعماقهم من رواسب العداوة بين الإسلام والاستعمار قديمه وحديثه ما يؤدي بهم إلى الكثير من الشطط والبعد عن مقتضى الحقيقة النزيهة).

فيرد عليه هذا المستشرق (قرأت هذه الجملة بشيء من الحزن والأسف لأنها تسيء إلى حد ما إلى قضية الاستشراق، وقضية التعاون بين الجهود العلمية العربية من جهة وغير العربية من جهة أخرى، كما تسيء إلى الحوار المبتدىء بين الدينيين واللادينيين من جهة ثانية. ويعترف أولاً أن الكثير من المستشرقين أخطأوا في الكثير مما كتبوا، بعضهم أخطأ لغوياً في النحو والصرف، وبعضهم كسر العروض، وهناك أخطاء في البلاغة والبيان وكذلك في تفسير القرآن وشرح الحديث النبوي الشريف، ونجد في كتاباتهم أخطاء تاريخية وفقهية إلى آخره. كل هذا صحيح وعلى المستشرقين الاعتراف بذلك قبل غيرهم... ولكن ـ وإن صح القول ـ أن الكثير من المستشرقين أخطأوا في بعض المواضع فهذا لا يعني أن يصدر حكم عام على جميع المستشرقين... والمستشرق ليس معصوماً من الخطأ...).

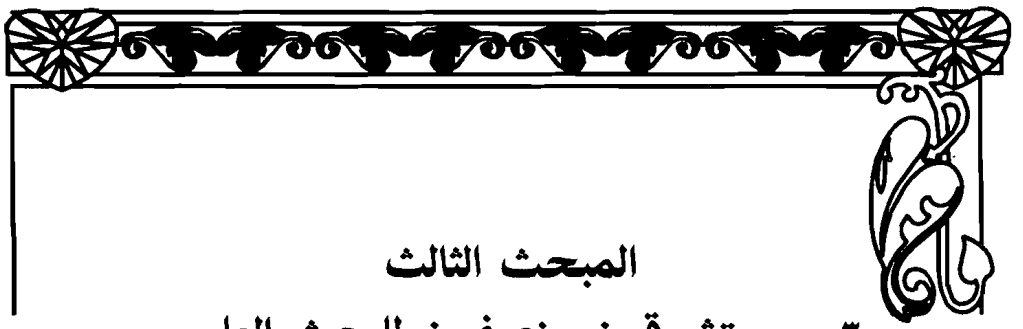

المبحث الثالث
٣ ـ مستشرقون منصفون للبحث العلمي ومقرون بحقائق الإسلام الصحيحة

هذه فئة مهمة من المستشرقين، وقد أثنى الكثير من الباحثين والمترجمين العرب والمسلمين على أعمالهم النزيهة والصحيحة المنهج والنتائج، وذلك لوفائهم للبحث العلمي، وبعدهم عن التعصب والخلفيات الاستعمارية والتبشيرية، وإطلاعهم الواسع على مصادر العلوم الإسلامية تاريخاً ولغة وعلوم الشريعة، فكانت دراساتهم مثمرة ومفيدة، تنم عن إعجابهم بهذه الحضارة الخالدة، ولا أكون مخطئة إن قلت أن معظم المستشرقين المنصفين الذين اعتمدوا البحث العلمي النزيه دخلوا الإسلام، وفضلوه على الكثير من المبادىء والقيم التي كانوا يقدسونها.

ومن هؤلاء الذين أدى بهم البحث الخالص للحق اعتناق الإسلام بوركهارت، وكرنكوف وزونستين، وشنيتسر، وفلوري وميشو بيللو، ومارمادروك، وفيلي، وجرمانوس، وهناك عدد كبير من بولونيين، وهناك أحد عشر ألمانياً أشهروا إسلامهم في برلين وسموا بأسماء إسلامية، وهناك عدد أسلم على يد شيخ الأزهر، ومنهم الدكتورة وارزولايان الألمانية وسمت نفسها سامية الأزهرية، وهناك الأمركيان خديجة دلتك وليورس الشيخ محمد الأزهري، وهناك السويسريان جميلة زوشرنج والبرت كادلر، وهناك

البريطانيان المستشرق جونس، والصحفي لويس هارد الذي سمى نفسه محمد يوسف، وإيقون إيقت كوكا وقد سمت نفسها إيناس غلام قاسم...)[1].

ومن المستشرقين الذين لم يكتفوا بالإسلام والالتزام بتعاليمه بل سعوا إلى نشره وتعريف الغرب به المستشرقة الفرنسية إيفا التي أسلمت بسبب دراستها لمصادر الشريعة وكتب الغزالي ثم ألفت نحو (٣٠) ثلاثين كتاباً تشرح فيها الإسلام وترغب فيه وقد نالت جائزة من الأزهر الشريف ومنهم أيضاً المستشرق النمساوي ليوبولد قايس الذي سمى نفسه محمد أسد، وألف كتاباً سماه «الإسلام في مفترق الطرق» والذي يصف الشريعة الإسلامية وصفاً سليماً صحيحاً، ينم عن فهم عميق لهذا الدين الحنيف إذ يقول (ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكل أجزاءه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلك ائتلاف متزن مرصوص، ولعل هذا الشعور بأن جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت في مواضعها المناسبة هو الذي كان له أقوى الأثر على نفسي).

ومنهم ايتبان دينيه الذي سمى نفسه ناصر الدين، المستشرق الفرنسي الفنان الذي عاش في الجزائر وله كتاب الحياة محمد ﷺ وكتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام» بين فيه تحامل قومه الغربيين على الإسلام ورسوله ـ ﷺ ـ.

ومنهم المستشرق المجري عبد الكريم جرماتوس الذي اعتنق الإسلام في الهند عام ١٩٣٠م، وكان عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة وألف مائة وخمسين كتاباً عن الإسلام منها (الله أكبر، معاني القرآن الكريم،

---

(١) المستشرقون ـ نجيب العفيفي ـ جـ ٣ ـ ص ٦٢١ وبعدها.

دراسات في التركيبات اللغوية العربية، الحركات الحديثة في الإسلام، شوامخ الأدب العربي).

ومن الذين لم يكن لهم دافع استعماري ولا تبشيري ولا استعلائي، بل أنصفوا الشرق، وقدموا عنه صورة جميلة ومشرقة للغرب، ومجدوا التراث الإسلامي، واعترفوا بفضل العرب على الغرب المستشرقة زيجريد هونكه الألمانية المعروفة بكتابها (شمس العرب تشرق على الغرب) ولها كتب أخرى منها (الله مختلف تماماً عما يصفون) وكتاب (المرأة والرجل) وهي كتب لا تختلف عن كتابها المشهور موضوعية ودقة وإنصافاً.

هذه بعض النماذج والأمثلة عن الاستشراق الواعي العلمي المنهجي الذي مثله مجموعة من رجال ونساء أعجبوا بهذا الشرق، وأنصفوا قيمه وحضارته وفيهم من انتمى إليها بإسلامه.

وهذا ويتعجب المستشرق (وات ـ Wat) لماذا بقي البحث العلمي غير منصف في دراسة للشرق إذ يقول (البحث الموضوعي في المائة والخمسين عاماً الماضية لم يستطع أن يقدم للعقل الغربي المعاصر صورة للإسلام خالية من التشويه الذي أصابها، وإذا كنا الآن في عالم كثرت فيه الصلات بين المسلمين والمسيحيين وازدادت أهمية عن ذي قبل، فإن هذا الأمر يوجب على المرء أن يبذل قصارى جهده في توضيح الأسباب التاريخية لهذه الأحكام المسبقة عن الإسلام، والتي لا تزال تراود أذهاننا دون وعي)[1].

(١) الإسلام في مرآة الغرب ـ حمدي زقزوق ـ ص ١٧٤.

الفصل الرابع

مجالات الدراسات الاستشراقية

- المستشرقون والقرآن الكريم.
- المستشرقون والسنة النبوية.
- المستشرقون والفقه الإسلامي.
- المستشرقون والتاريخ الإسلامي.
- المستشرقون والتراث.
- المستشرقون واللغة العربية.

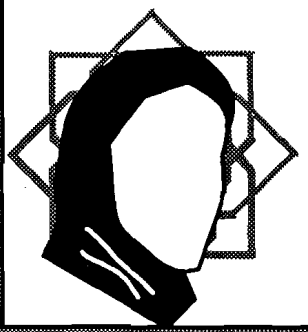

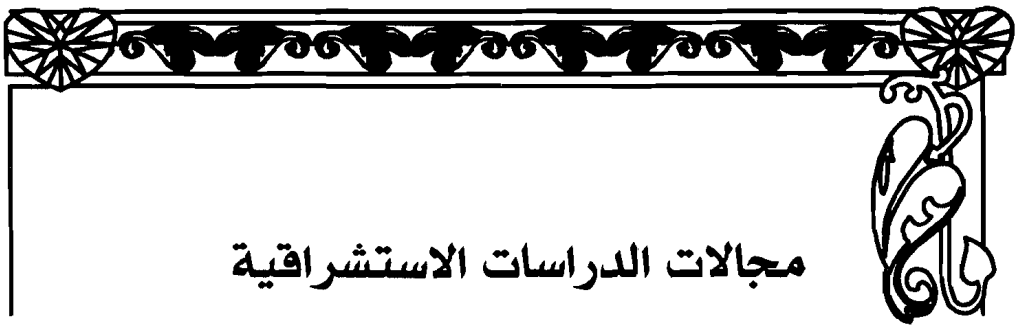

مجالات الدراسات الاستشراقية

من مهمة المستشرق دراسة ومعرفة الشرق، ومنه فإن المتصفح للتراث والمؤلفات والدراسات الاستشراقية، يجد أن هذه الدراسات قد شملت كل مجالات العلوم من لغة وآداب وعلوم الشريعة بمختلف جزئياتها وعلومها وقد تميزت النظرة إلى هذه العلوم بالاستعلائية والبعد عن الموضوعية في أكثر الأحيان (فمن خصائص الاستشراق النظرة الاستعلائية والارتباط بالإمبريالية والاستعمار وتشويه تاريخ الإسلام والمسلمين...)[1].

ومن مناهج المستشرقين في دراسات مختلف العلوم الشرقية والمتعلقة بالشرق، أن يختاروا بعض الجوانب من هذه العلوم، ثم يعمدوا إلى جمع المادة العلمية لدراستهم، التي يؤسسون عليها مختلف دعاويهم، ونادراً ما توفرت شروط الموضوعية العلمية والتجرد المنهجي في كتاباتهم، وقد أجاد الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ فيما اصطلح عليه بـ «الاستراتجية الاستشراقية الدقيقة» حيث قال: (ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية، ويقدرون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون بجمع المعلومات لها ـ من كل رطب ويابس ـ ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب والشعر أو الرواية

(١) الاستشراق إدورد السعيد ـ ص ٣٣١.

والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم)[1].

ـ المستشرقون والقرآن الكريم:

كان القرآن الكريم الذي هو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي وكتاب الله الذي أنزل على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، محل اهتمام المستشرقين منذ بداية ظهور هذه النزعة والحركة، ومجال اهتمامهم بالقرآن الكريم والهدف من ذلك لا يغيب على عاقل.

فقد عكف عدد كبير من المستشرقين على اختلاف مللهم وألسنتهم ودولهم قديماً وحديثاً على دراسة هذا الكتاب العظيم، فقد ألفوا في تاريخ القرآن وفي التفسير وفي لغة القرآن وفي القراءات وفي علوم القرآن وغيرها.

فمنذ فجر الدعوة الإسلامية أي من عهد النبوة، وعلى امتداد قرون اتجهت جهود خصوم الإسلام للبحث عن مصادر توراتية وإنجيلية للقرآن الكريم، وأول غاية هؤلاء هو محاولة إيجاد تشابه بين القرآن وغيره من هذه الكتب السماوية الأخرى، مما يسمح بادعاء أن القرآن استنسخه الرسول ـ ﷺ ـ عن كتب اليهود والنصارى، وتدعمت هذه الجهود خلال القرنين الأخيرين مع متأخري المستشرقين، الذين تستروا تحت عباءة «البحث العلمي» والمجامع الأكادمية، وروجوا الكثير لهذه الفكرة في الموسوعات ودائرة المعارف، وحلقات البحث العلمي التي أسند إليهم تأطيرها، فمادة قرآن ضمن موسوعة الإسلام يقول محرر المادة وهو المستشرق (ويلتش) «إن القرآن الكريم جد مرتبط بالتجربة الخاصة للرسول ـ ﷺ ـ وإذا كانت نظرة

---

(١) الإسلاميات ـ بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ص ١٦.

المسلمين ـ الأرثوذكسية ـ تذهب إلى أن القرآن وحي من الله عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ... فإن تحليل النص القرآني يبين لنا وضعيته المركبة، فبالنسبة للمقاطع القديمة ـ الأولى ـ منه فإن مصدر القرآن أو المتكلم به غير معروف، وفي مقاطع أخرى لا يوجد دليل على ألوهية الرسالة، وفي غيرها فإننا نستشعر أنه محمد ـ ﷺ ـ هو الذي يتكلم... إن أجزاء من القرآن المدني تشعرنا بأن محمداً يبحث جدياً لاقتباس تعاليمه من الكتابات اليهودية... وفي هذه الأجزاء لا يصعب علينا أن نرى محمداً يتلقى قصصاً وتعاليم من مصادر عدة، بخاصة من اليهودية أو المسيحية، ثم بعد ذلك يظهر ما تلقاه في القرآن... وهنا يطرح السؤال عن علاقة القرآن بالكتابات اليهودية والمسيحية»[1].

ومن الموسوعات التي تطرقت في نسبة القرآن إلى تراث بني إسرائيل كتاب: «قصة الحضارة» لرول ديورانت ففي الجزء الذي خصصه لما أسماه عصر الإيمان قال: (لفظ القرآن مشتق من القراءة، ويطلق على كتاب المسلمين كله، وعلى أي جزء منه وهو يتألف ـ كما يتألف الكتاب المقدس ـ كتاب اليهود والمسيحيين ـ من أجزاء جمع بعضها مع البعض... القانون والأخلاق في القرآن كما هما في التلمود، شيء واحد فالسلوك الديني في كليهما يشمل السلوك الدنيوي... لقد أباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود)[2].

لقد نشرت دراسة قيمة في مجلة البحوث الإسلامية ـ جامعة الكويت عدد ٣٨ أوت ١٩٩٩م بعنوان مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن للدكتور عبدالرزاق بن إسماعيل هوماس فيه تفصيل جيد ومهم لمن أراد معرفة مواقف المستشرقين من القرآن.

---

(١) Encyclopedie de l'islam. tome 5p. 403- 404 al Kuram.

(٢) قصة للحضارة ـ ديورانت ـ جـ ١٣ ـ ص ٤٨، ٥١، ٦٣.

فإن كان الكثير من المستشرقين قد شكك في أن القرآن وحي، ومصدره من الله عز وجل ـ فهناك من أثبت هذه الحقيقة بكل موضوعية فالمستشرق «ديرمانجيم» في كتابه «حياة محمد» يؤكد هذه الحقيقة بقوله: (إن كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته، وهذا البرهان يسمى معجزة، وهو يختلف عما يلي بها الأولياء ويسمى كرامة، والقرآن هو معجزة محمد ـ ﷺ ـ الوحيدة، فإن جماله الأدبي الفائق وقوته النورانية ـ لا يزال الآن إلى اليوم لغزاً لم يحل وهما يضعان من يتلوه ولو كان أقل الناس تقوى في حالة خاصة من الحماسة. لقد تحدى محمد الإنس الجن أن يأتوا بمثله، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل، ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فإن محمداً كان يحتقر الشعراء، ودفع عن نفسه أن يكون واحداً منهم، ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحي الإله وإلهام الشياطين[1].

لقد أثبت هذا المستشرق بأن القرآن الكريم وحي ومعجزة تختلف اختلافاً تاماً عن الكرامة والشعر، ولكنه أثبت بأن القرآن هو المعجزة الوحيدة لرسول الله ـ ﷺ ـ مع أنه توجد معجزات أخرى إلا أن أعظمها هو القرآن الكريم. وتبعاً لتشكيك الكثير من المستشرقين في ألوهية القرآن الكريم، امتدت بحوثهم ودراساتهم على نفس المنهاج لدراسة علم التفسير حيث اعتبر المستشرق الفرنسي (كليمان هوار، أن جامع البيان لابن جرير الطبري لا يعدو أن يكون نسخة عربية لما تضمنه الكتاب المقدس)[2].

فمقابل طعنهم في التفسير الموثوق والذي يعتمد على المأثور اهتم

---

(١) حياة محمد ديرماجيم ـ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) عن مقالة نشرها من المستشرق في سنة ١٩٠٤ في الجريدة الآسيوية بعنوان (وهب بن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن).

هؤلاء كثيراً بالتفسير بالرأي خاصة الذي يبتعد عن الصواب، ويظهر ذلك في اهتمامهم بإنتاج المعتزلة والذين قدسوا العقل البشري القاصر على النقل كما اهتموا بتراث الباطنية وغيرهم.

وتبعاً لكل هذه الافتراءات فقد فسر جولدزيهر اختلاف القراءات بانعدام وجود نص ثابت للقرآن[1].

هذه بعض الدراسات ـ دون تفصيل ـ حول القرآن الكريم ولغته وتفسيره ومصادره وغيرها التي قام المستشرقون ولا يزالون ولا يخف على عاقل بعدهم عن الموضوعية والمناهج العلمية الصحيحة.

ولم يكن هذا فقط من عمل المستشرقين بل كذلك عمد تلامذتهم من العرب والمسلمين في اتباع مناهجهم ومنهم طه حسين ومحمد أركون وغيرهم...

إضافة إلى كل هذه الدراسات، فقد اهتم المستشرقون بترجمة القرآن الكريم[2] إلى لغاتهم الأوربية المختلفة، هناك ترجمات كلية وهناك ترجمات جزئية وهناك ترجمات مفيدة ودقيقة وعلمية وهناك ترجمة بعيدة عن ذلك.

كما اهتموا بتحقيق ونشر بعض الكتب في علوم القرآن والتفسير ومع ذلك فمعظمهم يقول ببشرية القرآن كما قالها عرب الجاهلية الأولى عندما أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ فلم تختلف مقالاتهم عن مقالات بدو الصحراء وأهل الجاهلية الأولى زمن النبوة.

ـ المستشرقون والسنة النبوية:

إن السنة النبوية الشريفة، هي المصدر الثاني من مصادر التشريع

---

(١) مذاهب التفسير ـ جولدزيهر ـ ص ٦.

(٢) انظر المستشرقون ـ العقيقي ـ ص ٨٩٧/ المستشرقون والدراسات القرآنية ـ محمد حسين علي الصغير ـ دار المؤرخ العربي ـ ص ٦٠ ـ ٦٩.

الإسلامي وهي مجموعة الأحاديث وما أضيف إلى النبي - ﷺ - من أقوال وأفعال وتقريرات.

ولقد عني المسلمون بالسنة الشريفة جمعاً وتدويناً وتمحيصاً وجعلوا الأسانيد وعلم الرجال أحد الركائز لمنهجهم في معرفة السنة الصحيحة من غيرها.

إلا أن المستشرقين درسوا السنة الشريفة بمنظار خاص بهم ووفق منهجهم المعروف.

وإذا ذكرت السنة والمستشرقون يبرز لنا جولدزيهر أحد عتاة المستشرقين الذي اهتم بالسنة الشريفة فشكك في الكثير من معالمها وكان تأثيره كبيراً على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية في مجال السنة النبوية خصوصاً وفي غيرها عموماً ويلخص «بفانموللو» عمل جولدزيهر في هذا المجال فيقول: (لقد كان «جولدزيهر» أعمق العارفين بعلوم الحديث النبوي، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولاً عميقاً، وراح - بما له من علم عميق - واطلاع يفوق كل وصف - يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي... وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث، ولم يعد يثق فيه مثلما كان «دوزي» لا يزال يفعل ذلك في كتابه: (مقال في تاريخ الإسلام) وبالأحرى كان جولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والإجتماعي في القرن الأول والثاني. فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول، عهد طفولته، وإنما هو أثر من أثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام... ويصور «جولد زيهر» التطور التدريجي للحديث، ويبرهن بأمثلة كثيرة وقاطعة كيف كان

الحديث انعكاساً لروح العصر. وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة، وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث عن نفسها من خلال ذلك عن إثبات لشرعيتها بالإسناد إلى مؤسس الإسلام. وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعاراتها[1].

هذا هو ملخص المزاعم التي روجها جولدزيهر، ليهدم بها الأصل الثاني بعد القرآن وهو السنة. وقد فصل ورد بإسهاب على هذه المزاعم الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي).

فجولدزيهر لم يفرق بين ظهور المذاهب الفقهية والاجتهاد المشروع، وبين نصوص الحديث المختلفة وقد يكون سبب الاختلاف هو السند الذي حرص علماء الإسلام عليه حتى يفرقوا بين الصحيح والحسن والضعيف والموضوع. إلا أن المستشرقون تغيب عنهم الموضوعية وعند أغلبهم إذا تعلق الأمر بعلوم الشريعة خاصة.

المستشرقون والسيرة النبوية:

أكاد أجزم بأن ما كتبه المستشرقون عن السيرة النبوية من كتب ومؤلفات ودراسات يفوق بكثير ما كتبوه في المجالات الأخرى، سواء أكان ذلك في الدراسات الإسلامية أو الأدبية أو الشرقية عموماً.

وكانت منطلقاتهم موضوعية وعلمية حيناً، ومغرضة مشبوهة أحياناً كثيرة، وكان اندفاعهم كبيراً للبحث المتواصل في جوانب السيرة النبوية جميعها، وعلى مستويات فكرية متعددة، فقد ترجموا كتاب المغازي للواقدي، وهو من أقدم مصادر السيرة النبوية في ثلاثة أجزاء، وطبع في برلين عام ١٨٨٣م إلا أنهم كما حققوا الكثير من كتب التراث التي تناولت

---

(١) انظر مادة حديث ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

السيرة النبوية فقد حقق الدكتور (مارسدن جونس) الذي كان مديراً لمعهد اللغات الشرقية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة هذا الكتاب، وحقق (دي خويه) كتاب الرسل والملوك للطبري، كما قدم المستشرق (كارلوس يوهنس توريبرغ) وزملاؤه كتاب الكامل في التاريخ، لابن الأثير في ١٢ مجلداً وفهارس مضافاً إليها استدراكات وتصحيحات.

وكان كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وهو أقدم كتاب ومصدر عن السيرة النبوية محل اهتمامهم، فقد حققه (دي يونج) مع (دي خويه) وترجماه إلى اللغة اللاتينية، كما اعتنى بتحقيقه باللغة العربية (فيستنفلد) الألماني، مع تعليقات وفهارس بالألمانية، إلا أن المستشرقين لم يعتمدوا على هذه المصادر المحققة والمترجمة من طرف زملائهم ـ كثيراً في دراساتهم، بل جاءت نظراتهم وآرائهم مختلفة كاختلاف مذاهبهم وأجناسهم وخلفياتهم.

فمنهم من يصنف سيدنا محمد ـ ﷺ ـ ضمن العباقرة على الطريقة المادية الغربية، وآخرون يعتبرونه مصلحاً اجتماعياً وسياسياً محنكاً، يُصنَّف ضمن الأبطال وعباقرة العالم في كل زمان ومكان فهو عندهم في طليعة العباقرة والسياسيين والمصلحين والمبدعين في العصور الوسطى والحديثة، دون أن يربطوا ذلك بأهم حدث وهو نبوته ـ ﷺ ـ وأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وخاتم النبيين.

فيوليوس فلهاوزن، ولامانس، ومانسيون، قد كتبوا كتباً عن عبقريته، وعن مروقه عن المسيحية القديمة إلى النسطورية وتطرقوا كثيراً في أحكامهم، وغلب على دراساتهم التعصب والتهجم والحقد، حتى أضحى زملائهم يشكون في القيمة العلمية والتاريخية والتحليلية التي وصلت إليها هذه الدراسات.

فمنهم من اعتبره متأثراً بالتوراة وتعلم على يهود المدينة، وأخذ كل

التعاليم الدينية منهم كما فعل جولدزيهر وقسك وشاخت وغيرهم. يقول الدكتور حسين مؤنس (إن أشد المستشرقين تعصباً ضد الإسلام ورسوله ـ ﷺ ـ هم الفرنسيون، فمن النادر أن تقرأ لمستشرق فرنسي شيئاً طيباً عن حياة رسول الله ـ ﷺ ـ لأنه حتى لو وجدت شيئاً طيباً فإن لسانه لا يطيعه في كتابته، ولو قاله فإنه يتحفظ في قوله تحفظاً بالغاً، حتى يخيل إليك أنه يخشى الوقوع في النار)[1].

يقول ديرمانغيم في كتابه حياة محمد (وهكذا نهض محمد ليدعو بني جنسه إلى دين واحد هو دين الإله الواحد وليوقظ جزءاً من آسيا وإفريقيا وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية.... إن الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمى الخيرة... فبثمارهم ينبغي أن يحكم عليهم أن أفضل براهين رسالاتهم هي تلك العقول المطمئنة والقلوب المفعمة بالسكينة، والإرادات القوية والمخاوف المستحيلة إلى هدوء الأمراض الأخلاقية التي ابرأوا الإنسانية منها، والصلوات التي تصعد إلى السماء النقية)[2].

فكما اختلفت وجهات نظر المستشرقين في أهم صفة لرسول الله ـ ﷺ ـ وهي النبوة فقد جاءت دراساتهم وأبحاثهم في الجوانب الأخرى من حياته ـ ﷺ ـ مختلفة بين الموضوعية العلمية والذاتية المتعصبة أو الحاقدة، فهم درسوا كل هذه الجوانب من طفولته إلى التحاقه بالرفيق الأعلى.

فالذين كانوا منصفين ـ إلى حد ما ـ أثبتوا النبوة وعقيدة التوحيد فهذا الكونت (هنري دي كاشري) يقول في كتابه: (الإسلام سوانح وخواطر):

---

(١) انظر الرسول ـ ﷺ ـ في كتابات المستشرقين ـ نذير حمدان ـ ١٩٨٦ ـ وهناك من المستشرقين من أثبت للرسول ـ ﷺ ـ الفضائل الإنسانية والعبقرية والنبوة التي هي أعظم صفة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومنهم هاملتون جب وديرمانغيم وإتيان دينه ومحمد أسد...

(٢) حياة محمد ـ ص ٨٠ ـ ٨١.

(أما فكرة التوحيد، فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي - ﷺ - من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو ذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته).

وأثبتوا نزول الوحي على مدى ٢٣ سنة، وأنه من عند الله تعالى وهو تشريع كامل وشامل لكل جوانب الحياة مما يثبت استمراره وإقبال الناس عليه.

كما تطرق المستشرقون إلى مسائل تفصيلية كثيرة كالبعثة والهجرة ودخوله - عليه الصلاة والسلام - المدينة، وإقامته لدولة الإسلام وغزواته وقضائه، فمنهم من اعتمد على المصادر الإسلامية الموثوقة فجاءت أحكامه موضوعية وصحيحة، وهناك من ترك كل هذه المصادر والدراسات الموثوقة فجاءت دراساتهم بعيدة عن الموضوعية وأخلطوا كثيراً في المسائل باعتمادهم المنهج الإسقاطي، أو بتعمدهم في تشويه الحقائق الناصعة.

فهذا غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب، الذي يعد كتاباً مفيداً ومنصفاً وفيه الكثير من الموضوعية والمنهج العلمي عند الكثير من الباحثين، فإنه أورد الكثير من الأخطاء في كتابه هذا حول القرآن وشخص الرسول - ﷺ - فهو يصف الرسول بالمتهوس لا بالنبي ويكررها كثيراً في كتابه فيقول في ص ٢٩ - ٤٠ - ١٤٥ - ١٧٣ - (إن محمداً كان من المتهوسين) ويقول (إن القرآن من تأليف محمد وشاهد من شواهد عبقريته) ص ١٣٦. ويقول في ص ١٣٦ (إن الإسلام مقتبس من عناصر يهودية ونصرانية) ويصف الرسول - ﷺ - بأنه شهواني تزوج الكثير من النساء، ويقول كلاماً غير علمي في قضية زواجه من زينب بنت جحش، والغريب أن مترجم هذا الكتاب لم يعلق على هذه الأخطاء والهفوات هذه قطرة من

البحر، وإشارة موجزة لمواقف المستشرقين من السيرة النبوية ولو كان المقام يسمح بذلك لأفدت القارىء بأكثر من هذه الأمثلة وأكثر من التحليل والعرض.

المستشرقون والفقه الإسلامي:

إن الفقه الإسلامي هو مجموعة أحكام شاملة لكل جوانب حياة المسلمين الفردية والأسرية والاجتماعية وهذه الأحكام تستنبط من الكتاب والسنة ومن اجتهادات الفقهاء، فالذين سعوا إلى هدم هذين الأصلين وهما القرآن والسنة، ونزع صبغة الوحي عنهما، جاء الكلام عن الفقه والتشريع موافقاً لهذا الاتجاه وأهم ما قاله المستشرقون عن الفقه الإسلامي أنه تأثر بالقانون الروماني. فجولدزيهر وفون كويمر وشيلدون آموس، يذهبون إلى القول بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني، وهذا القانون هو المصدر الذي أقام فقهاء المسلمين على أساس قواعده الكيان القانوني للشريعة الإسلامية.

يقول شيلدون آموس (إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية)[1].

فمن هؤلاء المستشرقين من يضرب أمثلة على صحة دعواه في ذلك فهم يعتبرون أن الإسلام أخذ من النظم الرومانية السلطة الأبوية والسيادة الزوجية ونظام النبي والحجاب والوصاية على المرأة وغيرها.

إلا أن هذه الآراء كلها خاطئة فالرسول ـ ﷺ ـ كان أمياً ولم يلق الرومان ولم يأخذ من أحدهم فلذلك فإن الصلة ـ منقطعة بين هاتين الشريعتين.

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية ـ حمدي زقزوق ـ ص ١٠٨.

يقول في هذا الصدد الدكتور السنهوري (إن هذا القانون بدأ عادات... ونما وازدهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشكلية، أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت كتاباً منزلاً من عند الله، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقي والأحكام الموضوعية... إلا أن فقهاء الإسلام امتازوا عن فقهاء الرومان، بل امتازوا عن فقهاء العالم باستخلاصهم أصولاً ومبادىء عامة من نوع آخر هي أصول استنباط الأحكام من مصادرها وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه)[1].

هذه دراسات وآراء تفتقد العلمية والموضوعية، لأن القائلين بها انطلقوا من قواعد بنوها من قبل تدل على بشرية القرآن والسنة. إلا أن بعض المستشرقين جاءت آراؤهم في الفقه الإسلامي صائبة وموضوعية، ذلك لأنهم توصلوا إلى أن التشريع الإسلامي قرآني ورباني وهو متكامل ومستمر وصالح لكل زمان ومكان وشامل لكل جوانب الحياة فهذا الأستاذ (شبول) عميد كلية الحقوق بجامعة فينا يقول في مؤتمر الحقوقيين عام **١٩٢٩**م (إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ـ ﷺ ـ لها، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن ـ الأوربيين ـ أسعد ما تكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة)[2].

لقد بهر التشريع الإسلامي هذا الأستاذ المختص في الحقوق واعتبره سعادة للبشرية لما اشتمل عليه من أحكام عادلة وصالحة لكل زمان ومكان.

ويقول الدكتور (كريستان سنوك هوجرونيه) الهولندي (... إن الدين الإسلامي سيظل ديناً قوياً ونشيطاً، ذلك لأن الإسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل أطوارها الشخصية عمومية وفردية واجتماعية...)[3].

---

(١) أصول القانون ـ السنهوري ـ ص ١٣٢.

(٢) الإسلام والثقافة العربية ـ أنور الجندي ـ ص ٢٩٦.

(٣) نفس المرجع ـ ص ٧ ـ ٨.

يرى هذا العالم الهولندي أن التشريع الإسلامي تشريع واقعي وأحكامه تخص الفرد والجماعة فهي شاملة لكل جوانب الحياة، ويقر عالم آخر بمرونة هذا التشريع فيقول الدكتور (شبلي شميل)... «... ثم إن في القرآن أصولاً اجتماعية عامة، فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان ولترقية الروح والجسد، بعد أن أوصد غيره من الأديان الأبواب، فقصر وظيفته البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الثاني...»[1].

فالفقه الإسلامي فقه أصيل مستنبط من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ومن الأصول التي وضعها الفقهاء لأنفسهم كمنهج أصيل وخاص بهم، لا من القانون الروماني الذي لم يكن له أي تأثير على علماء الإسلام لا من بعيد ولا من قريب.

الاستشراق والتاريخ:

من المسلم أن الشرق هو موضوع الدراسة في الدراسات الاستشراقية فكان هذا الشرق محل الدراسة والبحث والتأليف من طرف الغرب في مختلف جوانبه، وكان التاريخ من الموضوعات الحساسة التي اهتم بها المستشرقون، ولعل التاريخ المشرقي يمثل للغرب الكثير حيث به يعرفون نقاط الضعف والقوة للشعوب الإسلامية، وبه يحددون نوعية العلاقة مع هذا الشرق الجذاب.

كل باحث غربي كتب عن الشرق لا تخلو كتاباته من التطرق إلى التاريخ، قد يؤلف المستشرقون كتباً ودراسات حول التاريخ فقط، وقد يتطرقون إلى التاريخ في سياق الكلام عن موضوع معين من الموضوعات العربية والإسلامية.

---

(١) الإسلام والثقافة العربية ـ ص ٢١٢.

ولعل الحقل السهل والذي وجد فيه المستشرقون، السبيل السهل لتمرير أهدافهم وأغراضهم المشبوهة هو التاريخ المشرقي.

فهم إذا تناولوا مسألة من مسائل التاريخ الإسلامي، أو واقعة معينة من وقائعه الكثيرة، أو فترة زمنية معينة من فتراته، بالغوا في التنقيب عن الروايات التاريخية الموضوعة والضعيفة، وتقديمها باعتبارها أحداثاً وقعت فعلاً وصحيحة، مع تجاهل ورد متعمد للروايات الصحيحة وغالباً ما كانوا يعتمدون في دراستهم للتاريخ الإسلامي على المنهج المعكوس، حيث أنهم غالباً ما ينطلقون من نتائج يفترضونها ويعملون على إثباتها وتقويتها بالواقع والشواهد والأدلة الضعيفة وغير الصحيحة التي تتوافق مع أهدافهم وفرضياتهم.

كما اعتمدوا كثيراً في دراسة الشرق على العلوم الاجتماعية خاصة في الفترة الأخيرة، فقد زادوا من الاعتماد على الوسائل والطرق المأخوذة عن العلوم الاجتماعية في دراساتهم عن الشرق، وصار التاريخ الإسلامي جزءاً من العلوم الاجتماعية، وخاصة ما يعتمد حالياً في الاستشراق الأمريكي والبريطاني والفرنسي.

فالتاريخ لم يعد يدرس منه إلا الجانب السياسي والاقتصادي وإنما أصبح دراسة البيئة الاجتماعية والحركات الإسلامية في العالم الإسلامي والتيارات الفكرية والنظم والظواهر كلها دراسات تاريخية يتناولها المستشرق من باب التاريخ ويربطها بالحاضر والمستقبل.

ولعل أكبر حيز من التاريخ الإسلامي الذي تناوله المستشرقون كان ذلك الذي يخص عصر النبوة وعصر القرون الأولى بصفة خاصة فقد كتب المستشرقون عن الجاهلية لمعرفة العصر الإسلامي، وكتبوا عن السيرة النبوية والسنة والقرآن وتاريخ الفقه الإسلامي، وفصلوا كثيراً في هذه المجالات الحساسة في العلوم الإسلامية بمنهج تاريخي فيه الكثير من الأخطاء

والتشكيك في المقدسات والتزام النظرة المادية للتاريخ فمعظم المستشرقين الذين كتبوا دراسات وأبحاث في التاريخ الإسلامي أسقطوا الرؤية المعاصرة على الوقائع التاريخية الماضية (ويكادون جميعاً أن يلتفوا حول هذا الخلل المنهجي، الذي هو أشبه بالحتمية التي لا فكاك منها للبحث الغربي هو القاسم المشترك الأعظم لجل الأبحاث والدراسات التي قدموها. . .

إن مواضعات العقل الأوروبي ورواسبه الدينية تسيرُ جنباً إلى جنب مع نزوعه العلماني ومسلماته المادية ورؤيته الوضعية وانحساره على المنظور، وانكماشه على المحسوس، ورد فعله تجاه كل ما هو روحي وغيبي، واعتقاده الخاطىء، بل تجاوز الواقع إلى ما وراء السقوط في مظلة الخيال والمثالية والخرافة واللاعلمية. . .[1].

وهكذا لم يتخلص المستشرقون في دراساتهم وأبحاثهم في التاريخ الإسلامي من المنهج الإسقاطي والنظرة المادية والنوايا المسبقة فهذا جاك ريسلو المستشرق الفرنسي يقول (هكذا أصيب الإسلام بجمود شبه تام، دام حوالي ٧٠٠ سنة، فظل على الدوام مماثلاً لذاته، فهو جامد في القرن ١٩ مثلما كان جامداً في القرن ١٣ عملياً انتهى دوره، فبعدما جمع أفضل ما في الحضارات كلها ووزعها عبر العالم صارت حضارته الذاتية ميتة وحياة شعوبه متدنية جداً، زد على ذلك أن الطبيعة والنباتات والحيوانات والبشر لم يتغير منها شيء تحت سماء الصحراء العربية الجامدة)[2].

الاستشراق والتراث:

قد يتفق الكثير من الباحثين على أن المستشرقين لم يكونوا يتصفون بالموضوعية والعلمية عند التطرق إلى دراسة العلوم الإسلامية وخاصة (القرآن

---

(١) مناهج المستشرقين ـ جـ ١ ـ ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) الحضارة العربية ـ جاك ريسلو ـ ترجمة خليل أبو خليل ـ ط ١ ـ بيروت باريس ـ ١٩٩٣ ص ٢٧٩.

ـ السنة ـ الفقه ـ السيرة النبوية...) إلا أنهم عند الحديث عن التراث الثقافي العلمي، فإن الكثير منهم يشيد بجهود المستشرقين في الحفاظ على هذا التراث فهرسة وتحقيقاً ونشراً...

إلا أن الحقيقة وراء اهتمام هؤلاء بهذا التراث الكبير، ليس حفاظاً على العلم والمعرفة فقط، بل جزء من دراسة هذا الشرق والاستحواذ عليه، فقد صاحب الاحتلال الأوربي للبلاد الإسلامية، تصدير تراث المسلمين من كتب ومخطوطات، التي تشغل حيزاً كبيراً في المكتبات الغربية والمتاحف، وكان هذا التصدير بالسرقة والاستيلاء بالقوة أو بالشراء والأخذ.

يقول نجيب العقيقي مادحاً ومثنياً على عمل المستشرقين وعنايتهم بالتراث (ولو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وتحقيقه وما قمنا نحن به في سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية... وأن لهم الفضل على فتح عيون المستشرقين والغربيين على ما في تراثنا من ثراء... ثم على نهضتنا الحديثة التي كانوا من دعائمها، ولو سعينا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات، منذ ألف عام... لاحتجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم وجلّتهم طوال حياتهم...)[1].

يبدو نجيب العقيقي مبهوراً بعمل المستشرقين وخاصة في مجال التراث ويصفهم بأنهم أصحاب أفضال على الأمة الإسلامية ويستحقون الجزاء وكأن المسلمين لم يفعلوا شيئاً لتراثهم ليكونوا هم أول من أرسى قواعد الفهرسة والتحقيق منذ العصور الإسلامية الأولى، ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن التراث المحقق من طرف المستشرقين هو تراث منتقى أي اختير عن عمد ولخلفية استشراقية لا تخف على أهل التخصص فهم حققوا الكثير من كتب

(١) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ جـ ٣ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

التصوف وعلم الكلام والتاريخ كي يعتمدوا على الضعيف والشاذ والموضوع الموجود فيها، ولم تنصب جهودهم في تحقيق ونشر أمهات الكتب الموثوقة والصحيحة إلا نادراً. والذين خدموا التراث من المستشرقين، كانت دوافعهم مختلفة، منها السياسية واللغوية والدينية والثقافية والاستعمارية والعلمية أحياناً.

وكان تعامل الغرب مع التراث الشرقي تعاملاً مبنياً على وعي تام بأهمية هذا التراث في تطور وصيرورة العلوم الإنسانية بالغرب فقد قاموا بفهرسة المخطوطات، فهرسة علمية مثل تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، وفهرس فانيون الذي يحتوي على المخطوطات الموجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر وغيرها...

إلا أن تعامل المستشرقين مع التراث الإسلامي، لم يتناول فقط جانب فهرسة المخطوطات والطبع والتحقيق والنشر، بل تناول كذلك الترجمة، فقد ترجمت الكثير من المصادر الإسلامية في الفقه والطب والحديث والأدب والتاريخ والتفسير إلى عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها.

وقد ساهم هذا التراث الإسلامي بمختلف جوانبه مساهمة فعالة في النهضة الأوربية الحديثة، وفضل هذا التراث لا ينكره الكثير من المستشرقين (يثبت الآن أن تأثير العرب على الغرب عظيم جداً وإن أوربا مدينة للعرب بحضارتها... ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة إليها وإذا رجعنا إلى القرن ٩ و١٠ من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سنبورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن نشعر بها، ولم

يبد في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن ١١ ـ ١٢ للميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم)[١].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعامل المستشرقون مع التراث اقتباساً من نصوصه واستشهاداً بما هو موجود في كتب التراث لدراسة وتحقيق مسألة من المسائل المدروسة، وكان تعاملهم في مجال لا يختلف عن تعاملهم مع التراث في المجالات الأخرى، فقد كانوا يعتمدون على الكتب غير الموثقة والكثيرة الخطأ والروايات الضعيفة، وإن اعتمدوا على كتب موثوقة يتركون الصحيح منها ويلجأون إلى الشاذ الضعيف وما يخدم نواياهم.

المستشرقون واللغة العربية:

لعل أول مهمة للمستشرقين الغرب المتعددي اللغات والهويات هو تعلم اللغة العربية لدراسة هذا الشرق. فكان إذن أول احتكاك بالشرق هو دراسة لغته، وكانت الجهود كبيرة فقد تعلم الكثير من المستشرقين اللغة العربية بقواعدها ومنهم من أتقنها إتقاناً جيداً، ومنهم من لم يتقنها وكانت جهودهم كبيرة في فتح أقسام اللغة العربية وكراسي اللغة العربية في الجامعات والمعاهد والقيام برحلات متعددة إلى معاهد وجامعات الدول العربية في الشرق.

ولم يكن تعلم اللغة العربية عند المستشرقين مجرد وسيلة لمعرفة العلوم الشرعية والدقيقة وكل التخصصات التي كانت موجودة عند العرب، بل تعدوا ذلك كلّه، فبدأوا بالطعن في هذه اللغة، وخاصة لما عرفوا بأنها

---

(١) انظر ـ حضارة العرب ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ مطبعة البابي الحلبي وشركاؤه ـ القاهرة ـ ص ٥٦٦.

الصلة الوثيقة التي تربط المسلمين بدينهم وببعضهم البعض.

فكتبوا دراسات كثيرة عن القواعد والنحو والصرف، وشككوا في صحة الشعر الجاهلي وغيرها.

وقد كان ماسنيون يتزعم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية وبالحرف اللاتيني وهذا لكي يتم تقطيع أوصال العرب والمسلمين الذي لا يمكن أن يتم ما دامت هناك لغة واحدة يتكلمها العرب وما دام هناك حرف عربي يربط حاضر المسلمين بتراثهم الماضي وذخائرهم اللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية.

ولقد حاول ماسنيون أن يثبت دعوته هذه في المغرب ومصر وفي سورية ولبنان خاصة، كما سعى إلى هذه الغاية مبشرون ومستشرقون آخرون.

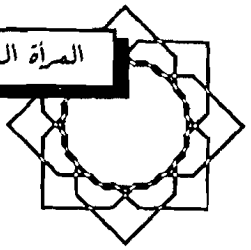

الفصل الخامس

مواقف العلماء المسلمين والعرب من الاستشراق

المبحث الأول: موقف القبول المطلق.

المبحث الثاني: موقف الرفض.

المبحث الثالث: موقف المواجهة.

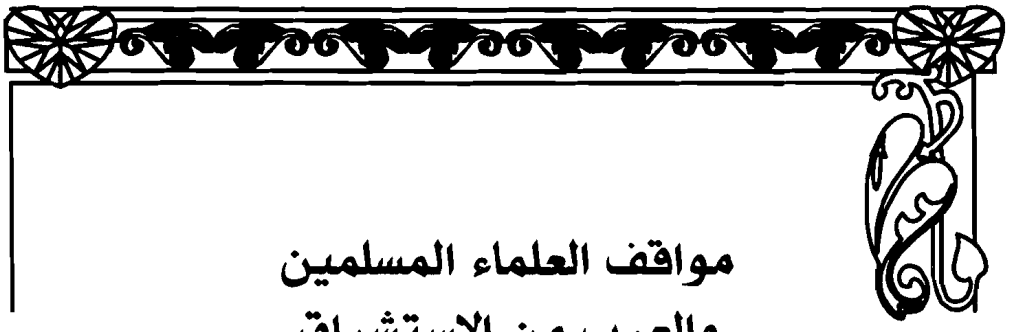

مواقف العلماء المسلمين والعرب من الاستشراق

إن الاستشراق ليس وليد اليوم أو البارحة بل هو تاريخياً يزيد عمره عن ستة قرون من الكتابة والتأليف عن الإسلام والشرق عموماً. كتابات كثيرة وسيل جارف من البحوث والدراسات بمختلف اللغات ومن مختلف الدول والجنسيات عن الشرق وأهله وحضارته وعلومه.

فقد كتب المستشرقون كل هذه الدراسات لأغراض وأهداف كثيرة ـ سبق ذكرها ـ وبمناهج وطرق مختلفة موضوعية تارة وذاتية تارة أخرى.

ومن الطبيعي أن يتلقى علماء الإسلام هذا الكم الهائل من الأبحاث والدراسات عن مجتمعاتهم وحضارتهم وقيمهم بردود أفعال سلبية تارة، وإيجابية تارة أخرى، وأن تكون لهم مواقف تجاه ما يكتب ويقال عنهم.

لقد تضاربت مواقف العلماء في العالم الإسلامي تجاه الاستشراق واختلفت ويمكن تلخيصها في ثلاثة مواقف: موقف متقبل ومثني لكل ما كتب وموافق بل ومنبهر بما يكتبه المستشرقون، موقف رافض رفضاً باتاً لكل ما يكتب فيمنع قراءته والاطلاع عليه والرد عليه لأنه كلام يثير الغضب والاستفزاز ويمس بالمقدسات وموقف ثالث بين هؤلاء وهؤلاء أي المواجهة.

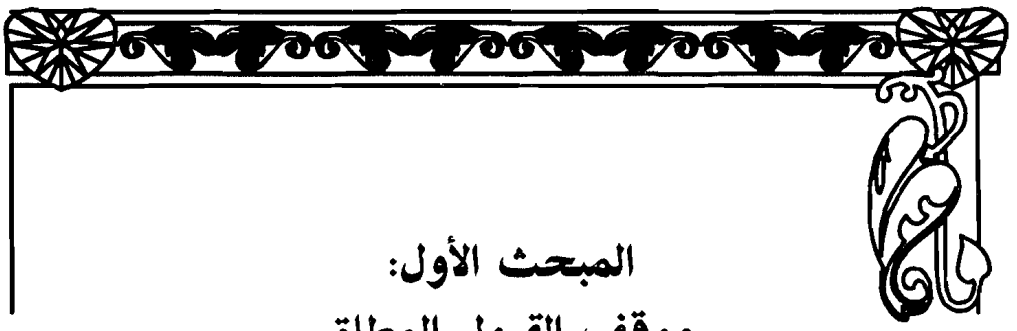

المبحث الأول:
موقف القبول المطلق

يعد هذا التوجه نحو قبول إسهامات المستشرقين حسب رأي بعض المفكرين أول المواقف الثلاثة برزوا (إذ أن بداية النهضة في مصر وسوريا قد اتكأت على مجموعة من المفكرين والأدباء الذين تلقوا علومهم عن الغرب إما بالإتبعات أو بالمتابعة)[1].

ويتسم هذا الموقف بالتأثر المباشر والقوي بالمعلومات الواردة عن المستشرقين حول التفسيرات الجديدة للإسلام، من حيث كونه فكرة دينية عامة، أو من حيث النظر إلى أحداث فرعية في حياة المسلمين، وقد أثنى كثيراً (نجيب العقيقي) على المستشرقين وجهودهم وفضلهم على العرب إذ يقول: (ولو وازنا بين عناية المستشرقين بتراثنا واكتشافه وتحقيقه وما قمنا نحن به في سبيله لرأيناها تكاد تكون متساوية، ولو وازنا كذلك بين ترجمة أحد المستشرقين وآثاره، وبين ترجمة أحد أعلامنا وآثاره لوجدناه يضاهيه خلقاً علمياً وعدد كتب وأن لا غني لنا عن معظمها في علومنا وآدابنا وفنونا، ولا سبيل إلى جحد فضلها في فتح عيون المستشرقين والغربيين

(١) انظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٨٨ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

على ما في تراثنا من ثراء، ثم على نهضتنا الحديثة التي كانوا من دعائمها، ولو سعينا إلى تحقيق تراثنا وترجمته والتصنيف فيه ونشره بشتى اللغات، منذ ألف عام، وفي كل مكان لاحتجنا إلى استئجار مواهب مئات العلماء ومناهجهم ومعارفهم ودقتهم و جلدهم طوال حياتهم. وفي ذلك من العسر علينا ما فيه، ومن النفقات عليه... أما ونحن لم نفعل، وعرفنا الجزاء الذي لقيه ويلقاه المستشرقون في بلدانهم فكيف جزيناهم عليه)[1].

(١) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ جـ ٣ ـ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

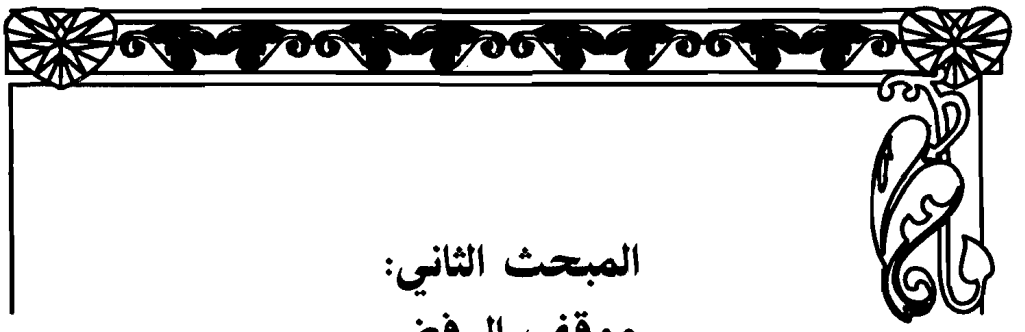

المبحث الثاني:
موقف الرفض

لقد وقف بعض المفكرين المسلمين موقف الرافض رفضاً مطلقاً لكل إنتاج المستشرقين، ولم يقبلوا أسماءهم في الثقافة الإسلامية فهم أناس ليسوا مسلمين، ولم يقبلوا الإسلام كحجة وعلى أنه يقدم مفهوماً جديداً.

ورفض هؤلاء كل الإنتاج الاستشراقي حتى ما كان فيه مديح وإطراء، فقد تحفظوا وحاولوا قراءة ما بين السطور، فهذا العلم ـ في نظرهم ـ هو علم أوربي، وهو صورة لما توصلت إليه أوربا في معرفة الشرق، فهو يعكس موقفاً أوربياً لا غير.

ولهؤلاء الرافضين للاستشراق مبررات مختلفة منها أن الاستشراق بدراسته لعلوم المسلمين وإسهامه في الدراسات لم ينطلق من قاعدة علمية مجردة وموضوعية، بل إن هناك دوافع وأهدافاً غير علمية ساقت المستشرقين إلى هذا المجال خدمة لأغراض استعمارية وتنصيرية ودينية عامة وتجارية اقتصادية وسياسية وعليه فإن الثقة منزوعة من هؤلاء ويقول في هذا الصدد عبد النبي اصطيف: لم نضيع الوقت والمال والجهد والطاقة في سبيل ما لا جدوى منه ولا عائد؟ ماذا يفيدنا أن نتتبع أخبار الاستشراق أو أن نراجع كتبه، ونناقش ما فيها، ونفندها

وتفقدها نراه غير صحيح مما تضمنه من آراء وتعصب فيما لا طائل منه؟ هل كان الاستشراق غير نتاج خارجي كتبه خارجيون لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي نتكلم بها؟ فكيف بهم عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخنا وثقافتنا وآدابنا واقتصادنا وسياستنا؟ إنهم بالتأكيد لن يصلوا إلى حقيقة ذات قيمة تتصل بها، وبالتالي فلا ضرر علينا إن أَغَضَيْنَا طرفنا عما يعملون[1].

فهذا الباحث يرى أن الاهتمام بدراسة الإنتاج الاستشراقي والإطلاع عليه ومناقشته مضيعة للوقت والجهد.

ويقول المرحوم مالك بن نبي (إن الإنتاج الاستشراقي كان شراً على المجتمع الإسلامي لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيعة عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعاً، ولكنه دون هوادة، ولا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لا نحو ظروف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الإصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب)[2].

ومحمد أركون ينتقد هذا الاتجاه الرافض للاستشراق بشدة ويقول (إن المسلمين يتصرفون اليوم كما تصرف المسيحيون الأوروبيون بالأمس

---

(١) مقدمات في الاستغراب الجديد، نحن والاستشراق ملاحظات نحو مواجهة إيجابية ـ عبد النبي اصطيف ـ مجلة مجمع اللغة العربية ـ دمشق مج ٥٧ ـ ١٩٨٢ ـ ص ٦٤٨ ـ ٦٦٥.

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي ـ الحديث ـ مالك بن نبي بيروت ـ دار الإرشاد ـ ١٩٦٩ ـ ص ٢٥.

أثناء الأزمة الحداثية التي حصلت في القرن التاسع عشر، أقصد بذلك ردود فعلهم الهائجة تجاه البحوث الاستشراقية القديمة الخاضعة للمنهجية الوضعية التاريخية والفيزيولوجية المتطرفة التي لم تلق سلاحها بعد، كما ويقومون بردود فعل سلبية ضد البحوث الاستشراقية الحديثة المتحررة نسبياً من مسلمات هذا العلم المغرور بل حتى غير المتسامح والمتعصب)[1].

إن أركون تكلم عن رد فعل المسلمين تجاه الاستشراق ووصفه بأنه رد فعل سلبي وعمم حكمه على الجميع مع أنه يوجد رأي آخر وسط بين القابلين له والرافضين له...

(١) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ـ (نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي) محمد أركون ـ ترجمة هاشم صالح ـ دار الساقي ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ ص ٣٥.

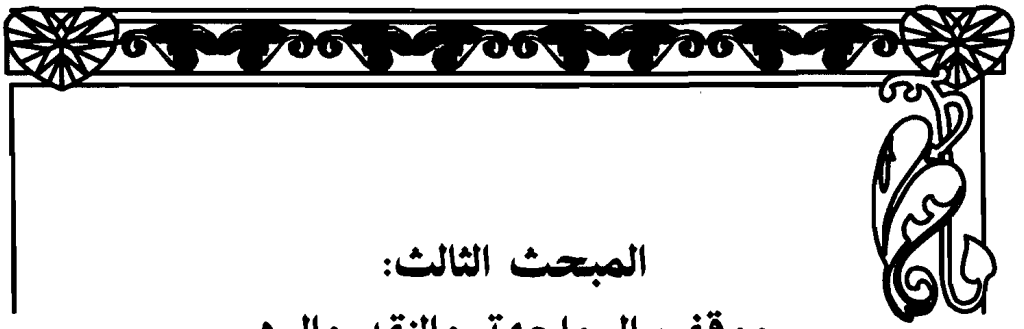

المبحث الثالث:
موقف المواجهة والنقد والرد

وهو موقف قائم على دراسة الغير والبحث والغوص في إسهامات المستشرقين في مختلف المجالات العلمية، ومعرفة الخطأ والصواب في كتاباتهم والرد عليهم رد علمياً ومحاورتهم بكل موضوعية وعلمية. يقول الدكتور حسن حنفي (نقد الاستشراق أحد مظاهر معركة التحرر، تحرر الذات من أحكام الغير، وانطلاق الآنا من قبضة الآخر على مستوى التصور والرؤية، فإذا ما حدث ذلك كما هو الحال عند أنور عبدالملك وإدورد السعيد وغيرهم سرعان ما ينقلب علماء المركز وباحثوه إلى الدفاع، وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم، ورد كشف أشار إلى إيديولوجيات للشعوب المقهورة والحساسية المفرطة تجاه الاستعمار والأخطار المنهجية في قسمة الشرق إلى ظاهري استشراقي معرفي جوهري وطني وجودي ومن ثم أحكام ذاتية وصرخات وجودية، تعبر عن أزمة، وتكشف عن عقدة نقص تجاه الآخر ويصبح الاستشراق هو العلم. ونقد الاستشراق هو الإيديولوجيا، قلباً للموازين وتبادلاً للأدوار)[1] فموقف حسن حنفي واضح في هذا النص وهو يتبع نهج أنور عبدالملك وإدورد السعيد في نقد الاستشراق وتتبع الدراسات والبحوث وتفنيد الآراء المنافية للحق

(١) هموم للذكر والوطن ـ حسن حنفي ـ ص ٥٤٦.

والموضوعية ويعتبر نقد الاستشراق علامة على النهضة العلمية العربية فيقول (كما كان الاستشراق حركة تاريخية وقت العنفوان الأوربي سيطرة المركز على الأطراف، فإن نقد الاستشراق حركة تاريخية كذلك إكمالاً لحركة تحرر الشعوب المستعمرة تخليصاً لثقافاتنا لأطراف من سيطرة أحكام المركز ومناهجه ومفاهيمه ونتائجه)[1].

إن هذا الموقف فيه موضوعية، ذلك أنه يبتعد عن التعميمات الخاطئة، ويرفض للتحمس للدراسات الاستشراقية تحمساً خاطئاً، أو رفض كل إنتاج استشراقي بخيره وشره.

إن الاستشراق يشمل على عناصر سلبية وأخرى إيجابية، ولهم جهود إيجابية معروفة في الحفاظ على المخطوطات وفهرستها وصيانتها ولهم آراء صائبة وعلمية في مسائل كثيرة، إلا أن الظاهرة الاستشراقية تبقى ظاهرة استعلائية فيها الكثير من الأخطاء يجب علينا كمسلمين التنبيه إليها ونقدها وتصحيحها. (ليس من الصعب التمييز بين العناصر الإيجابية وبين العناصر السلبية في دراسات المستشرقين، فالعناصر الإيجابية تتمثل في العناية بالمخطوطات العربية في المكتبات الغربية وفهرستها وتحقيق العديد من أمهات الكتب والقيام بالعديد من الدراسات اللغوية المفيدة والموسوعات والمعاجم النافعة أما العناصر السلبية في دراسات المستشرقين فإنها تتمثل بصفة أساسية في العديد من الدراسات والبحوث حول القرآن الكريم والسنة المحمدية وسيرة الرسول ـ ﷺ ـ فالكثير من هذه الدراسات يشتمل على أخطاء شنيعة لا تخفى على الباحث المسلم صاحب العقلية الواعية، أما بعض أبناء المسلمين الذين ليس لديهم خلفية ثقافية إسلامية فقد يخفى عليهم الكثير من المغالطات والأخطاء في دراسات المستشرقين[2].

---

(١) نفس المرجع ـ ص ٥٤٦.

(٢) الإسلام في مرآة الغرب ـ حمدي زقزوق ـ ص ١٥ ـ ١٦.

فإنتاج المستشرقين غير متصف بصفة خاصة في الدراسات الإسلامية والشرعية وما زالت تحكمهم خلفيات كثيرة وتصحيح المفاهيم المغلوطة يحتاج إلى جهود كبيرة من تأليف ودراسة وفتح حوار وغيره (الاتجاه السائد بيننا وبين المستشرقين حتى الآن هو ما يمكن أن نطلق عليه (حوار الطرش) فدراسات المستشرقين تُقابل في العالم الإسلامي في الأعم الأغلب بالرفض، بوصفها دراسات صادرة من أعداء الإسلام، وفي المقابل لا يهتم الكثير من المستشرقين بما يكتبه المسلمون المعاصرون، لأن هذه الكتابات في نظرهم كتابات عاطفية انفعالية وليست علمية)[1].

ومهما كانت حجج المستشرقين في رفض كتابات المسلمين فإن هذه الكتابات لا ينقص من قيمتها هذا الرأي بل أنها مفيدة ومهمة وكتابات إدورد السعيد وأنور عبدالملك حول الاستشراق وردود أفعال المستشرقين عليها إلا مثال على اهتمامهم بإنتاج العرب وأحسن مثال ما وقع مع الدكتور حمدي زقزوق عندما نشر مقالاً في مجلة الفكر الإسلامي حول نقد كتاب عقائد الإسلام للمستشرق الألماني «هرمان اسنيجلكر».

فقد جاء في مقدمة هيئة تحرير المجلة (فالمستشرقون مهما بلغت دقتهم العلمية، غرباء عن هذه الأمة في دينها وحياتها ومواطن اعتزازها، وفي أعماقهم رواسب العداوة بين الإسلام والاستعمار قديمه وحديثه ما يؤدي بهم إلى الكثير من الشطط والبعد عن مقتضى الحقيقة النزيهة).

هذه العبارة جعلت المستشرق (اسطفان فيلد) يرفع قلمه ويكتب إلى مجلة الفكر العربي يعلق على هذه الجملة التي لم تعجبه فيقول: (قرأت هذه الجملة بشيء من الحزن والأسف لأنها تسيء إلى حد ما إلى قضية الاستشراق وقضية التعاون بين الجهود العلمية العربية من جهة وغير العربية

---

(١) الإسلام في مرآة الغرب ـ ص ١٧.

من جهة أخرى ولتعترف أولاً أن الكثير من المستشرقين أخطأوا في الكثير مما كتبوا بعضهم أخطأ لغوياً في النحو والصرف وبعضهم كسر العروض وهناك من أخطأ في البلاغة والبيان وكذلك في تفسير القرآن وشرح الحديث، ونجد في كتاباتهم أخطاء تاريخية وفقهية... كل هذا صحيح وعلى المستشرقين الاعتراف بذلك ولكن - وإن صح القول - أن الكثير من المستشرقين قد أخطأوا في بعض المواضع فهذا لا يعني أن يصدر الحكم عام على جميع المستشرقين، فهذا حكم غير عادل وغير جاد...)[1].

إن موقف المواجهة وقراءة إنتاج الآخر هو موقف المستشرقين من الكتابات والدراسات الإسلامية التي تكتب عنهم، وعن مناهجهم فهذا المستشرق (اسطفان فيلد) بمجرد أن قرأ فقرة في مجلة ولم يعجبه الموضوع، كتب يرد ويعلق.

ومن قبله رد لويس برنارد على كتاب الاستشراق لإدورد السعيد يفند ما كتبه ويرى بأن الاستشراق علم لا يهدف إلى الهيمنة ومن قبله كثيرون تصدوا إلى كتابات أنور عبدالملك وإدورد السعيد حينما كتبوا عن الغرب، إلا أن المسلمين لا يريدون أن يكونوا مثل الغرب، يتبعون خطواته كما يتتبع هذا الغرب خطواتهم في كل شيء.

يقول محمد الغزالي: (من الأخطاء التاريخية التي أساءت إلينا طويلاً جهلنا بغيرنا، وقصورنا عن إدراك أحوالهم العامة، وقد يكون هذا الغير خصماً ضاغنا، أو عدواً مزعجاً وأكثر الغارات التي قوضت بنياننا الحضاري، كانت تشبه الزلازل المباغتة، لا يعرف لها وقت أو تتخذ لها أهمية... لقد كانت دراساتنا للآخرين صفراً، مع أن الآخرين كانت تغلي مواجلهم ولا يفتئون يفكرون في النيل منا والإتيان على ديننا من قواعد)[2].

---

(١) الإسلام في مرآة الغرب - ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) علل وأدوية - محمد الغزالي - ص ٦٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثاني

المرأة المسلمة والاستشراق

الفصل الأول: المرأة المسلمة والاستشراق.

الفصل الثاني: الاستشراق النسائي.

الفصب الثالث: المستشرقون والمصادر العربية.

الفصل الرابع: زوجات النبي ﷺ والفكر الاستشراقي.

الفصل الخامس: نظام الأسرة في الإسلام والفكر الاستشراقي.

الفصل السادس: نظام تعدد الزوجات والفكر الاستشراقي.

الفصل السابع: الحجاب والفكر الاستشراقي.

الفصل الثامن: أثر الاستشراق على الشرق.

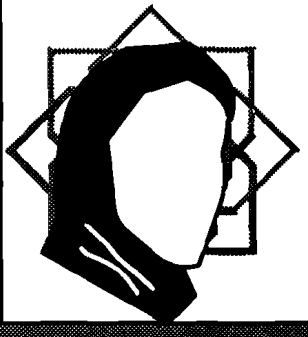

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

المرأة المسلمة والاستشراق

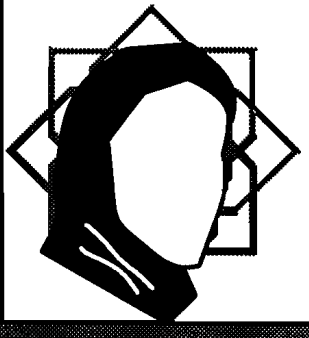

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

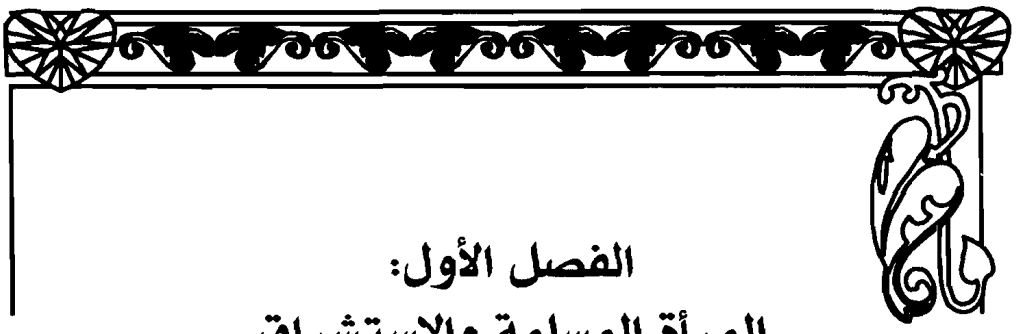

الفصل الأول:
المرأة المسلمة والاستشراق

إن ما يسمى بمشكلة المرأة لا يمكن النظر إليه على أنّه مشكلة منفصلة عن القضايا البشرية الأخرى، ولا يمكن تنحيته عن الصراعات العقائدية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والدولية القائمة، ولا يمكن فصله عن صراع الحضارات، بل أنّ مشكلة المرأة تأثرت بهذه الصراعات تأثراً بالغاً جعلتها أكثر اتساعاً وتعقيداً.

إن الغرب الذي استأثر بسلطة الحكم والنفوذ في العالم العربي والإسلامي تلك المدة الطويلة، قد أدرك أنّ الحضارة بما فيها من أساليب الحياة وأنماط العيش، كلّ لا يتجزأ، وفيه تتماسك كلّ الأجزاء معاً.

ويعتمد كل واحد منها على الآخر، ولذلك كان الغرب حريصاً منذ البداية على أن يفرض سلطانه العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والثقافي على العالم الإسلامي، كيلا تشذ ناحية، فتخرج عن سلطانه، والمرأة المسلمة ناحية مهمة أصر الغرب على أن تكون النظرة إليها من منظاره الخاص، وفي سبيل ذلك كرّس في هذا السبيل جهوداً كبيرة، وكان للتبشير والاستشراق الدور الرئيسي في ذلك.

إن المستشرقين خاصة والغرب عامة يصوّرون الإسلام والمسلمين بصورة مشوّهة، يربطونها أحياناً بالإرهاب والتطرف، وأخرى بوضعية المرأة

في معاناتها في الأوساط الإسلامية والإيهام بأنّ تعاليم الإسلام كلّها حيف عليها وإقصاء لها كإنسان من المجتمع.

يقول الأستاذ أنور الجندي (من الخلفيات الملموسة والجهود الملموسة للحركات الاستشراقية تحرير المرأة، والرمي إلى تحقيق مجموعة أهداف خطيرة ترمي إلى هدم الأسرة، وتدمير المجتمع، ودفع المرأة إلى أن تكون أداة للأهواء والرغبات، وإخراج المرأة من مكانتها ورسالتها، وتحطيم القيّم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية في شأن العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأجيال المتتابعة من الرجال والنساء...)[1].

إن المرأة المسلمة، التي جعلتها المسيحية أداة ووسيلة للتبشير، ونشر المسيحية في العالم الإسلامي، أرادها الاستشراق كذلك أداة ووسيلة لهدم القيم والتعاليم الإسلامية.

فالمبشرون سبقوا المستشرقين ـ وإن كان المستشرقون هم أنفسهم مبشرون ـ سبقوهم إلى الاهتمام بقضايا المرأة المسلمة، وجعلها أداة للتملص من القيّم بإحداث قضايا مفتعلة، وتحريف التعاليم الصحيحة، وجنّد التبشير الكثير من النساء المبشرات حتى يؤثرن في النساء المسلمات وحدّدوا طرقاً ومناهج للولوج إلى الشرق عن طريق النساء المبشرات إلى النساء المسلمات، وذلك بمعرفة لغات الشرق، وفهم عاداته وتقاليده، وقد تناول موضوع المرأة المسلمة في مؤتمر خاص بالمبشرين عام ١٩٠٦م وعنوانه (الأعمال النسائية في التبشير) كمحور في جدول أعماله، حضرته مجموعات كثيرة من مندوبي الإرسالية التبشيرية من مختلف دول أوربا وأمريكا، لأنه يتعلق بنصف مسلمي العالم، وقد تناوبت على منصة المؤتمر سيّدات مبشرات من مختلف المناطق للخطابة في أخبار نجاحهن، وأشرن إلى أنّ

(١) معلمة الإسلام ـ أنور الجندي ـ دار الصحوة ـ ١٩٩١ ـ جـ ٢ ص ٢٣٥.

المدارس والعيادات الطبية، وزيارة الفلاحين في قراهم وسائل ناجحة في نشر النصرانية بين طبقات المجتمع المسلم).

وهذا أحد المستشرقين المبشرين يقول (لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات للمسيح، إنّ عدد النساء المسلمات عظيم جداً... فكلّ نشاط مُجدي للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن، نطلب من كلّ هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفاً جديداً، هو الوصول إلى قلب نساء العالم المسلمات كلّهن في هذا الجيل)[1].

هذا خطاب صريح، وخطة تبشيرية مفضوحة، لمسخ المرأة المسلمة وإخراجها من دينها وأخلاقها، عبر وسائل التبشير، والاستشراق.

فالمرأة المسلمة جزء من هذا الشرق الجذاب، الذي هو موضوع الدراسات الغربية، بشتى اللغات، وفي مختلف الدول.

يقول إدورد السعيد (ذلك لأنّ إعادة النظر في الاستشراق ارتبطت على نحو وثيق بنشاطات عديدة أخرى، من النوع الذي أشرت إليه سابقاً، والذي يصبح التشديد عليه بتفصيل أكبر واجباً وملزماً اليوم، وعلى سبيل المثال بوسعنا اليوم أن نرى أنّ الاستشراق مثال تطبيقي من النوع ذاته، بالرغم من وقوعه في مناطق أخرى، السائد في المسألة هيمنة الذكر، أو البطريكية في المجتمعات المتروبوليتية، ولقد وصف الشرق على الدوام بالمؤنث وثرواته بالخصبة، ورموزه الكبرى هي المرأة الشبقة والحريم والحاكم المستبد... ولكنه جذاب على نحو غريب يضاف إلى ذلك أن الشرقيات مثل الخادمات في العصر الفكتوري كنّ ملزمات بالصمت، بقدر إلزامهن بالولادة الخصبة غير المحدودة، والحق أنّ معظم هذه المادة مرتبط بصورة ظاهرة مع

---

(١) التراث والحضارة الإسلامية ـ ماهر عبدالقادر ـ ص ٥١.

تجسيدات اللاتماثل الجنسي والعرقي والسياسي الكامن في الثقافة الغربية الحديثة)[1].

رغم أنّ الاستشراق موضوعه الشرق كلّه، إلا أنّ الحيز الأكبر من الدراسات الشرقية هو الإسلام بمختلف علومه وفنونه، والأكثر تناولاً في الدراسات الإسلامية هو الرسول ـ ﷺ ـ والقرآن الكريم والسنة الشريفة والمرأة المسلمة، فالمستقرىء للكتابات الاستشراقية المؤلفة في مختلف العلوم والفنون، يجد أنّه لا يخلو كتاب ولا دراسة من التطرق إلى المرأة المسلمة إما بإسهاب وإما بالتلميح والإشارة، وعندما تقول المرأة المسلمة، لا نعني فقط المرأة، بل كلّ ما يتعلق بها، كزوجات الرسول ـ ﷺ ـ والأسرة والحجاب وتعدد الزوجات وغيرها، فمن كتب في سيرة الرسول ـ ﷺ ـ تكلم عن زوجاته وعن التعدد وعن أمور كثيرة تخص المرأة، كمونتجرمري في كتابيه «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، وكإميل درمنغام في كتابه حياة محمد، وكبودلي في كتابه «حياة محمد ـ ﷺ ـ» كذلك ومن كتب في الحضارة الإسلامية تكلّم عن المرأة والأسرة كجاك ريسلر، وسغريد هونكه، ومن تكلّم عن التاريخ لم يفوت الفرصة في الكلام عن المرأة، ككارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب العربية، ولوبون في حضارة العرب.

ومن كتب الموسوعات والمعاجم والقواميس ودوائر المعارف، لم يهمل هذا الموضوع، بالتفصيل تارة، وبالإشارة تارة أخرى، وبتطرق إلى جانب من جوانب حياة المرأة المسلمة، أو بالتطرق إلى كلّ الجوانب، ومن كتب في الفقه والقانون تطرق إلى موضوع الأسرة والمرأة، ومن كتب في علم الاجتماع والاقتصاد كتب عن المرأة المسلمة، وكذلك من كتب في عقائد الإسلام كاشنتيجليكر هرمان...

---

(١) تعقيبات على الاستشراق ـ ص ٣٣١.

وكلّ هذه الدراسات التي كانت المرأة المسلمة موضوعاً لها، جاءت بعيدة عن الموضوعية في أحيان كثيرة، فكانت إما هجوماً وتحريضاً، وإما وصفاً مغرضاً وتحليلاً أعرجاً.

فالذين كتبوا عن حياة محمد ـ ﷺ ـ ركزوا كثيراً على زواجه من نساء كثيرات، وتناولوا قضية زواجه من خديجة، وعائشة وذكروا حادثة الإفك بالكثير من التشويه والتحريف، وتناولوا قضية زواجه من زينب بنت جحش بكثير من الإثارة والخيال المريض، ولم يفوتوا الفرصة تصريحاً وتلميحاً من النيل من الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ ولعلهم يريدون من خلال حديثهم هذا الدخول إلى قلوب النساء المسلمات حتى ينجحوا في زعزعة ثقتهن بالإسلام، والوصول إلى أغراضهم المسطرة آنفاً، وهي الدخول إلى قلب المرأة المسلمة بواسطة تشويه صورة المرأة المسلمة التي أرادها لها الإسلام، وتشويه القدرة الحسنة للمرأة.

والذين كتبوا عن الحضارة الإسلامية لم يفوتوا الفرصة، ليتطرقوا إلى موضوع المرأة المسلمة، بموضوعية تارة وبتحريف أحياناً أخرى فهذا جاك ريسلر يخصص جزء من كتابه هذا للحديث عن الأسرة والمرأة المسلمة ونظام الحياة الاجتماعية.

وكذلك فعلت سغويد هونكه في كتابها: (شمس العرب تشرق على الغرب) وكتابها: (الله مختلف تماماً عما يصفون).

فقد تحدثت عن وضعية المرأة وعلاقتها بالرجل في المجتمع المسلم ونظام تعدد الزوجات وحقوق المرأة وواجباتها في الإسلام وغيرها.

ولم يفوت الفرصة المستشرق غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب للحديث عن المجتمع المسلم ووضعية المرأة المسلمة، وتعدد الزوجات ونساء الرسول ـ ﷺ ـ.

أما القواميس والموسوعات فمنها من خصص مواد للمرأة المسلمة،

تكون تارة بزوجات الرسول ـ ﷺ ـ وتارة تحت مادة إسلام وتارة أخرى تحت مادة أسماء أمهات المؤمنين (خديجة، عائشة، زينب...) فمثلاً ذكرت الموسوعة البريطانية شخصية الرسول ـ ﷺ ـ وأزواجه فذكرت زوجاته بكلمة: (Comcubines) أي: السراري والمحظيات.

هذا بعد إعادة النظر في الموسوعة من طرف رجال يعدون من ألمع الأساتذة الأمريكيين والبريطانيين.

وجاء في القاموس التاريخي الكبير الذي ألفه لويس موريدي (محمد نبي مزيف، عربي الموطن ولد عام ٥٧١م وفقاً للتقدير العام، فقد والديه وهو طفل وأقام عمه أبو طالب بتربيته، ودفعه الفقر ليخدم عند أحد تجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة «كاديج» لدرجة أنّه تزوجها وأصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته...).

وكتب ميشليه في كتابه «تاريخ فرنسا» عن الإسلام وأقحم موضوع الأسرة والمرأة فقال: (الإسلام يعني، «الله هو الله» إنّه دين التوحيد، وليختفي الإنسان وليختبىء الجسد... لا صور فيه ولا فن، لأن هذا الربّ يغار حتى من رموزه، إنّه يستحوذ على الإنسان، ولا بد له من أن يكتفي به، فالأسرة قد تهدمت تقريباً وكذلك القرابة والقبيلة... واختبأت المرأة في الحرمات، لقد سمح بأربع زوجات لكنه أقرّ المحظيات بلا عدد...).

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية التي أعدّها المستشرقون كلام كثير عن المرأة المسلمة، عبر مواد ذكر فيها الرسول ـ ﷺ ـ ومواد ذكرت فيها زوجاته بأسمائهن، ومواد إسلام وقرآن، وكذلك عند ذكر الكتب والمصادر التي تحدثت عن المرأة، وسنفصل ذلك أكثر في الفصول القادمة.

وهناك من خصص دراسات للمرأة المسلمة فقط وما يتعلق بالأسرة، ومن هذه النماذج فقد ألّف المستشرق كير تكامب المتوفي عام ١٩٥٦م

أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة أوترخت كتاباً بعنوان: (رسالة في الإسلام والمرأة) وكان ذلك عام **١٩٣٥**م.

ـ وألف بروخمان المولود عام **١٩٢٢**م الهولندي وأستاذ اللغة العربية بجامعة لندن كتاباً عنوانه: (الإرث في الشرع الإسلامي).

ـ وألّف شاخت جوزيف الألماني المتوفي عام **١٩٦٩**م كتابين في هذا الموضوع وهما الفقه الإسلامي وعلم الأحوال الشخصية وكتاب تحريم زواج الزاني والزانية في الشريعتين الإسلامية والمسيحية.

ـ كما ألّف نيوونهاوزه خريج جامعة لندن والمتخصص في علم الاجتماع ألف كتاباً بعنوان (المجتمع في الشرق الأوسط). وكتاب (العامة والأشرف).

ـ وللمستشرقة زيغريد هونكه كتاباً عنوانه: (الرجل والمرأة).

ـ وكتبت الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا كتاباً عن المرأة الأندلسية المسلمة وللكاتبة البريطانية «جانجودن» كتاباً صدر مؤخراً لها كتاباً عنوانه: (ثمن الشرف) باللغة الإنجليزية، تناولت فيه موضوع المرأة المسلمة وأوضاعها في خمس دول باكستان وأفغانستان والكويت ومصر والسعودية، وأخلط كثيرون تعاليم الإسلام والعادات الخاطئة والصادرة عن جهل بتعاليم الإسلام.

وكتبت مرجريت سميث كتباً عن المرأة المسلمة منها: (المرأة السودانية في مطلع الحياة) عام **١٩٢٤**م، وكتاب المرأة (الولية في عز الإسلام) عام **١٩٢٧**م (ورابعة العدوية المتصوفة) عام **١٩٣٠**م.

وكتبت مقالي مورسي كتاباً عنوانه (نساء النبي ـ ﷺ ـ) وخصصت لكل زوجة فصلاً تتحدث فيه عنها وكان عنوان كل فصل باسم الزوجة وزيادة صفة لها وهذه الصفات تبرز ما تُريده هذه الكاتبة من خلال التطرق إلى هذا الموضوع، والكتاب باللغة الفرنسية.

فكتبت: Khadidja: L'épouse maternelle. Aicha: La femme enfant.

وكتبت الصحفية جين الدين بروك كتاباً صدر عام **١٩٩٥** بعنوان (سعة أجزاء الرغبة: العالم الخفي للمرأة المسلمة والعنوان باللغة الإنجليزية (Nime parts of desire. The hidden world of islamic women. وهذا العنوان مشتق من مقولة لأحد رجال الدين الإيرانيين لمؤلفه (إن الله خلق عشر رغبات أودع تسعاً منها لدى المرأة).

هذه المؤلفة قضت أياماً طويلة بمصر وإيران، ومن خلال احتكاكها بالحياة العربية والمرأة، ألفت كتابها وهو مجموعة قصص، تطرح من خلالها الكاتبة قضايا كثيرة، من منظورها الخاص، حقوق المرأة، زواج المتعة وختان البنات وقتل الشرف، ونظام الزواج، والمهور وتدخل الولي في اختيار ابنته لزوجها وغيرها.

وللمستشرقة الأمريكية جوديت تكو كتابات عن المرأة المسلمة، فقد كتبت كتاباً بعنوان (الأسرة العربية في التاريخ) واتبعت نفس منهج سابقيها في التطرق إلى هذا الموضوع، فهي تزعم أن الإسلام يحرص على سيطرة الرجال على النساء من خلال عزل النساء ومنعهن من ممارسة حقوق الملكية، وترى هذه الباحثة أن الزوج في المجتمعات الإسلامية (لا يتم الدخول فيه من قبل بالغين برغبتهما بعد تعارف وحب بينهما، بل يتم ترتيب الزوجات لتناسب مصالح أو احتياجات عائلتي الزوجين ويجبر الشباب وبخاصة البنات على الزواج من الرجل الذي اختارته الأسرة).

وكتب جورج بوسكي كتاباً بعنوان (قيم الإسلام الجنسية)، ويقول عن هذا الكتاب الدكتور عبد الوهاب أبو حجية (وجدير بالملاحظة أيضاً أنّ أجيالاً وأجيالاً من الأوربيين اطلعوا على الإسلام وعلى حضارته من خلال هذا اللون من الدراسات التي طبعت عديد المرار وترجمت إلى كثير من اللغات، بما في ذلك اللغة العربية نفسها مثل كتاب جورج بوسكي «قيم

الإسلام الجنسية» وهو كتاب تداوله القراء طيلة ثلث قرن ونشر تحت إشراف أكبر أساتذة الغرب، ونقل إلى الإنجليزية والإسبانية والهولندية، وأصبح المدخل المفضل إن لم يكن الوحيد إلى قضية شائكة معقدة صعبة تتعلق بأخص خصائص حياة المسلمين، والتي لا يمكن لأي (أجنبي) أن يطلع عليها إلا بالممارسة الطويلة والبحث المستفيض ألا وهي قضية (الحياة الجنسية) إلا أن المؤلف يدعي سعة الاطلاع والمعرفة مستغلاً ما توصل إليه من دراسة لبعض أمهات كتب الفقه الإسلامي، فأصبح ينظر إليه وكأنه الخبير الاختصاصي العالمي للفقه الإسلامي... وأصبح هذا الكتاب بمثابة المرجع الأم للعديد من الاجتماعيين والسوسيولوجيين والسيكولوجيين والديمغرافيين فلا تكاد تجد باحثاً عربياً أو غربياً أو مسلماً يتطرق إلى هذا الموضوع دون أن يستند إلى هذا الكتاب غير متفطن دائماً إلى ما اختبأ في طياته من خرافات عن بطش المسلمين الجنسي وعنفهم الشهواني وانسياقهم للذة واندفاعهم في طلبها... ويرجع بوسكي كل ذلك إلى الفقه الإسلامي وإلى تعاليمه... فمن تحريف إلى تشويه ومن تشويه إلى هزل فتصبح الصورة المتداولة عن حضارتنا صورة كاركاتورية شنيعة للغاية)[1].

هذه نماذج من كتابات المستشرقين حول موضوع المرأة منفصلاً عن موضوعات أخرى كالتاريخ وعلم الاجتماع والسيرة النبوية...

ولم يؤلف الغرب دراسات وكتباً وموسوعات عن المرأة المسلمة فقط، بل كتبوا مقالات كثيرة في الصحف لا عدّ لها ولا حصر، إما مقالات قصيرة أو دراسات أو تحقيقات واستطلاعات في مختلف الصحف والمجلات والجرائد بمختلف اللغات وفي مختلف الدول من طرف رجال الكنيسة المبشرون أو اليهود أو اللائكيين، أو من طرف صحفيين وصحفيات

(١) مناهج المستشرقين جـ ٢ ـ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

من مختلف البلدان وبمختلف اللغات، وكلّ هذا يدل على تجند الاستشراق في إثارة قضية المرأة، وبمختلف الوسائل من كتابات أكاديمية ودراسات متخصصة مطولة إلى مقالات في إعلام المقروء والمسموع.

ومن أمثلة ذلك ما كتبته كلاوده ديفارجه وزميلها جورديان في صحيفة النجم الألمانية، وعنوانه الجنس الملعون، وهو كناية عن المرأة المسلمة وقد ورد هذا المقال محشواً بالأباطيل والأساطير والخرافات، ومليئاً بالحقد والافتراء والتحريف، ولا غرابة من كلّ هذا إذا عرفنا أنّ كَاتِبَيْ هذا المقال يهوديان ومما قاله هذان المستشرقان:

(العالم الإسلامي، نصف مليار من البشر، أكثر من نصف العدد هذا لا زالوا يعيشون كالعبيد، ألا وهم النساء، كل رجل يستطيع أن يتزوج أربعة وأن يملك ما شاء من الجواري، أما المرأة فعليها أن تبقى عفيفة طاهرة حتى الزواج، ووفية مخلصة حتى الموت، عليها أن تخفي كل جزء منها، وألا تري وجهها إلا لزوجها، وزلة منها تعني الموت...).

هكذا يلخص هذان المستشرقان في مقدمة مقالتهما هذه وضعية المرأة المسلمة وحقوقها بعبارات تدل على أنّ الإسلام ظلم المرأة وعاملها معاملة قاسية وسلبها حقوقها.

أما في موضوع المقال فالكلام كان أكثر تفصيلاً في الافتراء والتزوير ومما قالاه (إن المرأة محملة بالذنوب، خفيضة الشأن، بخسة، عقلها أقل من عقل الرجل ولهذا تبقى طيلة حياتها تحت وصايته... فلذلك فإنّ الله لا يجبرها على الصلاة وعلى زيارة المسجد، إنه يكفي أن تعبد الرجل، الذي هو الصلة بينها وبين ربها... إن دنس المرأة معد، وقابل الانتقال كوسخ الكلاب والخنازير ولا يسمح للرجل أن يلمسها، فإذا لمسها فعليه أن يتطهر ويغسل نفسه من قصة رأسه إلى أخمص قدميه، وبعد أن يتنظف من دنس المرأة، يحل له أن يصلي وأن يقف أمام وجه ربه، هذه ليست خرافات

مخترعة كاذبة، إنما صوّر بخطوط عريضة فقط طبيعة الحياة النفسية والأرض التي تعيش بها نساء العالم الإسلامي فيما بين مراكش وباكستان، ومركز هذا العالم هم العرب. . .)[1].

عندما قرأت هذه المقال لأول مرة ظننت أن هذين الكتابين يصفان المرأة في الديانة اليهودية والمسيحية المحرفتين طبعاً، ووضعيتها المزرية حقاً عند اليهود والنصارى إلا أنني عندما تتبعت قراءة المقال، وجدت القوم يسقطون معارفهم وأهواءهم ومرجعيتهم اليهودية على الإسلام والمرأة، ويزيدون الطينة بلة بقولهم: (هذه الأفكار صيغت من علماء الكتاب المسلمين، الذين يسمون بالعلماء وكما شرح آباء الكنيسة المسيحيون في الماضي الإنجيل، فكذلك تولى العلماء شرح القرآن، حتى يعطوا أولئك الذين لم يصيبوا حظاً وافراً من العلم، قواعد ثابتة في الحياة، وقد كانوا في تشريعهم مجحفين في حق المرأة، مفضلين للرجل، فجعلوا فضله ورفعة شأنه قانوناً إلهياً).

هكذا تخلط الأمور، وتربط التقاليد البالية والتصرفات المنحرفة الصادرة عن الجهلة والعصاة من المسلمين، قاعدة إسلامية وأن المرأة المسلمة ظلمها الإسلام وليس الجهل والتخلف والبعد عن تعاليم الدين الحنيف، وهكذا يشبه علماء الإسلام بعلماء الكنيسة الذين حرّفوا الكتب السماوية وأدخلوا في تعاليمها ما ليس منها، مع العلم أنّ علماء الإسلام يحرم في حقهم كلّ ذلك، بل هم مجتهدون وشارحون للكتاب والسنّة، قد يصيبون وقد يخطئوا، والأساس في تعاليم الإسلام الكتاب والسنّة والراجح من أقوال العلماء.

---

(١) هذا المقال نشر بالألمانية في جريدة النجم عام ١٩٦٥ ونشرته مجلة حضارة الإسلام مترجماً إلى العربية في عددها العاشر عام ١٩٦٦، وقد ردّ على هذا المقال علماء الأزهر بمقالات نشرت في مجلة الأزهر ومجلة لواء الإسلام.

هذه نماذج مختصرة عما كتبه ويكتبه المستشرقون عن المرأة المسلمة ولا يمكن تتبع هذا الكم الهائل من الإنتاج بمختلف اللغات ومن مختلف المؤسسات الجامعية والأكاديمية والإعلامية، إلا إذا تظافرت جهود الكثير من الباحثين، ويكفي أن نذكر بعضها لنعرفها كلّها، فقواعد ووسائل الاستشراق معروفة، وأسس الكلام عن المرأة المسلمة مبينة وواضحة في أي كتاب أو نص أو مقالة يمكن الاطلاع عليها.

وقد تناول الغرب والمستشرقون قضية المرأة المسلمة في العديد من المؤتمرات التي انعقدت في مختلف الدول وتحت مختلف الشعارات، سواء أكانت مؤتمرات دولية أو محلية. فمن بكين إلى المكسيك إلى أمريكا، إلى مصر إلى الجزائر إلى اليمن(*)، كلّها محطات لمؤتمرات وملتقيات، موضوعها المرأة المسلمة يحضرها الغرب والمستشرقون والكثير من يدور في فلكهم من بلاد الإسلام وقد يحضرها علماء مسلمون ومعتدلون يتدخلون ويدافعون ويردون، إلا أنّ الخط والهدف المسطر لهذه المؤتمرات والمتلقيات هو نزع ثقة المرأة المسلمة من نفسها وتشويه صورة الإسلام في حياتها، ومثل هذه الملتقيات والمؤتمرات إما أن ينظمها الغرب ويخطط لها، وإما أن ينظمها بعض أهل الشرق تحت وصاية الغرب فيحضرها الكثير منهم، ففي مؤتمر القاهرة مثلاً والذي انعقد خلال شهر أكتوبر عام **١٩٩٩** تحت عنوان: (مرور مائة عام على تحرير المرأة العربية) ومضمونه إعادة قراءة قاسم أمين ومن الذين حضروا المؤتمر وقدموا مداخله، باحثة أوربية «إيزابيلا كاميرا ذقنيفو» وعنوانها (لم بقي قاسم أمين مجهولاً في الغرب) فمداخلة هذه الباحثة تعني الكثير من خلال عنوانها وتساؤلها، وتبرز هدف

(*) لقد كتبت مقالة وتحدثت عن هذه المؤثرات والملتقيات ولخصت مضمونها تحت عنوان (عولمة الأسرة والنسائية الغربية) في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العدد ٨ و٩ شهر جويلية سنة ٢٠٠٠.

ومقصد المؤتمر، ولعلها تريد لفت أنظار الغرب إلى لعب ورقة قاسم أمين مرة أخرى، في مجال معركة الغرب مع الشرق، وخاصة المرأة المسلمة.

وفي مؤتمر اليمن الذي انعقد في شهر سبتمبر عام **١٩٩٩** تحت عنوان: (تحديات الدراسات النسوية في القرن الحادي والعشرين) تتدخل السفيرة الأمريكية باليمن لتتحدث عن العنف الذي يمارس ضد المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية وقالت: (لا بد أن نعترف بوجود عنف يمارس ضد المرأة العربية والإسلامية، ولا بد أن نشير إلى ذلك من أجل معالجته على مستوى المنظمات الدولية التي تعنى بحقوق المرأة).

هل جاءت هذه السفيرة المؤتمر لتشارك المرأة العربية همومها واضطهادها أم جاءت لتدعم خط المؤتمر الذي نظم تحت إشراف مركز الدراسات النسوي الذي راعته الولايات المتحدة وأنفقت عليه هولندا؟

أما المؤتمرات العالمية الكبرى كبكين والمكسيك والولايات المتحدة فلا يخفى على أحد أهدافها والمشاركون فيها والتوصيات التي خرجت بها، فقد كتب علماء الإسلام كثيراً عنها، وردوا في وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وخاصة فيما يخص التوصيات التي تتعارض مع مبادىء وتعاليم الشريعة الإسلامية... كما سبق ذكره هذه نماذج مختصرة ومنتقاة عن الدراسات الاستشراقية حول المرأة المسلمة، وكلّها تحمل نفس الهدف والمقصد وإن تعددت الوسائل ومظاهر النشاطات.

ويكفي أن نؤكد هذا التوجه أن نذكر حادثة روتها الدكتورة فاطمة هدى نجا وهي: (أنّ البروفسور أندرسون حدثني عن نفسه من أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نيل شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن لسبب واحد هو أنّه قدم أطروحته عن (حقوق المرأة في الإسلام) وقد برهن فيها على أنّ الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة، تقول: فعجبت من ذلك وسألت هذا المستشرق، وكيف أسقطته

ومنعته من نيل الدكتوراه لهذا السبب، وأنتم تدعون حرّية الفكر في جامعاتكم؟ قال: لأنّه كان يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا، والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعي، حتى يقول هذا الكلام، ويتكلم باسم الإسلام؟ إنّ آراءه في حقوق المرأة لم ينص عليها فقهاء الإسلام الأقدمون؟ فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادّعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعي).

تقول الدكتورة فاطمة: هذا هو كلام هذا المستشرق الذي لا يزال حياً يرزق وهو رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في العالم الإسلامي في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن)[1].

هذا ومن المسائل والمحاور الكبرى التي استوقفتني في الدراسات الاستشراقية عن المرأة المسلمة هي:

١ ـ زوجات الرسول ـ ﷺ ـ:

أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ قدوة المسلمات، لقد ذكرت أمهات المؤمنين في الكثير من الكتابات والدراسات الاستشراقية إما تفصيلاً وإما إيجازاً، وفي مختلف الموضوعات من تاريخ وسير عقائد وفقه وغيرها. ومن أمهات المؤمنين الأكثر تناولاً وهجوماً وعرضة للبعد عن الموضوعية والحقيقة حين تطرق إلى الكتابة عنها عائشة وزينب ـ رضي الله عنهما ـ وأقل منها خديجة ـ رضي الله عنها ـ وسودة.

٢ ـ نظام الأسرة في الإسلام:

وفي حديثهم عن نظام الأسرة، طبعاً يفصلون ويسهبون الكلام عن المرأة وحقوقها المهضومة، والهيمنة عليها وإذلالها وتزويجها صغيرة بدون

---

(١) انظر نور الإسلام وأباطيل الاستشراق ـ د/ فاطمة هدى نجا ـ دار الإيمان طرابلس ـ لبنان ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ ـ ص ٦٦ ـ ٦٧.

استشارتها، وأن المهر هو ثمن بيعها، وعدم مشاركتها لزوجها في الحياة الزوجية، وعدم مساواتها بالرجل وغيرها من الموضوعات... الخاصة بالأسرة.

٣ ـ تعدد الزوجات:

أكاد أجزم بأنّ كل الكتابات الاستشراقية حول المرأة المسلمة، والمجتمع العربي كلّها لم تغفل هذا الموضوع، بل أقحمته في معظم الدراسات بصفة مباشرة وغير مباشرة، تصريحاً وتلميحاً، ودائماً الحديث عن تعدد الزوجات يذكر حين يتكلمون عن الرسول ـ ﷺ ـ بصفة خاصة، وعند ذكر مسائل الفقه والأسرة بصفة عامة، وإن كان التفصيل والإطناب والإتيان بالشواهد والأدلة هو السمة الطاغية في هذا الموضوع، حتى يبرزوا ظلم الإسلام للمرأة، بتشريع التعدد.

٤ ـ الحجاب:

لباس المرأة جزء من شخصيتها والحجاب هو رمز للمرأة المسلمة، منذ نزول آيات الحجاب التي تنص على وجوب ستر المرأة المسلمة لجميع بدنها، إلا أنّ المستشرقين تناولوا هذا الموضوع بالكثير من الإثارة والنيل من كرامة المرأة ومبادئها. فتكلّموا كثيراً عن إعاقته لحريتها...

هذه هي المحاور الكبرى الخاصة بالمرأة المسلمة والفكر الاستشراقي. وتجدر الإشارة قبل التطرق إلى كلّ هذه المحاور بالبحث والتحليل إلى ما يلي:

● ـ لم يتناول موضوع المرأة المسلمة المستشرقون الرجال وحدهم، بل تصدت لهذا الموضوع بالدراسة نساء كثيرات، منهن الباحثات والأستاذات الجامعيات، ومنهن الصحفيات اللواتي ذهبن إلى الكثير من الدول الإسلامية، ليقمن بالتقريرات والاستطلاعات والإحصائيات ولعل تجنيد نساء مستشرقات

للتصدي إلى موضوع المرأة المسلمة بالدراسة جزء من البرنامج وأهداف الاستشراق.

● ـ عندما تناول المستشرقون موضوع المرأة المسلمة، كانت الدراسات إما استطلاعية أو إحصائية، أو أكاديمية، وقد اعتمد هؤلاء المستشرقون على مصادر استشراقية أو عربية إسلامية، وعند اعتمادهم على المصادر العربية، يعتمدون على كل ضعيف وشاذ وموضوع من الروايات أو يعتمدون على المصادر المشبوهة وغير المعتمدة عند علماء الإسلام بل حذروا منها ككتاب الأغاني، وكتاب ألف ليلة وليلة...

الفصل الثاني

الاستشراق النسائي

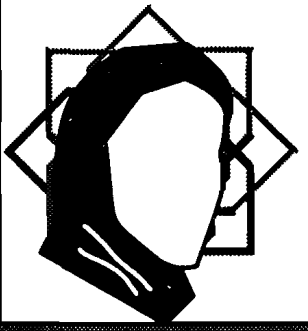

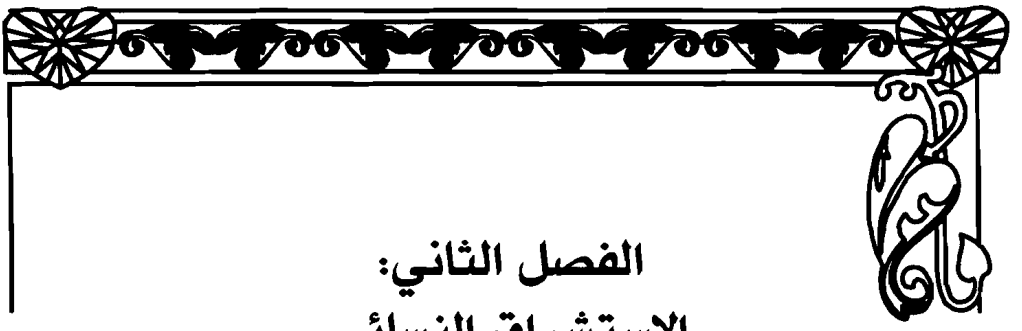

الفصل الثاني:
الاستشراق النسائي

إن الشرق بكل ما يحمله من معان ورموز، هفت إليه قلوب الباحثين الغربيين استكشافاً ودراسة وسيطرة وهيمنة، فلم يكن الاهتمام بالشرق حكراً على الرجال الذين يصطلح عليهم اسم «مستشرقين» من مختلف دول أوربا وأمريكا، بل تعداه إلى النساء. ونساء كثيرات استهوهن (الشرق الجذاب على نحو غريب) كما يعبر عنه إدورد السعيد.

فقد برزت الكثيرات من المستشرقات من مختلف الدول وخاصة فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإسبانيا وروسيا وهولندا وأمريكا حالياً.

وخاضت هذه النسوة في دراسة ومعرفة الشرق، بمختلف جوانبه، فمنهن من اهتمت بالتاريخ والعلوم، ومنهن من كانت ملّمة بكل هذه الجوانب مع تفاوت بينهن من حيث سعة الإطلاع وعدمه، والموضوعية والذاتية، ومن حيث التجرد من النزعة المسيحية أو اليهودية أو الاستعمارية وعدم التجرد منها.

فمنهن الدكتورة (ماریاخسوس بیغیرا) صاحبة كتاب (المرأة الأندلسية) وهي من أهم مؤرخي جامعة مدريد وأصدرت كتابها هذا سنة **١٩٨٩**م اهتمت فيه بتاريخ المرأة الأندلسية المسلمة والطفل في فترة سقوط غرناطة

أحد المعاقل الإسلامية في الأندلس عام **١٤٩٢** هـ وما عانته المرأة الموريسكية وما واجهتها من صعاب هددت كيان أسرتها وكفاحها المرير من أجل الحفاظ على هويتها الإسلامية (وهو كتاب قيّم له طابع اجتماعي تميز بالدقة والأمانة والموضوعية الشديدة التي اتسمت بها بوجه عام كتابات هذه المؤرخة الكبيرة)[١].

ـ **المستشرقة الروسية (فيراتشكوفسكايا)** ولدت عام **١٨٨٤**م.

وقد اهتمت بالمخطوطات وقدمت بحثاً أصيلاً عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن **١٦**م، وقد أثنى على بحثها كثيراً الأستاذ أمين الخولي)[٢].

ـ **الكاتبة البريطانية «جان جودن»** والتي صدر لها مؤخراً كتاب عنوانه (ثمن الشرف) باللغة الإنجليزية، تناولت فيه بالدراسة أوضاع المرأة المسلمة في خمس دول باكستان، أفغانستان، الكويت، مصر، والسعودية، وجاء كتابها خلطاً كبيراً بين تعاليم الإسلام السمحة والتطبيقات الخاطئة الصادرة على البشر، يجهلون هذه التعاليم تارة، ويتعمدون في مخالفتها تارة أخرى.

ـ الصحفية المراسلة لصحيفة (وول ستريت) جين الدين بروك من أصل أسترالي والفائزة بجائزة أحسن وأفضل مراسلة للصحيفة التي تعمل بها، لقد كتبت هذه الصحفية كتاباً صدر سنة **١٩٩٥** بعنوان (تسعة أجزاء الرغبة: العالم الخفي للمرأة المسلمة) وهو باللغة الإنجليزية nine parts of desire the hidden world of islamic women.

---

(١) ملخصة عن محاضرة تقدمت بها الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم ـ من جامعة الاسكندرية ـ لملتقى الاستشراق القراءة والخطاب ـ الذي انعقد في شهر أفريل ٢٠٠٠ بكلية الحضارة بوهران.

(٢) مجلة الشبان المسلمين ـ عدد ديسمبر ـ أمين الخولي.

الكتاب يتكون من اثنى عشر فصلاً ومقدمة وخاتمة، والسبب الدافع لتأليف هذا الكتاب إضاءة الجانب المعتم في حياة المرأة المسلمة، أما عنوانه فهو مشتق من مقولة لأحد رجال الدين الإيرانيين للمؤلفة (إن الله خلق عشر رغبات أودع تسعاً منها لدى المرأة).

والكتاب مجموعة قصص منتقاة تطرح من خلالها الكاتبة قضايا جادة وهامة. وقد قضت هذه الكاتبة أياماً وشهوراً كثيرة ـ في الشرق، وانتقت العينات التي أوردتها في كتابها من مصر وإيران كما تكلمت عن المرأة الباكستانية والتركية والأندونسية ـ فهي تقول (لقد ذهبت إلى الشرق من أجل البحث عن المغامرة وليس من أجل الاستماع إلى أكاذيب مملة في مكاتب بعض صغار المسؤولين عن الإعلام، لقد كان الحديث مع الناس العاديين هو هدفي...).

ومن القضايا التي طرحتها المؤلفة، وضعية المرأة الشرقية، المسلمة فقد لخصت المؤلفة هذه الوضعية في صورة الفتاة سارة خريجة الجامعة الأمريكية والتي وصفتها الكاتبة بصفات إيجابية تفصيلية عن شكلها ومستواها ولكن تقلبت الأحوال بالكاتبة وسببها سارة فتقول (لمدة عام كنت محتارة في عملي الجديد حتى جاء يوم فتحت لي سارة طريقاً جديداً للتفكير، لماذا؟ لأن سارة تغير شكلها ونوع لباسها في الأيام الأولى من رمضان (فقد أصبحت سارة محجبة ملامحها مختلفة، ملابسها تغيرت وجهها خال من المساحيق) تعلق الكاتبة على تحجب سارة (كنت أعتقد حتى هذا الوقت أن العودة إلى الإسلام هي اختيار المضطرين من الفقراء، ولكن سارة لم تكن فقيرة ولا مضطرة... قبول سارة بالحجاب يعني قبولاً بأن تكون نصف شاهدة، وأن تقبل حياة بيتية من حق زوجها فيها أن يضربها إن هي عصت أمراً من أوامره، ويمكن أن يشركها زوجها مع ثلاث زوجات أخريات، ويطلقها متى أراد، ويحتفظ بحضانة أولادها دون أن تحتج).

هذه مقتطفات عن حياة سارة كما تصورتها الكاتبة بعد تحجبها والتزامها بتعاليم الشرع. كما تناولت الكاتبة عينات أخرى من نساء مسلمات أخريات من إيران وغيرها.

من المسائل الفقهية التي أثارتها ختان البنات في مصر، وزواج المتعة في إيران، وقتل الشرف. وتكلمت عن قضية المهور الغالية وتدخل الولي في اختيار ابنته لزوجها.

ـ **المستشرقة يلنت آن (١٨٣٧ ـ ١٩١٧م)** كانت تتقن اللغة العربية مثل زوجها المستشرق ويلفويد بلنت، ومن أثارها «القبائل اليهودية في الفرات» في مجلدين، وكتاب «حج إلى نجد» في مجلدين و«سرقة الفرس»، وترجمة للمعلقات السبع[١].

ـ **المستشرقة مرجريت سميث**: اهتمت هذه المستشرقة بدراسات حول التصوف وكانت باحثة بجامعة كمودج وزارت المشرق ودور الكتب بالقاهرة والقدس ودمشق واسطنبول وصنفت كتباً عديدة منها: «متصوف بغداد: المحاسبي» لندن عام **(١٩٣٥م)**، **والمرأة السودانية في مطلع الحياة (١٩٢٤م)**، والمرأة الولية في الإسلام عام **(١٩٢٧ م)**، ورابعة العدوية المتصوفة **(١٩٣٠م)**[٢].

ومن الاستشراق النسائي الإيجابي: (إيفا لالماك ديمترار، وسغريد هونكه، وأنا ماري شيمل وغيرهن).

إن الاستشراق ليس كلّه شراً، وليس كلّه خيراً، فمن درس الإسلام بموضوعية وبعقل مستنير دون خلفيات صليبية حاقدة، أو استعمارية مدمرة، فإنّه يصل إلى النتيجة الإيجابية، وإلى الحقيقة التي يتوخاها كلّ باحث نزيه.

---

(١) المستشرقون نجيب عفيفي ـ جـ ٢ ـ ص ٦٤.

(٢) نفس المرجع ـ جـ ٢ ـ ص ٩٣.

إن هاته السيدات اهتمتا بالدراسات الشرقية، واحدة من فرنسا، والأخرى من ألمانيا، وكلهن حصلن على شهادة الدكتوراه. وكان الاهتمام موصلاً إلى الاعتراف بعظمة الإسلام وفضل المسلمين على الإنسانية والعالم كلّه.

«فإيفا لالمك ديمترار» الفرنسية، التي ألفت ٣٠ كتاباً عن الإسلام ورسوله، وبدأت رحلتها مع معرفة الإسلام عندما أهديت إليها محاضرات للشاعر محمد إقبال، وكانت المحاضرات مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، ومن هذه المحاضرات عرفت الطريق. وبدأت رحلة البحث في الإسلام، فقرأت كل ما كتبه الإمام الغزالي، وفلاسفة العرب، وبعد ذلك أسلمت، وقامت بأداء فريضة الحج، وزارت عدّة دول إسلامية، وألفت كتباً عن هذه الزيارات، فلها الفضل في دفع كل من يتحدث الفرنسية لقراءة ثلاثين كتاباً عن الإسلام، الدين العظيم، وعن رسوله ﷺ.

وكانت من بين الذين كرموا بمصر في السنوات الماضية على جهودهم القيّمة في نشر حقيقة الإسلام في العالم من خلال كتاباتهم.

أما الدكتورة الثانية، فهي غنية عن التعريف، إنها الألمانية «سجريد هونكه، صاحبة كتاب (شمس الله تشرق على الغرب)، وهو كتاب يدور حول تأثير العرب على أوربا والعالم. وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في ألمانيا عام ١٩٦٠م، وترجم إلى لغات كثيرة، بلغت ١٢ ترجمة، ووصلت نسخ الكتاب إلى أكثر من مليوني نسخة. وتقول: «لقد أردت أن أعرف الشعب الألماني، والشعوب الأوربية، بالحقيقة، إنهم يعتقدون أن الحضارة الغربية تمتد جذورها إلى اليونان والرومان فقط، وأن العرب كانوا مجرد وسيط ـ ساعي بريد ـ نقل لهم الحضارة القديمة، وقد برهنت في كتابي على الإنجازات الكبيرة للعرب في كل مجالات العلم والطب، وهي الإنجازات التي كانت سبباً في التقدم العلمي الذي حدث في الغرب».

كما ألفت كتباً كثيرة عن الإسلام والعرب، وكانت أطروحة الدكتوراه التي أعدتها سنة ١٩٥٥ عن «أثر الأدب العربي في الآداب الأوربية» ولها كتاب «الرجل والمرأة» وكتاب «الإيمان والمعرفة» و«الأدب الشرقي»...

لم تكتب الدكتوراه سجريد عن العلم والأدب، بل كتبت عن الحياة الاجتماعية للمسلمين، وقارنت بين وضع المرأة في الإسلام ووضعها في الغرب، فهي تقول مخاطبة الرجل الغربي:

«لو كتبت أنت لسيدة خطاباً وأنهيته (بالمخلص فلان) أو (بخادمك المطيع) فأنت تعترف بسيادة العرب، لأنك أخذت عنهم هذه الكلمات، ولم يكن أجدادك في الغرب يعرفون شيئاً منها، وأنت كلما انحنيت على يد سيدة لتقبلها لا تنس في تلك اللحظة أنك بهذا تمارس عادة عربية. وفي كل مكان تركع فيه أمام محبوبك لتعبر عن فيض مشاعرك، تذكر أنك تقتفي دون أن تدري أثر العشاق العرب وتصبح هذه اللغة وتلك الحركات وذلك الخضوع للمرأة طبيعة ثانية فينا كغربيين، تكفر عما تعودنا من خضوع المرأة للرجل، لتكفر عما ارتكبته من إثم».

وتنتقد ـ بشدة ـ الكنيسة، وتفرق بين علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وعلاقته بها في المجتمع الجرماني، الذي استقى أفكاره من الكنيسة، فتقول: (وتزلف الرجل للمرأة وخطبه لودّها، وتقديسه، سواء أكان هذا من باب الأدب في المجتمعات، أو كان عن حب صادق، فإنه لا يتفق مع أصول الحب في المجتمع الجرماني الذي كان يصبو إلى مساواة شاملة بين الرجل والمرأة، مع اعتداد كلّ منهما بنفسه وشخصيته المستقلة، وعارض الكتاب المقدس ذلك المسلك العربي، ونصّ أن الرجل سيد المرأة، ونشطت الكنيسة تحارب الأفكار المخالفة وتعمل كل ما في وسعها لإبقاء المرأة تحت سيطرة الرجل تبعاً لمشيئة الرب).

وتعترف الدكتورة سجريد بأن المرأة لم تكن مظلومة، في ظل الإسلام

زوجة أو أو أماً أو بنتاً وأن تعلم المرأة في الإسلام من الأمور المسلمة فتقول (ظلت المرأة في الإسلام، تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية، وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد، ويفسرن أحكام الدين، فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنال منهم تصريحاً لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة، كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات والناس لا تبدي في ذلك غضاضة أو خروجاً عن التقاليد).

فقد درست سجريد هونكه الإسلام عن علم ورويه وبكل موضوعية وأعجبت بتعاليمه السمحة وألفت كتباً كثيرة تعرف من خلالها الألمان والغرب ككل بحقيقة الإسلام الناصعة.

وقد صدر لها عام **١٩٨٩** كتاب (من تدهور الغرب إلى ظهور أوربا) تحول الوعي والرؤى المستقبلية تكلّمت فيه عن صورة الإنسان في الإسلام ومفهوم المحمديين وعن الأندلس وعن حريق مكتبة الإسكندرية، وسقوط العرب حضارياً عن طريق التأثير الأجنبي، كما تكلمت في هذا الكتاب عن المرأة المسلمة وعن النقاب والحريم والحب في الإسلام وغيرها.

وأحدث كتاب كتاباً لها هو (الله مختلف تماماً عما يصفون) وصدر عام **١٩٩٠** واتبعت فيه نفس المنهج الذي اتبعته في كتبها السابقة وهو الانتصار للإسلام وكشف حقائقه الناصعة للغرب، الذي يحمل أفكار مغلوطة وغير صحيحة عن الإسلام وأهله.

وهذه الكاتبة البريطانية (ايفلين كويلد) تعجب بالإسلام وتعاليمه فتقول (كنت طفلة عندما كان والدي يعيش في قصر عربي بالجزائر وكنت يومذاك كثيرة الرغبة في الذهاب إلى المسجد لأستمتع بما يغمره من حياة روحية لطيفة زاهية، ثم تناسيت مع الأيام بعد مغادرتي للجزائر صلاتي في المسجد، وذهبت الأيام بما كنت قد تعلمته من مبادىء اللغة العربية،

ورحت أقرأ عن الإسلام، وكلّما أمعنت في القراءة ازداد إيماني بأن الدين الإسلامي أكثر الأديان طواعية وعملية وقرباً إلى العقل، وأنّه الدين الوحيد الذي يستطيع تفسير النظم الحاضرة، والبلوغ بالإنسان إلى ما ينشده من طمأنينة وسلام وتضيف: (وقد زرت المسجد النبوي الشريف، ووقفت أمام القبر الطاهر مذهولة باكية من خشية الله، متأثرة بعبقرية هذا الرسول ـ ﷺ ـ الذي تحمّل الكثير في سبيل خير الإنسانية ولاحظت أن الناس لا يصلون باتجاه القبر النبوي، لأن محمد ـ ﷺ ـ منع الصلاة عند قبره، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد، لأن الصلاة إنما تكون لله وحده ـ جل جلاله ـ) وتعترف في الأخير بأن هذا الدين هو أفضل الأديان والملل (حقاً إن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء بطوعه فيما لو ترك لنفسه)[1]. وهذه الدكتورة (سنان رايتنسن) الهولندية لا تقل إعجاباً بالإسلام وتأثراً بمبادئه من (إيفلين كويلد) إذ تقول (إن اهتمامي بالأمور الدينية كان كبيراً منذ وصولي إلى الجامعة... وازداد اهتمامي بالإسلام حين كنت أدرس في جامعة (تجايكن) بهولندا علم تاريخ الشعوب، ولذلك اخترت لأطروحي لنيل الدكتوراه من جامعة كولونيا موضوعاً إسلامياً، وزرت الشرق مرتين في عام ١٩٦٥ و١٩٦٨ فازددت إعجاباً بما تعرفت عليه من تراث ثقافي وحضاري تأثرت به أكثر مما عرفت في الجو الأوروبي الثقافي، كما وجدت روحي في النهاية الطمأنينة التي بحثت عنها كثيراً).

وتضيف: (ورحت أتعمق في دراسة اللغة العربية، وفي قراءة القرآن فوجدت الإسلام قد استحوذ على عقلي وروحي معاً لأمرين:

١ ـ إن الإسلام يأخذ الإنسان على طبيعته وفطرته تماماً.

٢ ـ أنّه يحتوي على نظام كامل لكل النواحي الروحية والاجتماعية

---

(١) مجلة المنهل ـ العدد السنوي المتخصص (الاستشراق والمستشرقون).

وفيما يتعلق بالمرأة، فقد منحها الإسلام مركزاً مرموقاً، وهي في الأديان الأخرى أمة لا حق لها، ولذلك اعتنقت الإسلام لأنّه أعطاني حاجة الروح والعقل معاً، وهذه هي الحقيقة التي تجعلني أشعر الآن بأنني جزء من هذا العالم الذي أحبه عالم الإسلام)[1].

لقد جذب هذه الدكتورة الباحثة الإسلام وتعاليمه والنظام الاجتماعي ووضعية المرأة المسلمة، مع أنها عاشت في هولندا بلد الحرية إلا أنّها رأت في الإسلام الحرية الحقيقية وسدّ حاجة الروح والعقل معاً.

وهذه المستشرقة الإيطالية (مارتيلا مايكل انجلو) التي عاشت بمصر ثلاثة أشهر تقول عن الإسلام وتعاليمه: (بدأ تأثري بالإسلام عندما رأيت جماعة مسلمة تذهب إلى مسجد صغير، وتخلع أحذيتها عند بابه... وتصلي في صفوف خاشعة متواضعة، لقد شدّني بساطة المصلين في المسجد، وقد كانوا على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وملابسهم متساوين يؤدون الصلاة خاشعين، فكانت نفسي تحدثني بأن أكون مسلمة مثل هؤلاء.

وفي يوم آخر دخلت المسجد وتأملت الناس، فرأيتهم طيبين أتقياء بلا لف ولا دوران، وقد كرهت المظاهر المادية، وأصابني السأم من الزخرفة والطلاء الذي ليس وراءه شيء لقد وجدت في الإسلام المنطق والعقل، ووجدت المسلمين يؤمنون بالله ورسوله، الذي هو بشر مثلهم اختاره الله لينقل رسالة الإيمان إلى الناس ويتلو عليهم كتابه الذي هو دستور الحياة ينظم شؤونهم بحيث يعيشون في تعاون وسعادة وبساطة وبلا مظاهر كاذبة)[2].

---

(١) مجلة المنهل ـ العدد السنوي المتخصص (الاستشراق والمستشرقون).
(٢) نفس المرجع.

إن المستشرقة الألمانية آنا ماري الشمل غنية عن التعريف وهي التي تمثل نموذجاً مشرقاً للاستشراق. وقد عاشت أمداً طويلاً بين المسلمين في تركيا خاصة. ترقب سلوكياتهم وحياتهم وتنقب تراثهم وآدابهم. هذه المستشرقة التي ولدت في العشرينات وتعلمت اللغة العربية في سن مبكرة وعملت أستاذة لتاريخ الأديان المقارن والفن الإسلامي بكلية أصول الدين بتركيا وكان التدريس باللغة التركية. كما عملت لمدة خمسة وعشرون عاماً كأستاذة لمادة الإسلام في الهند.

بجامعة هارفارد بأمريكا وكان إنتاجها العلمي غزيراً جداً وخاصة عن الشرق، ومن مؤلفاتها: رسالة الدكتوراه وكانت في موضوع (الخليفة والقاضي في مصر في القرون الوسطى المتأخرة ونالت هذه الشهادة سنة **١٩٤٣**م).

- سيرة المتصوف ابن خفيف الشيرازي سنة **١٩٥٥**م.
- ترجمة كتاب الخلود لمحمد إقبال سنة **١٩٥٧**م.
- البنية الاجتماعية لطبقة العسكريين في عصر المماليك سنة **١٩٤٦**م.
- كتاب عن حياة محمد إقبال عنوانه جناح جبريل سنة **١٩٦٣**م.
- الحلاج شهيد الحب الإلهي الحياة والأسطورة سنة **١٩٦٨**م.
- فن الخط الإسلامي سنة **١٩٧٠**م.
- أبعاد التصوف الإسلامي سنة **١٩٧٤**م باللغة الإنجليزية.
- يوم ربيعي في مدينة فونيا مع جلال الدين الرومي سنة **١٩٧٥**م.
- رسالة المشرق وهي منتخبات ألمانية عن أعمال محمد إقبال الكاملة سنة **١٩٧٧**م.
- الشمس الظافرة دراسة عن الجلال الدين الرومي سنة **١٩٧٨**م.
- كتاب في التصوف بعنوان وكأنه من خلال الحجاب سنة **١٩٨٠**م.

ـ محمد ﷺ رسول الله ١٩٨١م باللغة الألمانية وفي سنة ١٩٨٥م باللغة الإنجليزية.

ـ حدائق المعرفة سنة ١٩٨٢م.

ـ الإسلام في شبه القارة الهندية سنة ١٩٨٢م.

ـ القطة الشرقية سنة ١٩٨٣م.

ـ النجم والزهرة عالم المجازات في الشعر الفارسي ١٩٨٤م.

ـ الأسماء الإسلامية (وهي دراسة تبين الخلفيات الدينية والثقافية لطريقة اختيار الأسماء في الإسلام وفيه فصل لأسماء الإناث) سنة ١٩٨٩م ونشر سنة ١٩٩٣م باللغة الإنجليزية بعنوان (من علي إلى الزهراء الأسماء واختيارها في العالم الإسلامي).

ـ إن الله جميل يحب الجمال سنة ١٩٩٤م.

هذه أهم كتب هذه المستشرقة إضافة إلى مئات المقالات التي نشرتها عن الشرق وأحواله وقد كتبت باللغة الألمانية والإنجليزية والتركية وترجمت من العربية إلى الألمانية عدة كتب ومصنفات في الفلسفة الإسلامية والتصوف والشعر (٢٢).

ورغم أنها لم تصنف كتاباً عن المرأة الشرقية إلا أنها كانت تبدي آراء صريحة وواضحة عن المرأة والأسرة في الشرق. فقد أجرى معها الأستاذ ثابت عيد حواراً عن رأيها في المرأة الشرقية حيث الغرب يرى أن المرأة مضطهدة في الإسلام.

وقالت مجيبة عن سؤال: (يدعي الكثير من الغربيين أن الإسلام اضطهد المرأة ما حكمك على هذا الادعاء) قالت: (هذه بالطبع فكرة خاطئة تحوم في العالم الغربي منذ عقود بل منذ قرون طويلة والأكثر من ذلك إن

هناك من الغربيين من يعتقد بأن المرأة في الإسلام هي كائن بلا روح ولا نفس ولدحض هذه الزعم الكاذبة ليس علينا إلا الرجوع إلى القرآن الكريم لنرى كيف ساوى الإسلام بين المؤمنين والمؤمنات وبين المسلمين والمسلمات ولم يفرق بين الذكر والأنثى في مجال الفرائض الدينية وقد يكون مصدر هذا الادعاء هو وجود بعض التقصيرات الظاهرية في حقوق المرأة في القرآن مثل ميراث البنت الذي لا يزيد عن نصف ميراث الابن بيد أن ذلك له سبب عملي حيث يفترض بطبيعة الحال حصولها على مهر مناسب عند زواجها وإن زوجها هو الذي يعولها).

وقالت في مسألة تعدد الزوجات: (وهناك أيضاً مشكلة تعدد الزوجات والمشار إليها في القرآن الكريم: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]. وهذا ليس أمراً أو فرضاً ولكنه إذن وسماح قد أعطي للمسلمين في وقت الحرب وحينما ترملت مسلمات كثيرات بفقدانهن أزواجهن في المعارك والغزوات وفضلاً عن ذلك فالرجل في الجاهلية كان يحق له إن يتزوج بعدد غير محدود من النساء حتى جاء الإسلام وحدد عدد الزوجات بأربع وكذلك فقد اشترط الإسلام على الرجل إن يعدل بين الزوجات ولا يميز أو يفضل إحداهن على الأخرى هذا الذي جعل زعماء الإصلاح في الإسلام يشيرون إلى أن نظام الزوجة الواحدة أفضل من تعدد الزوجات.

وفي موضوع الحجاب بعد إيراد الآية ٣١ من سورة النور قالت: (والمشكلة هنا لا يوجد اتفاق أو إجماع على تحديد المقصود بلفظ الزينة بيد أن الحجاب أو غطاء الرأس كان الهدف الأصلي منه حماية وتمييز نساء الرسول ﷺ وحرائر المؤمنين عن الإماء والجواري لأن الجواري والإماء وغيرهن من نساء الطبقات المتواضعة كن لا يرتدن إلا أخف الثياب ومع مرور الوقت وبتأثير الحضارة الفرضية بالذات تم فرض الحجاب والتغطية

الشاملة على المرأة. . . ولكن القرآن لم يأمر مطلقاً بعزل المرأة أو إبعادها على أنشطة المجتمع).

وقالت مخاطبة الغرب ومصححة لمفاهيمه الخاطئة عن المرأة: (إنني أقول دائماً للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام إن الإسلام قد منح المرأة حق الاحتفاظ بما كانت تملكه قبل زواجها وكذلك بما تكسبه أثناء زواجها وهذا يتضمن إن لها الحق في ممارسة أي مهنة أو تجارة. والمرأة في أوروبا لم تتوصل لحق الاحتفاظ بما تملكه بعد زواجها إلا منذ وقت قريب).

وأما عن المساواة بين المرأة والرجل في الإسلام فتقول: (وما يثير إعجابي بصورة خاصة كمؤرخة أديان هو الآية ١٨٧ من سورة البقرة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ واللباس هنا يعني الذات الأخرى أو النفس الأخرى وبذلك يكون معنى هذه الآية إن الرجل والمرأة يكمل بعضهما بعضاً وإن كلاهما هو النصف الأفضل للآخر واعتقد أنه ينبغي تسليط المزيد من الضوء على هذه الآية عند الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام لأن هذه الآية تسوي بالفعل بين الرجل والمرأة) هذه بعض آراء المستشرقة الألمانية آنا ماري الشمل في موضوع المرأة والأسرة في الإسلام والمساواة، تعدد الزوجات، الحجاب حقوق المرأة وغيرها[1].

وهذه باحثة أخرى من أمريكا، تدرس بالأزهر الشريف علوم الشريعة واسمها (فرجينيا هنري) تقول (لقد أسلمت أنا وزوجي ـ وقد سمت نفسها عائشة عبدالله وزوجها تيدور ايفان سمى نفسه قارض رحمة الله ـ تقول: أسلمت أنا وزوجي على يد إمام مسجد نيويورك وقدمنا إلى القاهرة، وقد تبين لنا أن الحياة في أمريكا مثل جهنم التي وصفوها لنا في الكتب المقدسة

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب آنا ماري يشمل نموذج مشرق للاستشراق ـ ترجمة ثابت عيد تقديم محمد عمارة دار الرشاد القاهرة، ص٦٥ ـ ٦٦ ـ ٨٥.

ففي أمريكا تتوفر جميع أسباب الحياة المترفة، ولكن ينقصها الكثير من الأخلاقيات. . . إننا نملك كلّ أسباب الحياة العصرية في أمريكا، ولنا منزل جميل ودخل محترم، ولكن الحياة مع ذلك أصبحت مثل جهنم تماماً، وبعد أن ننهي دراستنا الإسلامية في الأزهر سنذهب إلى فنزويلا ـ بلد زوجي الأصلي ـ وسنبني مسجداً ونبدأ الدعوة إلى الإسلام).

هذه نماذج على سبيل المثال لا الحصر، عن نساء مستشرقات باحثات، لها قدر كبير من العلم والتحكم في المناهج، ولكنهن درسن الإسلام دون خلفية تنصيرية أو كراهية للعرب والإسلام فكان هذا هو موقفهن من الإسلام، ورأيهن بكل شجاعة وموضوعية عن الشرق وأهله وحضارته.

الفصل الثالث

المستشرقون والمصادر العربية

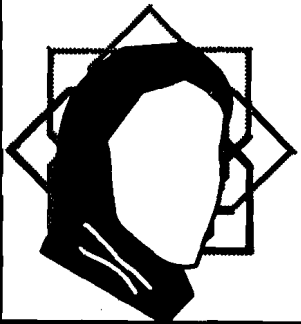

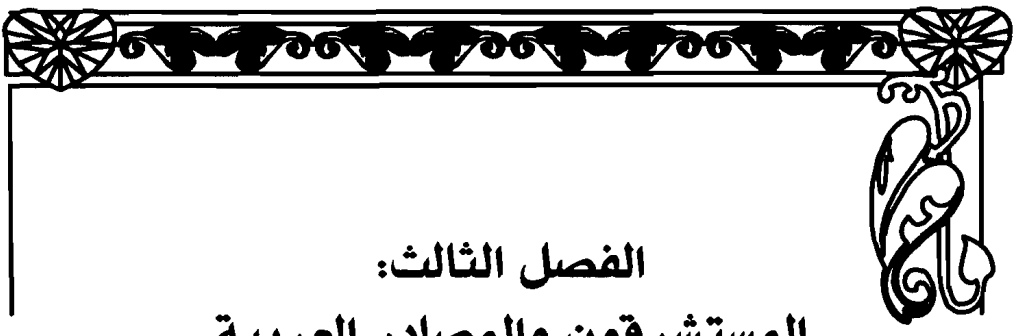

الفصل الثالث:
المستشرقون والمصادر العربية

لقد توسع المستشرقون في العناية بالمصادر العربية الإسلامية في مختلف التخصصات من فقه وعقيدة وتاريخ وسير وتفسير وحديث، كما أنّهم حققوا الكثير منها، ووضعوا لها الفهارس المهمة إلا أنّهم في بحوثهم ودراساتهم للمجتمع المسلم والأسرة والمرأة والمسلمة، يعتمدون كثيراً على الكتب المشبوهة، ويتركون الكتب الصحيحة المعتمدة الرواية والمتن، وإن اعتمدوا على الكتب الموثوقة، فإنهم يتخيرون الأسانيد والروايات الضعيفة. ومن ذلك:

۞ كتاب ألف ليلة وليلة:

هذا الكتاب الذي يحتوي على مجموعة قصص، لمؤلف مجهول، كان محل اهتمام كبير من طرف المستشرقين وروجوا له كثيراً، حتى فشى في كلّ أنحاء العالم الإسلامي والمتتبع لعدد الطبعات والدراسات التي أعدت حول قصص ألف ليلة وليلة، والبحوث يدرك أنّها زادهم، ومصدر دراساتهم للمجتمع المسلم والمرأة المسلمة.

لقد جعلوا هذه الخرافات والأقاصيص هي الصورة الحقيقية للمجتمعات الإسلامية، لقد قال ريتشارد بيرثون في مقدمة الكتاب الذي اهتم

بترجمته إلى الانجليزية (إنه إنّما يتعرف مواطنوه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية لحكم المسلمين الواقعين ضمن إمبراطوريتهم).

يقول غوستاف لوبون في هذا الكتاب (تعد رواية ألف ليلة وليلة الباهرة، أكثر القصص العربية شهرة لا ريب، واختلف كثيراً في مصدرها ويظهر من الثابت اليوم أنّها مجموعة قطع وضعت في أزمنة مختلفة جداً، وأن بعضها وضع قبل القرن العاشر من الميلاد، لذكرها في كتاب مروج الذهب، الذي ألفه المسعودي في ذلك الزمن، ونجد في هذه الرواية قصصاً من أصل هندوسي وفارسي ولكن أكثرها ألفه عرب مصر فيما بين القرن ١٣ و ١٥م).

وذكر أستاذ اللغات الشرقية في هيدليرغ، مسيوقيل، وذلك في مقدمة الطبعة الألمانية لرواية ألف ليلة وليلة وفق النص الشرقي، أنّه لا يجوز الشك في أنّ أكثر هذه القصص فيها عربي، وأن ما فيها من أصل عربي يختلف كثيراً عما فيها من أصل هندوسي بارز في المجموعة المعروفة بذلك الاسم أيضاً في القرون الأولى من الإسلام).

وبعد هذا الجزم بأن ألف ليلة وليلة كتاب عربي عند المستشرقين يضيف لوبون (وأضيف إلى ما فيها من متعة، ما في قراءتها من فائدة، فيها ينال القارىء معارف صحيحة عن طبائع العرب ومشاعرهم ووجه تفكيرهم...).

إذن هذا جزم بأن ما في ألف ليلة وليلة من قصص هو صحيح وهي مصدر للحياة الاجتماعية عند المسلمين بالنسبة للمستشرقين.

ويعتبر (أنطوان غالان) المستشرق الفرنسي مترجم كتاب ألف ليلة وليلة عام ١٧٠٤م ترجمته لهذا الكتاب فيها فائدة كبيرة للقارىء الغربي، وأنّه

ترجم هذا الكتاب ليلائم ذوق قارئه، وأنّه ركزّ على صور الرفاهية والترف، كما أنّه عمد إلى رسم ما أسماه (صورة الشرق الحيواني).

كما أفردوا لهذا الكتاب ٣٥ صفحة في دائرة معارفهم[١]، ونحو عشرين من عتاهم وأعلامهم أصدروا أبحاثاً ودراسات حولها، وترجمات وتعليقات، وتأثراً بهذا الاتجاه اعتبر الكثير من الباحثين العرب والمسلمين أن هذا الكتاب هو أهم كتاب في التراث الأدبي وللعرب والمسلمين.

فقد كتب الأستاذ أحمد بهجت في صحيفة الأهرام (على لسان والد طالبة في كلية الآداب جامعة القاهرة، يشكو من تكليف ابنته بدراستها، واطلاعها على ما في هذا الكتاب من فحش يخدش الحياء ويرجو (فقط) أن تتاح لأبنائنا طبعة (مهذبة) خالية من هذه الألفاظ. إلى هنا والأمر طبيعي لا شيء فيه، لكن الذي يلفت الانتباه أن الأستاذ الجامعي الذي أمر طلابه بهذا ثار وهاج وسب وشتم، واتهم من يحول بين (الطالبات) وبين هذه (الألف ليلة وليلة) بكل ما فيها وجعله جاهلاً بالتراث، ولا يدري ما معناه وما قيمته؟).

فأي تراث يمثله كتاب ألف ليلة وليلة، فهو مجهول المؤلف وما فيه لا يمت بصلة للمجتمع المسلم وقيم الحياء والعفة ولو كان كتاباً موثوقاً وصالحاً لما اهتم به الغرب كلّ هذا الاهتمام.

لقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أنّ هذا الكتاب هو مجموعة قصص ذات أصل فارسي وترجمت إلى العربية والعنوان الفارسي هو (الهزار أفسان) أي ألف خرافة، وقد نقلت هذه القصص الشعبية إلى العربية في القرن الثالث الهجري ويصفه ابن النديم بأنّه كتاب الحماقة والسيئات.

ويقول الأستاذ أنور الجندي (كتاب ألف ليلة وليلة هو كتاب لقيط

---

(١) في دائرة معارفهم - ج ٢ - من ص ٥١٨ إلى ص ٥٥٤.

وملفق ولا مؤلف له، وقد جمع من عصور مختلفة، وأغلب ما فيه مما يصوّر البيئات الاجتماعية قبل الإسلام في فارس والهند وغيرها من البلاد الوثنية. ومن هنا كانت خطورة المحاولات المتعددة التي جرت وتجري لاعتبار القصص التي يضمنه ممثلاً لحياة المسلمين بصفة عامة، بينما تكشف أقلّ مراجعة لمصادر ألف ليلة وليلة عن أنّه تراث إيراني هندي سابق للإسلام، وأنّه لا يمثل بحال صورة المجتمع الإسلامي العربي أو مفاهيم الفكر الإسلامي).

هذه آراء بعض العلماء المسلمين في كتاب ألف ليلة وليلة الذي يعتبره المستشرقون مصدراً تاريخياً مهماً وبالأحرى أحسن كتاب تاريخ يصوّر الحياة الاجتماعية العربية والإسلامية.

فصورة المرأة التي رسمها كتاب ألف ليلة وليلة هي ليست قطعاً صورة المرأة المسلمة، فهي فعلها ليست أداة للجنس ومصدراً للرغبات الحسية والشهوات كما يصوّرها هذا الكتاب.

۞ كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ت ٣٥٨ هـ:

لقد نال هذا الكتاب حظاً كبيراً عند المستشرقين، واعتبروه أهم مصدر يرجع إليه عند الكلام عن المجتمع وتاريخ الإسلام وأهله، كما أنه صار عمدة في تقييم التاريخ الإسلامي، وجل حجج المستشرقين البالغة، هذه القصص والحكايات المذكورة في هذا الكتاب.

ورغم أن هذا الكتاب هو كتاب أدب وشعر وليس كتاب تاريخ بالمعنى الاصطلاحي إلا أن المشترقين جعلوه أهمّ مصدر في التاريخ الإسلامي. فالأصفهاني كتب كتابه هذا للوزير أبي الحسن محمد بن الحسن المهلبي، لينال حُظْوه عند بني بويه، ولقد فضح أعلام الإسلام هذا الكتاب وبيّنوا

خطورته وضعف أسانيده وكثرة الكذب والافتراء الموجود فيه قال فيه ابن الجوزي (كان يتشيع ومثله لا يوثق بروايته...)[1].

وفيه الإمام الذهبي: (كذّاب يأتي بالعجائب والغرائب بحدّثنا وأنبأنا)[2].

وقال فيه الخطيب البغدادي، «... كان أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين، وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلّها منها»[3].

فهذا يدل على أنّ أبا الفرج الأصبهاني لم يتلق العلم والأخبار من الرجال بسند، كما هو جار في ذلك الزمان، وإنما كان ينقل من الكتب الغث والسمين، الصحيح والموضوع والضعيف دون تمحيص، وهنا يكمن الخطر والتشويه للحقائق.

وقال عنه ابن كثير (مثله لا يوثق بروايته، يصرّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوّن شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه)[4].

كما ذمّه ابن تيمية فقد قال الذهبي (رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله، ويستهول ما يأتي به...).

قد يسأل سائل لماذا كلّ هذا الكلام عن أبي فرج وكتابه الأغاني مع أنّه حريص على الإسناد ولا ينقل رواية إلا بإيراد سندها.

هذا صحيح وملاحظ كثيراً في كتابه، إلا أن السند لا يدل دائماً على صحة القول، فقد أورد الكثيرون أحاديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ ولكنها موضوعة مع وجود السند.

---

(١) المنتظم ـ ابن الجوزي ـ جـ ٦ ص ٤٠ ـ ٤١.
(٢) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ـ جـ ٦ ـ ص ٢٢٣.
(٣) تاريخ بغداد جـ ١١ ص ٣٩٩.
(٤) البداية والنهاية، جـ ١١ ص ٢٨٠.

واتهام العلماء الثقات أبا فرج بالكذب، فهذا يعني أنه نقل مروياته عن الكذابين ولو كان السند متصلاً.

ونقل الكثير من العلماء عليه لا يعني أنه من الثقات، وذلك لأن العلماء قد نقلوا في كتبهم الكثير من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والضعيفة أو كثيرها بأنفسهم، ولكن حقق العلماء فيها وبينوا الخطأ والصواب وقد أعجبتني كثيراً دراسة معاصرة حول هذا الكتاب وهي موضوعية إلى حد كبير للأستاذ وليد الأعظمي في كتابه (السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني).

فقد تكلم الأستاذ عن ترجمة الأصفهاني وأقوال العلماء فيه، وعرّف بالرواة الكذابين الذين روى عنهم، كما عرّف بكتاب الأغاني وبسبب تأليفه ومصادره، وآراء العلماء فيه، وأورد نماذج من أخبار موضوعة وضعيفة عن الرسول ـ ﷺ ـ وأهل بيته وصحابته، والتي هي كثيرة في هذا الكتاب ويقول الأستاذ الأعظمي في مقدمة كتابه:

(من هنا بدأت أنظر إلى كتاب الأغاني نظرة جديدة، ورجعت إلى كتب التضعيف والتوثيق، والجرح والتعديل، فوجدت الأصفهاني رجلاً غير مأمون، ولا يوثق به عند علمائنا الأجلاء، المدققين الممحصين، وسلخت من عمري سنتين كاملين متفرغاً لكتاب (الأغاني) أتملى نصوصه وأقواله، وأقف عند كل خبر من أخباره حتى فليت سطوره وكلماته، واستخرجت القملة من بين شعراته واصطبرت عليه اصطبار المجاهدين المرابطين في الثغور، فرأيت نيران الشعوبية والحقد وهي تغلي في الصدور كغلي القدور... فشمرت على ساعد الجد لأميز الهزل من الجد، والسّم من الشهد... ورحت أفحص رجال السند الذين روى عنهم الأصفهاني، وبحثت عنهم في كتب نقد الرجال، وقرأت ما جاء فيهم من أقوال، فوجدت فيهم كل داهية دهياء، وبليّة سوداء عمياء من الكذابين والمجروحين

والمطعون فيهم... وإذا كان أولئك الرواة يكذبون في رواية الحديث النبوي الشريف، فكيف بهم في أخبار الناس...).

هذا ما قاله العلماء المحققون في أبي فرج الأصفهاني وكتابه الأغاني إلا أن المستشرقين تشبثوا بهذا الكتاب تشبثاً عجيباً ولعل هذا شأنهم مع كلّ ضعيف ومفتر على الإسلام وأهله.

وقد ذكر الأستاذ شوقي أبو خليل أنّ فيليب حتى[1] وهو عالم شهير اتبع منهج المستشرقين وتأثر بهم تأثراً كبيراً، يقول عنه شوقي أبو خليل وعن كتابه الذي ألفه في تاريخ العرب والمسلمين، (أنّه اعتمد في كتابة تاريخه هذا على المصادر التي كان يعتمدها المستشرقون وهي كتاب ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني، ووصفه بأنّه لم يكن موضوعياً في كتابة تاريخه).

ومن المستشرقين الذين أثنوا كثيراً على كتاب الأغاني (مونتجو ميري) حيث قال (ووضع أبو فرج الأصفهاني كتاباً في التاريخ الأدبي ضمنه مختارات من الشعر القديم والحديث، وهو كتاب الأغاني، إنّه تاريخ منتجات من آثار كبار الشعراء، مع مادة قصصية)[2].

وهذا الكتاب هو مصدر المستشرقين في كلّ أبحاثهم فلم ينقلوا منه فقط مسائل الأدب والمرأة، بل كذلك مسائل الحديث يقول الدكتور العروي (بما أن جولد زيهر لم يفهم منطق الحديث، فإنه لم ينتبه إلى أنّه حوّل مادته إلى مجموعة معلومات تاريخية لا فرق بينها وبين سائر المعلومات. يظن أنّه يتكلم عن الحديث من حيث أنّه يتكلم عن الآداب ويحتج بكتاب الأغاني على كتب السنة)[3].

---

(١) انظر كتاب موضوعية فيليب حتى في كتابه التاريخ ـ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ ط ١ ـ ١٩٨٥م.

(٢) محمد في مكة ـ ص ٣٠٦.

(٣) مفهوم التاريخ ـ عبدالله العروي ـ جـ ١ ـ الألفاظ والمزاعم ـ المركز الثقافي العربي ـ ط ٣ ـ ١٩٩٧ ص ـ ٢١٨.

۞ تفسير الرازي:

ومن الأخبار الضعيفة التي لا تستند على دليل صحيح، ووجدت عند المفسرين المعروفين، والتي من شأنها أن تكون مرجعاً هاماً للمستشرقين وضعاف النفوس والباثين للسموم ما قاله الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا. . .﴾ [الروم: ٢١].

يقول الإمام الرازي في تفسيره هذه الآية (خلق لكم، دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩]. وهذا يقتضي ألا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف، وتقول خلق النساء من النعم علينا وخلقن لنا، وتكليفهن لإتمام النعمة علينا، لا لتوجيه التكليف نحوهن، مثل توجيهه إلينا، وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى، أما النقل فهذا وغيره، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلّف بها الرجل، وأمّا المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق، سخيفة فشابهت الصبي، لكن الصبي لم يكلّف فكان يناسب ألا تؤهل المرأة للتكليف، لكن النعمة علينا ما كانت لتتم إلا بتكليفهن، لتخاف كلّ واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج، وتمتنع عن المحرّم، ولولا ذلك لظهر الفساد)[1].

عجيبة هذه المقالة، وهذا الفهم الغريب للآية القرآنية، والذي ينافي كل النصوص الصريحة والصحيحة للكتاب والسنة فإخراج المرأة من دائرة الاستخلاف والمساواة في الإنسانية والتكليف والثواب والعقاب أمر لا يستصاغ من مفسر كبير كالرازي. ولما كان المستشرقون يبحثون كثيراً عن مثل هذه النصوص، فلم يبخل عليهم الكثير من العلماء ـ مع الأسف ـ بهذه النصوص الضعيفة والغريبة عن النصوص الصحيحة، ورغم أن النص القرآني

---

(١) تفسير الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٥ ـ مج ١٣ ص ١١١.

صريح في إثبات التكليف والثواب يوم القيامة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فقد اجتهد بعض العلماء (اجتهاداً خاطئاً) في إثبات أنّ الذين يرون ربهم في الجنّة هم المؤمنون من الرجال دون النساء، وقد أفرد السيوطي لذلك رسالة خاصة أسماها (إسبال الكساء على النساء).

إن قراءة كتاب الله والتأني في تصفح كتب الصحاح من السنة القولية والفعلية، والاطلاع على كتب الفقه والأصول الصحيحة ينبىء برؤية مختلفة ومنزلة أعلى بكثير من منزلة هذه الاجتهادات التي تضيق واسعاً وتشوه صورة الإسلام والمرأة في أذهان المسلمين وغيرهم.

ويقول محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ: (إن معظم الذين كتبوا ويكتبون عن الإسلام تعوزهم المعاناة الدائمة والحس الصادق والعقل الراجح، والاطلاع الواسع وحسن الفقه لمعركة الإسلام وخصومه)[1].

۞ تفسير الطبري:

من الأخبار الضعيفة والتي استغلها المستشرقون ما أورده الطبري في تفسيره من نصوص وروايات حول تفسير قوله الآية من سورة الأحزاب إذ يقول: (إن النبي ـ ﷺ ـ أتى بيت زيد فرأى زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً، فلما نظر إليها قال: «**سبحان خالق النور، تبارك الله أحسن الخالقين**»، فرجع فلما جاء زيد أخبرته الخبر، فقال لها: لعلك وقعت في قلب النبي ـ ﷺ ـ فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك، فقلت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني: فجاء زيد إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: أريد أن أطلق زينب فأجابه بقوله: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»)[2].

هذا من بين الأخبار الساقطة الكثيرة التي وردت في تفسير الطبري

---

(١) هموم داعية ـ محمد الغزالي ـ دار الشهاب ـ باتنة ١٤٠٢ هـ ص ١٠٦.

(٢) تفسير الطبري ـ ج ٢٢ ـ مج ٦ ص ١٤٣.

والتي استغلها المستشرقون وغيرهم لبث سمومهم وأحقادهم على رسول الله ـ ﷺ ـ وما أستغربه كباحثة أن العلامة ابن جرير الطبري روى هذه الرواية وروايات كثيرة ضعيفة في تفسيره وفي تاريخه ولم يعقب عليها بشيء فهي مجردة من أي نقد علمي ولا سيما وهو في درجة كبيرة من العلم والإمامة في الدين.

ـ رواية ضعيفة أوردوها طبقات ابن سعد منها استغلها المستشرقون كثيراً وهي قصة زينب وزواجه ـ ﷺ ـ (جاء رسول الله ـ ﷺ ـ بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد، فربما فقده رسول الله ﷺ الساعة فيقول أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فضلاً فأعرض الرسول ـ ﷺ ـ عنها فقالت: ليس هو هاهنا يا رسول الله فأدخل بأبي أنت وأمي، فأبى رسول الله أن يدخل وإنما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها رسول الله على الباب فوثبت عجلي فأعجبت رسول الله، فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه إلا ربّما أعلن «**سبحان الله العظيم سبحان مصرّف القلوب**» فجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن الرسول أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت ذلك عليه فأبى. قال: فسمعت شيئاً؟ قالت: سمعته حين ولى يتكلم بكلام ولا أفهمه، وسمعته يقول: «**سبحان الله العظيم سبحان مصرّف القلوب**» فجاء زيد إلى الرسول فقال له: يا رسول الله بلغني أنك جئت منزلي فهلا دخلت؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها فيقول رسول الله ـ ﷺ ـ «**أمسك عليك زوجك**...»).

هذه الرواية سمعها ابن سعد من محمد بن نراجع عن عبدالله بن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبّان[1].

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات ـ دارة الكتب العلمية بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ جـ ٨ ـ ص ٨٠ ـ ٨١.

هذه الروايات والقصص والشروح موجودة في كتب التفسير والتاريخ استغلت كثيراً من طرف المستغلين والمستشرقين، وذلك لأنّها روايات ضعيفة وساقطة ومعارضة للنصوص الصحيحة من الكتاب والسنة.

والمهم في هذه الروايات أنها لا تخفى على أهل الاختصاص، لأنها منقولة بالسند وهذا عمل مهم، فإذا لم يمحص المفسرون والمؤرخون هذه الروايات، فقد أوردها بالسند، ومن خلال السند تبين لعلماء غيرهم أنّها روايات ضعيفة أو موضوعة.

ولكن المستشرقين لا يبحثون على الأصح بل دأبهم إثارة الفتن والتشبث بكل ضعيف وموضوع وساقط.

منهج المستشرقين في التعامل مع المصادر:

لقد سبق القول أن من المستشرقين من هم مخلصون للعلم، وموضوعيون في تناول الحقائق العلمية المتعلقة بالإسلام قرآناً وتفسيراً وحديثاً وفقهاً وتاريخاً وسيراً ولغة وأدباً. إلا أن معظمهم لم يكونوا نزهاء في نقل الحقائق أو تحليلها وخاصة فيما يتعلق بالسير والتاريخ، وصورة المرأة والمجتمع، وقد وقعوا في أخطاء منهجية منها:

١ ـ الاعتماد على الضعيف والشاذ، والاستعانة بالغريب والشاذ والموضوع من الأخبار والسير وترك المعروف والصحيح والمشهور.

٢ ـ ردّ المعطيات التاريخية إلى أصول النصرانية واليهودية. (كخلوة النبي ـ ﷺ ـ بغار حراء...).

٣ ـ تبييت فكرة مسبقة ثم المجيء إلى الوقائع التاريخية ليستلوا منها ما يؤيد فكرتهم، ويستبعدوا ما دون ذلك كما هو الحال في كثرة اعتمادهم على كتاب الأغاني، وألف ليلة وليلة.

٤ ـ التعاطف مع العناصر المضادة للإسلام.

٥ ـ إثارة الشكوك في معطيات القرآن والسنّة والتاريخ.

٦ ـ إسقاط المنطق الوضعي العلماني والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج الغربية، فقد قال اتيان دينيه في كتابه محمد رسول الله ﷺ (أنّه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم، ونزعاتهم المختلفة وأنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي ـ ﷺ ـ والصحابة مبلغاً يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف[1].

(١) حياة محمد ﷺ ـ اتيان دينيه ـ ص ٢٧ ـ ٢٨.

الفصل الرابع

زوجات النبي ﷺ
والفكر الاستشراقي

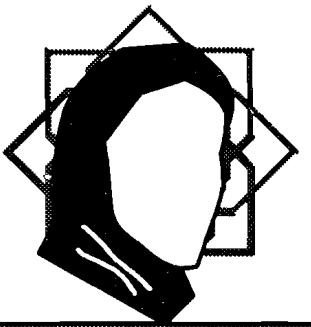

الفصل الرابع:
زوجات النبي ﷺ
والفكر الاستشراقي

لقد سبق القول في الفصول السابقة أنّ المستشرقين لم يتركوا لا صغيرة ولا كبيرة عن الشرق إلا وتناولوها بالدراسة والبحث ولم ينصب اهتمامهم فقط على الشرق كشرق، بل كان الرسول ـ ﷺ ـ أكبر اهتمامهم، وأكثر تناولاً في كتبهم ودراساتهم شريعةً وتاريخاً وسرةً.

وكانت حياته الزوجية أكثر إثارة بالنسبة إليهم، وكثرة زوجاته كان يشكل لهم مادة دسمة ليقولوا فيه ما لا يليق ويتخيلوا ما يحلو لهم، ويصفونه بصفات سيئة فيها الكثير من الحقد والتشويه للحقائق والجهل بالحياة الاجتماعية في الإسلام والفقه ومبدأ العدل وغيره.

الحياة الزوجية للرسول ـ ﷺ ـ والفكر الاستشراقي

لم تكن دراسات المستشرقين حول حياة النبي ـ ﷺ ـ الخاصة موضوعية، حتى من طرف المعتدلين منهم، فلم يستطيعوا أن يكونوا منصفين في هذا الأمر.

فهذا (مونتجو مري وات) يقول في كتابه محمد في المدينة (ونعلم من بعض الوثائق أنّ محمداً بالإضافة إلى زوجاته الشرعية واتصالاته بالجواري،

كانت له علاقة مع نساء أخريات، وذلك حسب النظام الأممي القديم).

من هنّ هؤلاء النساء الأخريات، وما هو عدد الجواري؟ كلّ هذا لم يذكره في كتابه، مع أنّه ﷺ - لم يكن له جوار إلا مارية القبطية، ولم تكن له اتصالات غير شرعية مع نساء وهو الذي جاء بوحي يحرم مثل هذا النوع من الاتصالات.

وهذا (غوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب يقول (وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارىء للنساء، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يخف محمد حبه للنساء. . . . ولم يبال بسن المرأة التي يتزوجها، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنّها، وأطلق العنان لهذا الحب حتى أنه رأى اتفاقاً زوجة ابنه بالتبني وهي عارية فوقع في قلبه منها شيء فسرحها بعلها ليتزوجها محمد. . .)[1].

لو أطلق محمد - ﷺ - العنان لهذا الحب، لاختار أجمل النساء وأصغرهن والأبكار. لكنه اختار نساء أرامل مكسورات بظروف صعبة، معظمهن فاقدات للزوج والعائل، أو طالبات الحماية والرعاية.

يقول (إشتيجليكر هرمان) في كتابه عقائد الإسلام (كان محمد لديه قوّة جنسية تعادل القوّة الجنسية لدى أربعين رجلاً وذلك بناء على حديث وارد في هذا الشأن ونصه: «**أتاني جبريل بقدر فأكلت منها، فأعطيت قوّة أربعين رجلاً في الجماع**»[2].

---

(١) حضارة العرب - غوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه - ص ١٢٢.

(٢) عقائد الإسلام - استجليكر هرمان - ظهر الكتاب عام ١٩٦٢ ص ٤٠. عن كتاب الإسلام والغرب حمدي زقزوق.

وهذا الحديث من الأحاديث الموضوعة، فقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال الذهبي عن أبي زرعة متهم بالكذب أبي سفيان بن وكيع. ورواه الخطيب وابن السني في الطب عن حذيفة مرفوعاً، وفيه سفيان بن وكيع وهو متهم كما أورد هذا الحديث ابن سعد في الطبقات.

واستدل المؤلف بالحديث الصحيح ولكنه ذكره ناقصاً فذكر الحديث: **«إنما حبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء»** ولم يضف **«وجعلت قرّة عيني في الصلاة»**.

هل يريد المؤلف بكلامه هذا أن يصوّر الرسول ـ ﷺ ـ لقراءة الأوربيين بأنّه رجل تغلب عليه الشهوة وتسيطر عليه الرغبة الجنسية العارمة؟ إن هذا ما يريده وإلا فلماذا يورد كلّ هذا الكلام وهو يتكلّم على عقائد الإسلام لا عن السيرة ولا عن الفقه، أم أنّه لا يحسن المنهجية؟

وكتب (بييربيل) عام ١٦٩٧م في قاموسه المعنون، «القاموس التاريخي والنقدي» قائلاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الملاك جبريل قد علّمه وصفة «طبيخ» تقوي الكلى، وعندما أكل منها أول مرة، كان من القوة، بحيث هزم أربعين رجلاً، ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب).

هذا نص آخر من النصوص التي لا تستند لا على مصدر موثوق ولا على عقل سليم وفكر موضوعي. فهرمان قال أنّه أعطى قوّة أربعين، وذكر العلماء أن هذا العالم استند إلى أثر أو حديث موضوع لا أساس له من الصحة، ولكن هذا المستشرق أتى بنص من خياله، فقال: وضاجع أربعين امرأة، من هنّ هؤلاء النسوة، وهو له تسع زوجات، وجاريتان قد يعجب القارىء من كلّ هذا ويتساءل لماذا كلّ هذا؟

أقول هذه نماذج من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام ونبيه. ولما حذر العلماء وأبرزوا بخاطرهم لم يكونوا مغالين.

وهذا الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ يذكر في كتابه المرأة بين الشريعة[1] والقانون، محاورة دارت بينه وبين أحد الآباء اليسوعيين، وكان مديراً لمدرسة زارهاني دبلن (ايرلندا) عام **١٩٥٩**م.

قال (فكان ما قلته له: لماذا تحملون على الإسلام ونبيه، وبخاصة في كتبكم المدرسية، مما لا يصح أن يقال في مثل هذا العصر الذي تعارفت فيه الشعوب والتقت الثقافات؟ فأجابني: نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلاً تزوج تسعة نساء، قلت له: هل تحترمون نبي الله داود، ونبيه سليمان؟ قال: نعم، وهما عندنا من أنبياء التوراة، قلت له: إن نبي الله داود، كان له تسع وتسعون زوجة وأكملهن بمائة بالزواج من زوجة قائدة أوربا كما هو معلوم، ونبي الله سليمان كانت له كما جاء في التوراة ـ سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري، فلم يستحق احترامكم من يتزوج بألف امرأة، ولا يستحق من تزوج تسعاً؟ لماذا لا يستحق احترامكم من تزوج تسعاً، ثمانية منهن ثيبات وأمهات وبعضهن عجائز، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول ـ ﷺ طيلة عمره.

فسكت قليلاً وقال: أخطأت التعبير، أنا أقصد أننا نحن الغربيين ـ لا نستطيع الزواج بأكثر من واحدة، ويبدو لنا من يعدد الزوجات غريب الأطوار، وعارم الشهوة.

قلت: فما تقولون في داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وبقية الأنبياء الذين كانوا جميعاً معددين للزوجات بدء من إبراهيم ـ عليه السلام ـ فسكت ولم يجد جواباً.

هذا ما كتبه المستشرقون وما هو المراجعة على المستوى الشخصي أو

---

(١) المرأة بين الشريعة والقانون ـ مصطفى السباعي ـ.

الجماعي وفي كتبهم وموسوعاتهم، فقد جاء في الموسوعة البريطانية ذكر أزواج النبي - ﷺ - بكلمة (Comcubines) أي السراري والمحظيات وباللغة الفرنسية Maitreses.

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد (قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنّه قاصر الجنسية، لأنّه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء...)[1].

وقد يكون الانغماس في الشهوة المحرمة أو الحلال عيباً ونقص مروءة ترفضه الشرائع والفطرة السليمة، لأن مثل هذا النوع لا يستطيع أن يقوم أعباء الحياة، ويتحمل مسؤوليات جسام، لكن الرسول - ﷺ - لم يكن كهؤلاء البشر، بل لم تمنعه زوجاته على أداء رسالته على أكمل وجه، من عبادة وجهاد وقضاء.

وفي هذا يقول الأستاذ العقاد (وهذه النفس السويّة يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط في معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام.

فمهما قال هؤلاء، فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمداً - ﷺ - قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده، ولم يشغله عن هذا شيء، لا امرأة ولا غير امرأة، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها، ويعطي المرأة حقها، فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب، ومحمد - ﷺ - الذي خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سرحاً جميلاً ليس بالضرورة رجلاً خاضعاً للذات حسه، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة، وأغرقهن في الحرير والذهب،

(١) انظر عبقرية محمد، عباس محمود العقاد.

وأطيب الملذات وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه)[1].

يتبين لنا من خلال أقوال المستشرقين في حياته الزوجية ـ ﷺ ـ الكثير من السطحية. وانعدام المنهجية العلمية والتحري والاعتماد على الصحيح من المصادر، والأمانة في النقل.

وهذا الألماني المسلم مراد هوفمان يقول: (كما أن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الزوجات الأخرى، التي تمت بين محمد ـ ﷺ ـ بصفته قائد الأمة وولي أمر الأمة الإسلامية آنذاك وبين سيدات أخريات، كانت زوجات ذات معان سياسية واجتماعية وتشريعية خطيرة، أفيظن أحد بعد هذا، أنّ رجلاً مثل محمد أراد أن يشوه رسالته السامية بإعطائها طابعاً يتسم بكره النساء واحتقارهن وامهانهن)[2].

أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ

لقد درس المستشرقون حياة الرسول ـ ﷺ ـ من مختلف الجوانب، ودرسوا حياته الخاصة، ولم تسلم أمهات المؤمنين من التناول بالافتراء والتدليس والتشويه، في كتاباتهم الأكاديمية وموسوعاتهم ودوائر معارفهم، فكنّ مادة دسمة ليقولوا عنهن ما يحلو لهم، ولينفذوا إلى أغراضهم المعروفة عبر تناول مثل هذه الموضوعات، فلا الحق أصابوا، ولا الموضوعية والمنهج العلمي اتبعوا. وسأتطرق لكل واحدة من زوجاته ـ ﷺ ـ بالتفصيل والدراسة.

خديجة ـ رضي الله عنها ـ

هي خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ القرشية الأسدية ذات الحسب والنسب والجاه، فقد كانت تجارتها واسعة، يقوم عليها عمال

---

(١) نفس المرجع.

(٢) الإسلام كبديل ـ مراد هوفمان ـ مكتبة العبيكان ـ ط ٢ ١٩٩٧ ص ١٩٦.

كثيرون، وكانت تجارتها مؤسسة كبيرة، وشركة ضخمة، اشتهرت بسمو أخلاقها، وكانت تتميز بالعفة والأمانة والصدق، تزوجت قبل رسول الله ـ ﷺ ـ مرتين من سادات قريش، وهما عتيق بن خالد المخزومي وأنجبت منه ابنه، وزوجها الثاني هو أبو هالة بن زرارة التميمي وأنجبت منه ولداً.

ولما بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ يكبر ذاع صيته بين الناس بالصدق والأمانة، فجذبها صدقه وأمانته، فاختارته ليكون قيماً على تجارتها إلى الشام مع غلامها ميسرة، وكان كذلك وعاد بربح أكبر ورزق أوفر.

وبعد ذلك توطدت العلاقة فأصبح الرسول ـ ﷺ ـ من أمين على المال إلى أمين على البيت والأسرة، فقد تزوجته وهي في الأربعين من عمرها وهو في الخامسة والعشرين.

والشائع لدي الكثير من الباحثين وطلبة العلم وعامة الناس، حب رسول الله ـ ﷺ ـ لصغرى زوجاته عائشة ـ رضي الله عنها ـ والحقيقة الأقل شيوعاً هو إيثارُهُ ـ ﷺ ـ لأولى زوجاته خديجة، التي شاركته الحياة الزوجية أربع وعشرين عاماً، زوجة سعيدة مباركة، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى، وكان له منها السكن والولد والمؤازرة...

لقد برز دور خديجة ـ رضي الله عنها ـ كزوجة مؤازرة ومتفهمة لزوجها وظروفه، في بداية الوحي، وما سبقه من خلوة في غار حراء للتعبد والتأمل.

فقد احترمت خديجة هذه الخلوة، وهذا الانزواء في غار حراء فلم تذكر الروايات أنّها تذمرت أو سألته عن فعله هذا، مع أنّه كان تصرفاً غريباً في ذلك الزمان.

وبرز دورها أكثر وموقفها الإيجابي من الإسلام حين نزول الوحي بكلماتها الخالدة، التي تدل على عظمتها وحسن تفهمها حينما عاد إليها

رسول الله ـ ﷺ ـ يرتعد ويقول: «**دثروني، دثروني**»، قالت خديجة تطمئن زوجها الرسول الكريم (الله يرعانا يا أبا القاسم، ابشر يا ابن العم، وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون أنت نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتقري الضيف).

من خلال هذه العبارات المواسية، الرافعة لمعنويات الرسول ـ ﷺ ـ تظهر لنا خديجة ـ رضي الله عنها ـ ليست تاجرة فقط، تحسن فهم المال والاقتصاد، بل فهم التاريخ والديانات، ولها اطلاع بذلك، ولها أيضاً فطرة سليمة، فقد تأكد لديها عظمة الخالق ورعايته لمحمد ـ ﷺ ـ واصطفاءه بالرسالة، مع أنّها امرأة تعيش كغيرها من النساء في مجتمع جاهلي لكنها كانت مختلفة عنهن كثيراً.

فمنذ هذه البدايات المبشرة بنبوة رسول الله ـ ﷺ ـ وخديجة ـ رضي الله عنها ـ تعي بثقل المسؤولية وأهمية الرسالة، فتكون أول من أسلم ودخل الدين الجديد، وأول من عرض الإسلام ابن عمّها (ورقة بن نوفل)، عندما ذهبت تحدثه عن أعراض النبوة، بكلّ صدق ثقة، ولم ينتابها شك ولا هلع مما يحدثها عنه زوجها. ومن رؤيتها لحالته. منتفضاً يتصبب العرق منه، في حين انتاب الشك والهلع والخوف من الدين الجديد أكابر القوم وأساطين قريش، فكانت الزوجة الفعالة المواسية المؤازرة السباقة إلى الإسلام الصبورة التي تستحق الشهادة الخالدة والوسام الذي لا يزول في الدنيا والآخرة قول المصطفى الزوج الوفي المعترف لجميل هذه الزوجة الخالدة والقدوة الصالحة «**والله ما أبدلني خيراً منها، آمنت بي حيث كفر الناس وواستني بمالها، إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد، دون غيرها من النساء**».

هذه شهادة خير البرية ـ ﷺ ـ لخير نساء الأرض وشهادة أخرى من

رب العباد، بشرى لخديجة ـ رضي الله عنها ـ بالجنة، فقد روى البخاري ومسلم عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبدالله بن أبي أوفى (أكان رسول الله ـ ﷺ ـ بشر خديجة ببيت في الجنة؟ قال: نعم، بشرها ببيت في الجنة من قصب ولا منحب فيه ولا نصب).

سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ

هي سودة بنت زمعة بن قيس، تزوجت من سكران بن عمرو، وأسلمت بمكة قديماً وبايعت، كما أسلم زوجها، هاجرت إلى الحبشة وعند رجوعها من الحبشة توفي زوجها بمكة، وبقيت أرملة.

لقد أصبح رسول الله ـ ﷺ ـ يعيش حياة الوحدة بعد وفاة خديجة فقامت تحثه خولة بنت حكيم السلمية في أن يتزوج مرة أخرى، فاقترحت عليه زوجة وهي عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعائشة كانت صغيرة، والرسول ـ ﷺ ـ محتاج لامرأة تؤنس وحدته ووحشته، وتقوم بشؤون بيته وأولاده فاقترحت عليه امرأة ثيباً يمكن أن تكون زوجاً له، وفي نفس الوقت أماً لبناته، وهي سيدة كريمة مؤمنة فاضلة مهاجرة في سبيل الله، هي سودة بنت زمعة، فوافق ـ ﷺ ـ وتزوجها بمكة وأصبحت من أمهات المؤمنين.

وتذكر الروايات أنه ـ ﷺ ـ أراد فراقها، فترجته، أنْ تبقى في عصمته لتبعث يوم القيامة في نسائله قالت: (أنشدتك بالذي أنزل عليك كتابه واصطفاك على خلقه لم تطلقني، الموجدة وجدتها في؟ قال: «لا». قالت: فإني أنشدك بمثل الأولى إما رجعتني وقد كبرت ولا حاجة لي في الرجال، ولكني أحب أن أبعث في نسائك يوم القيامة فراجعها النبي ـ ﷺ ـ فقالت: (فإني قد جعلت يوم وليلتي لعائشة)[1].

(١) انظر الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ مج ٨ ـ ص ٤٣.

قالت فيها عائشة (ما من الناس أحد أحبّ إلي أن أكون في مسلاخه من سودة إن بها إلا حدّة فيما كانت تسرع منه الفيئة)[1].

عائشة ـ رضي الله عنها ـ

هي عائشة بنت أبي بكر الصديقة بنت الصديق، أفقه نساء الأمة، وأعلمهن بالدين وفقه الشريعة، وأكثرهن إحاطة بأدب العرب.

لقد خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة بإشارة من خولة بنت حكيم وكانت صغيرة، فتزوج سودة بنت زمعة، وفي السنة الثانية للهجرة تزوجها فقد قالت رضي الله عنها (تزوجني رسول الله ـ ﷺ ـ في شوال سنة عشر من النبوة قبل الهجرة لثلاث سنين وأنا ابنة ست سنين، وهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ فقدم المدينة يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وأعرس بي في شوال على رأس ثمانية أشهر من المهاجر، وكنت يوم دخل بي ابنة تسع سنين[2].

لم يتزوج ـ ﷺ ـ بكراً غيرها، وكانت عالمة وراوية للكثير من الأحاديث واستدركت على كبار الصحابة الكثير من الأحاديث وكان بيتها مدرسة ومركزاً علمياً للسائلين والباحثين عن الحديث والفقه والفتوى والسيرة وغيرها.

قال هشام بن عروة، عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وقال أبو بودة بن أبي موسى عن أبيه: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً، وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل...)[3].

---

(١) والإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ ـ مج ٧ ـ ص ٧٣٠.

(٢) نفس المرجع ـ مج ٧ ـ ص ٧٣١.

(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ ٨ ـ ص ٤٦ ـ والإصابة جـ ٨ ـ ص ١٦ ـ ١٧.

وقد كانت عائشة محدثة ومن حفاظ السنة النبوية والمكثرون لروايتها وفقيهة من كبار علماء الصحابة المجتهدين، حتى أن كبار الصحابة كانوا يسألونها فتجيبهم، ويستفتونها فتفتيهم. حتى قال ابن القاسم (إن عائشة استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهم ـ إلى أن توفيت) ـ فجمعت عائشة بين علم الرواية وعلم الدراية.

وكانت حجرتها مركز إشعاع علمي للنساء والرجال على السواء.

حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنها ـ

هي حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ كانت قبل زواجها من رسول الله ـ ﷺ ـ زوجة لخنيس بن حذافة، وكلاهما أسلم في مكة، مات زوجها بعد غزوة بدر، فلما تأيمت عرضها أبوها على أبي بكر، ثم على عثمان فتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ بعد عائشة. وكانت حفصة صوامة قوامة، تحسن الكتابة والقراءة.

زينب بنت خزيمة ـ رضي الله عنها ـ

كانت سيدة صالحة تدعى أم المساكين لكثرة إحسانها وبرها، أسلمت قبل الهجرة وتزوجت أحد أبناء عمه ـ ﷺ ـ وهو طفيل بن الحرث بن المطلب، فطلقها، ثم تزوجها أخوه عبيدة بن الحرث فقتل ببدر، فتزوجها الرسول ـ ﷺ ـ بعد حفصة، رعاية لها وتعويضاً لها لما فقدته، وربطاً بينه وبين قبيلتها، ماتت بعد ثمانية أشهر من زواجها.

أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ

وهي هند بنت أبي أمية المعروف بزاد الراكب وهي مخزومية، كانت قبله ـ ﷺ ـ عند أبي سلمة ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ وكانا أول من هاجر إلى الحبشية تزوجها ـ ﷺ ـ عقداً لصلة بينه وبين بني مخزوم، وتعويضاً لها

لحسن إسلامها، وكانت أرملة ذات أولاد تربوا عنده ـ ﷺ ـ وكان ذلك إحساناً أكبر.

زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ

هي ابنة عمة رسول الله ـ ﷺ ـ أميمة بنت عبد المطلب كانت زوجة لزيد بن حارثة، مولى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الذي زوّجها منه، إلا أنّها لم تطق العيش معه فطلقت، فتزوجها الرسول ـ ﷺ ـ جبراً لها وكسراً لعادة كانت في الجاهلية، إذ كانوا يجعلون الولد المتبنى كالولد من النسب، وكان الرسول ـ ﷺ ـ قد تبنى زيداً فلما أبطل الإسلام التبني في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. ولم يعد زيد ابن للرسول ـ ﷺ ـ وقد زوجه الله تعالى ـ منها. قال عزّ وجلّ ـ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ﴾[1].

فكان هذا تشريعاً عملياً من رسول الله ـ ﷺ ـ.

جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ

هي من أزد خزاعية مصطلقية، كانت من سبايا بني المصطلق وكانت من سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها على أن تدفع له تسع أواق ليعتقها، فذهبت إلى الرسول ـ ﷺ ـ تستعينه على ما كاتبت عليه، فعرض عليها أن يقضي عنها كتابتها، ثم يتزوجها فقبلت وكانت عظيمة البركة على قومها، فإن الناس أطلقوا من كان تحت أيديهم من الأسرى، لأنهم اعتبروهم من أصهار الرسول ـ ﷺ ـ وبسببها أسلم الكثيرون، لأنهم رأوا حسن معاملة الرسول ـ ﷺ ـ لهم وتكريمه لبنت سيدهم.

---

(١) الأحزاب: ٤.

ريحانة بنت زيد ـ رضي الله عنها ـ

ويقال ريحانة بنت شمعون، من بني قريظة، وكانت من السبايا في غزوة بني قريظة، وترك لها الرسول ـ ﷺ ـ الخيار بين دينها اليهودي، وبين الإسلام، فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها وماتت بعد عودته من حجة الوداع.

أم حبيبة بنت أبي سفيان ـ رضي الله عنها ـ

وهي رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموي، رأس قريش، ومناصب العداء للرسول ـ ﷺ ـ كانت زوجاً لعبيدالله بن جحش هاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية، وولدت هناك ابنتها حبيبة وكنيت بها، وتنصر عبدالله بالحبشة ومات هناك وبقيت هي على إسلامها، أرسل الرسول إلى النجاشي أربعمائة دينار صداقاً لها. وكان زواجها إزالة للجفوة والعداء بينه وبين بني أمية وعلى رأسهم أبوها أبو سفيان.

صفية بنت يحيى بن أخطب ـ رضي الله عنها ـ

كان أبوها سيد بني النضير، وكانت عند سلام بن مشكم القرظي الشاعر، وفارقها فخلفه عليها كنانة بن الربيع فقتل يوم خيبر وسبيت هي. فأرادها دحية الكلبي أحد الصحابة، فقال الناس: إنها بنت سيد القبيلة لا تصلح إلا لسيّد فتزوجها الرسول ـ ﷺ ـ.

ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ

وهي أخت أم الفضل زوجة العباس عم رسول الله ـ ﷺ ـ وأختها أيضاً لباية أم خالد بن الوليد، كان اسمها برة وسماها الرسول ميمونة.

خطبها رسول الله ـ ﷺ ـ في صلح الحديبية، فتزوجها بمكة، وهي التي وهبت نفسها للنبي ـ ﷺ ـ. هؤلاء هن نساؤه ـ ﷺ ـ المدخول بهن، ومات وعنده تسعة نسوة.

أمهات المؤمنين والفكر الاستشراقي:

لقد تزوج الرسول ـ ﷺ ـ أحد عشرة امرأة، ماتت اثنتين في حياته، وبقيت تسعة إلى أن توفي. وإضافة إلى ما قاله المستشرقون، عنه ـ ﷺ ـ وعن زواجه إجمالاً، فصلوا كذلك بالدراسة والبحث في عائشة وزينب ـ رضي الله عنهما ـ ثم خديجة وسودة، فقد ذكروا الشيء الكثير عنهن في دائرة معارفهم وفي كتبهم المؤلفة في السيرة، أو الفقه أو العقائد أو التاريخ. وسأفصل الكلام في كل واحدة منهن.

١ ـ خديجة ـ رضي الله عنها ـ والفكر الاستشراقي:

لقد كتب المستشرقون عن خديجة ـ رضي الله عنها ـ كلاماً مناف لكلّ الحقائق التاريخية، التي كتبها المؤرخون المنصفون والموضوعيون، فاعتبروها امرأة ثرية لها أموال واستقلت من طرف محمد الشاب، الذي لم يعجبه سوى أموالها ومكانتها الاجتماعية.

فقد قال هنري ماسيه (وإذا كانت أحاديث محمد مع أحد الرهبان قد وضعته وجهاً لوجه مع لغز الآخرة، فإن ذلك ليس بمستحيل، ولكن هذه اليقظة قد تأخرت بسبب زواج محمد الذي كان في الخامسة والعشرين من خديجة التي تكبره بكثير، وهو حادث هام من عدة نواح، عند اضطراب محمد من نزول الوحي الأول، فإن خديجة هي التي ستعيد إليه الثقة، وأموال خديجة ستعضد محمداً في معاركه الأولى، ولذلك يمكن القول بأن تأثير خديجة على بدايات الإسلام كان رئيسياً، وأخيراً فإن خديجة هي التي ولدت الولد الوحيد لمحمد والذي ترك وراءه أعقاباً وهذا الولد هو فاطمة المعذبة الكئيبة، التي أصبحت بزواجها من علي جدة لعدد كبير من أعقاب النبي الحسنيون والسعادة الحسينيون، وطوال حياة خديجة فإن محمد لم

يتخذ زوجة أخرى، وهذا برهان على نفوذ خديجة الذي كانت تمارسه عليه)[1].

هذا رأي معظم المستشرقين، في أن محمد ـ ﷺ ـ أخذ تعاليم الإسلام والدين الجديد من الرهبان، وقد أضاف هذا المستشرق معلومات أخرى مضللة غير صحيحة، وهي تأخر تطبيق تعاليم الرهبان وعرقلة خديجة لمحمد في ذلك، وهذا خطأ، فالرسول ـ ﷺ ـ انتظر الوحي، من الله ـ عز وجل ـ ليس تأثير خديجة هو الذي أخره. ثم إن الرسول ـ ﷺ ـ لم يخض معارك قبل الهجرة حتى تكون أول خديجة سند له، بل كلّ الغزوات كانت بعد سنين من وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ ويذكر المؤرخون، أنّه حوصر في شعب مكة في أيام البعثة ولم يجد لا محمد ـ ﷺ ـ ولا أصحابه ما يأكلون، ومما قاله هذا المستشرق، أنّ خديجة هي التي ولدت الولد الوحيد والذي فاطمة ـ رضي الله عنها ـ والصحيح أنّها ولدت له ستّة أطفال، أربع بنات وولدان، توفي الولدان وهما صغيران، وتوفيت البنات في حياة والدهن، ولم تبق إلا فاطمة بعده، التي ولدت الحسن والحسين وهي الوحيدة التي حافظت على النسب الشريف. أما وصفها بالمعذبة الكئيبة، فهذا غير صحيح أيضاً، لماذا، لماذا هذا الوصف؟ وهي سيّدة نساء الجنّة التي عاشت معززة مكرّمة محاطة بحب أبيها، وعناية زوجها علي ـ كرّم الله وجهه ـ وإن كان فقيراً، فقد كانت صابرة محتسبة ولو أراد لها أبوها غنى الدنيا لأغناها، ولكنه أراد لها غنى الجنّة فهي سيّدة نساء الجنة ـ رضي الله عنها ـ.

وجاء في القاموس التاريخي الكبير عام ١٦٧٤ للويس موريري (محمد نبي مزيف، عربي الموطن، ولد عام ٥٧١م وفقاً للتقدير العام، فقد والديه،

---

(١) الإسلام ـ هنري ماسيه ـ ترجمة بهيج شعبان ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٦٠ ص ٤٢.

وهو طفل، وقام عمّه أبو طالب بتربيته، ودفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة «كاديج» لدرجة أنّها تزوجها، وأصبح وريثها الوحيد فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته... وبعد ذلك شارك كل من باتيراس، وهو هرطقي يعقوبي، والأب سرجيوس، وهو راهب نسطوري، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع قرآنه وبذلك أصبح دينه مكوّناً جزئياً من اليهودية، وجزء أخر من أحلام هرطقية واستسهالات جنسية...).

ومما جاء في دائرة المعارف الإسلامية، للمستشرقين عن خديجة ـ رضي الله عنها ـ (هي ابنة خويلد... عرفت محمداً وألحقته بتجارتها... ولقد عارض والدها هذا الزواج، ولم يستطع حمله على قبوله، إلا بعد أن أسكرته،... وقد قنع النبي بزوجة واحدة وهي خديجة طوال حياتها، على الرغم مما عرف عنه بعد ذلك من قوة الميل الجنسي)[1].

الثابت في المصادر التي ترجمت لخديجة وهي مصادر موثوقة أن أباها لم يكن على قيد الحياة عندما خطبها الرسول ـ ﷺ ـ ولم تخرج هذه الدائرة عن إطار الكتابات الاستشراقية والتنصيرية من اتهام الرسول ـ ﷺ ـ بأنه شهواني. هذه هي آراء الرهبان والمستشرقين في نبينا الكريم وأمهات المؤمنين، ولو كانت مجرد آراء لأمكن تأويلها، بالكره والعداوة تارة، وبالجهل تارة أخرى، ولكن لما تكون آراء مدوّنة في كتب علمية المتصوّر فيها تحري الموضوعية والدقة، فهذا ما يكشف أغراض الاستشراق، فهذا المستشرق يدوّن قاموساً تاريخياً كبيراً، ويحشوه بأكاذيب، وأخطاء شنيعة.

فخديجة رضي الله عنها لم تكن متزوجة عندما عرفت محمداً ـ ﷺ ـ بل كانت أرملة، وهو لم يكن مستغلاً لها، بل كان أميناً، فحينما بعث

---

(١) دائرة المعارف ـ جـ ٨ ـ ص ٢٣٥،

بتجارتها إلى الشام لأول مرة، عاد بأرباح كبيرة، وهو السبب الذي جعلها تختاره مرة أخرى وتعجب به فيما بعد، ليكون زوجاً لها باختبارها دون تحايل منه، ولا كيد، وعلى عادة المستشرقين دائماً يذكر بأن القرآن هو مجموعة تعاليم يهودية ومسيحية. وهذا المستشرق يضيف أمراً آخر للقرآن وهو الاستسهالات الجنسية، ويعني بها طبعاً تعدد الزوجات...) كما صور المستشرقون خديجة ـ رضي الله عنها ـ بالمرأة الساذجة المستغلة في مالها وعقلها من طرف محمد ـ ﷺ ـ فهذا بونودي كونديلاك، صاحب كتاب التاريخ الحديث ـ سنة ١٧٦٧ يقول: (لقد كان مصاباً بالصّرع (أي الرسول ـ ﷺ ـ) وذات يوم فاجأته زوجته «كاديج» في إحدى النوبات، وتخيلت أنّه في حالة وجد... واستغل محمد سذاجتها، وأكّد لها أنّه يرى الرؤيا وأنّ الله يحدثه خلالها عن طريق ملاك جبريل، وقامت «كاديج» بنقل ذلك لنساء أخريات، معلنة أنّ زوجها نبي، وانتشر الخبر، وتراكمت النبوءات مع تراكم الكلام وتزايده... فقامت الجماهير باتباع ذلك الرجل الملهم، الذي أقنعهم بسخاء خياله).

ويطرح (مونتجومري وات) فرضية أخرى عن زواج خديجة وإنجابها لأبناءها السبعة وهي في سن الأربعين.

يقول (إذا كانت خديجة قد أنجبت ولد في كلّ سنة فإنّها تكون في الثامنة والأربعين، من عمرها عند ولادة الأخير، وليس هذا مستحيلاً، ولكنه غريب يثير التعليق، وهو من الأمور القابلة لأن تصبح فيما بعد معجزة)[1].

ويردّ عليه مترجم الكتابين الخاصين بهذا المستشرق (محمد في مكة، ومحمد في المدينة) يقول:

---

(١) محمد في مكة ـ مونتجرمري وات ـ تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ص ٧٢.

(المسألة في نفسها لا تقتضي كلّ هذا التعقيد، فإنها قد تكون أقلّ من الأربعين عمراً، لدى زواجها، وقد تكون فعلاً في الأربعين، لأنّ الإنجاب حتى الخمسين ليس مستحيلاً، ولكن (وات) يبني على هذه المسألة موقفاً. فيقول ـ أي وات (إننا لا نعثر على أي تعليق بهذا الصدد في كلّ صفحات ابن هشام وابن سعد والطبري)[1]. وكأن هؤلاء المؤرخين لا يملكون أي حسن نقدي.

ثم يقول (إن هذا من الأمور القابلة لأن تصبح بعد معجزة، وبالتالي فإن أتباع الرسول، أو الأجيال المسلمة عموماً، تملك الاستعداد السهل لتحويل كل ظاهرة بعيدة عن المألوف بدرجة أو أخرى إلى معجزة)[2] هذه إذن أمثلة ونماذج من آراء وكتابات استشراقية، في دوائر المعارف، والقواميس والكتب والمقالات، ولا يخرج جميعها عن الخط والمنهج الذي وضعه المستشرقون في دراسة السيرة والإسلام عموماً سواء أكانوا رهباناً أو يهوداً أو ملحدين أو لبسوا لباس البحث العلمي والموضوعية.

سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ والفكر الاستشراقي.

لقد تزوج رسول الله ـ ﷺ ـ سودة بنت زمعة بعد وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وكانت امرأة أرملة من السابقين للإسلام.

فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية كلام عن سودة بنت زمعة مضمونه (كانت سودة بنت زمعة عندما تزوجت النبي، قد ودعت الشباب وأخذت تثقل، وتثبط كلّما تقدّمت في السن... وبرم بها النبي حين أسنت، وأهملها، وراح يقضي وقتاً طويلاً مع عائشة الصبية، وطلقها في

---

(١) نفس المرجع.

(٢) نفس المرجع.

السنة الثامنة للهجرة، ولكنها قعدت له وناشدته أن يرّدها واعدة إياه أن تهب يومها لعائشة)[1].

الذي يقرأ هذه العبارات، يجد أن الرسول ـ ﷺ ـ ليس عادلاً بين زوجاته، وكان ظالماً لسودة بنت زمعة حين أهملها وبرم بها، وهجرها، ولكن الحقيقة ليست هذه، فالرسول ـ ﷺ ـ كان عادلاً بين زوجاته في حدود استطاعته ومقدرته وتفضيله لعائشة لم يخرجه من دائرة العدل والاحترام لزوجاته جميعاً، وقد سبق ذكر رواية صحيحة، أنّه أراد فراقها، فترجته أن تبقى في عصمته لتبعث يوم القيامة في نسائه، فراجعها. ولو أراد عدم مراجعتها لفعل، فهو لم يظلمها إذن. وتذكر روايات أخرى بأن سودة كانت قد كبرت وبها حدة وكان هذا سبباً في نيته بفراقها. ولم تهب سودة ـ رضي الله عنها ـ ليلتها لعائشة في السنة الثامنة، بل قبل هذا التاريخ بكثير.

وقال (أرفنج) لم يكن الرسول ـ ﷺ ـ يحب زوجته سودة حبه لزوجاته الأخريات، فقد أهمل أمرها بعد عدة سنوات) لقد تزوج ـ ﷺ ـ من سودة برغبته، ولم تكن له إلا هي زوجة بعد وفاة خديجة، وكان يساوي بينها وبين نسائه، إلا أنها تنازلت عن حقها لعائشة، وأما الحب القلبي فهو مسألة لم تذكرها الروايات الصحيحة. (إذ ذكرت عائشة أن سودة بنت زمعة حين أسنت، فوهبت يومها لعائشة)[2].

ويقول فيها مونتجومري وات (نستطيع أن نفترض أنّ صلاتها بمحمد كانت صلات خادم بمخدومه)[3].

كيف ذلك، وما هي الوقائع التي تؤكد ذلك التصور والافتراض؟

كل هذا الكلام لم يوثقه الكاتب، ولم يأت بدلائل من التاريخ أو من السيرة. تصحح هذا الافتراض الخاطىء.

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ـ جـ ١١ ـ ص ٣٠.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ـ جـ ٢ ص ٢٦٦.

(٣) محمد في المدينة ـ ص ٢٠٥.

عائشة ـ رضي الله عنها ـ والفكر الاستشراقي

لقد كانت سيرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعلاقتها بالرسول ـ ﷺ ـ أكثر تناولاً من طرف المستشرقين، فلم يخف استغرابهم وتعجبهم من زواجه منها وهي طفلة حسب قولهم وهو شيخ، كما تناولوا حادثة الإفك ودخولها المدينة مع صفوان بن المعطل بكثير من الإغراض، والخيال المريض، ونسبوا إليها الكثير من القضايا التي ليست من حقائق الإسلام الصحيحة والموثوقة بل هي قضايا مثارة لأغراض وأهداف لا تخفى عمن عالج مثل هذه القضايا.

فقد قال لوبون (وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارىء للنساء، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، . . . لم يبال بسن المرأة التي يتزوجها، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين. . .)[1].

وقال (اشتيجليكر هارمان) في كتابه عقائد الإسلام (تحت عنوان العروس البكر) قال: (إن النبي تزوج عائشة وهي طفلة، مع أنّ الزواج يعدّ أمراً غير مفهوم إطلاقاً من وجهة النظر الأوربية. . . إن زواجها بالنبي ـ ﷺ ـ وهي بكر كان ميزة عظيمة تتميز بها عن باقي نسائه)[2] هذه كلّها تفصيلات عن حياة النبي ـ ﷺ ـ وزوجته عائشة في كتاب يتحدث عن عقائد الإسلام، هل لهذه الأمور صلة بأصول العقائد؟

وحينما تكلموا عن حبه لعائشة، صوّروه ـ ﷺ ـ بالضعيف أمام عائشة وجاء في دائرة المعارف في معرض الحديث عن سودة بنت زمعة (. . . وبرم بها النبي حين أسنت، وأهملها، وراح يقضي وقتاً طويلاً مع عائشة الصبية. . .)[3] وكأن عائشة شغلته عن أهم خصوصية له وهي العدل بين زوجاته ـ ﷺ ـ.

---

(١) حضارة العرب ـ لوبون ـ ص ١٢٢.

(٢) عقائد الإسلام ـ اشتيجليكرهرمان ـ عن كتاب الإسلام في مرآة الغرب ص ٤٠.

(٣) دائرة المعارف ـ جـ ١١ ـ ص ٣٠.

ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل جعلوا عائشة تؤثر في الرسول، ليس في عواطفه فقط، بل في أحكامه الشرعية التي يصدرها، وهذا ما ليس من صفته ولا مكانته كنبي ورسول. وقال لا من في دائرة المعارف الإسلامية (إن عائشة كانت لها ضلع في المؤامرات السياسية، وأنها كانت تؤثر في أحكامه)[1].

ولم يفوت المستشرقون حادثة الإفك التي خرجت منها عائشة مبرأة بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١].

لكن المستشرقون أضافوا إلى هذه الحادثة الكثير من الافتراء ودس السموم للنيل من الإسلام وأمهات المؤمنين، ومما جاء في دائرة معارفهم (لقد قامت أزمة حادة، نجمت عن الحادث الذي وقع أثناء عودة النبي ـ ﷺ ـ من غزوة بني المصطلق، وقد صحبته عائشة... وجلست عائشة تنتظر، حتى عثر عليها آخر الأمر شاب جميل هو صفوان بن المعطّل السلمي فعاد بها في حراسة إلى المدينة، وكان ذلك زلّة كبيرة في الظروف التي كانت سائدة آنذاك، وخاصة وأنّ الحجاب كان قد فرض على زوجات النبي ـ ﷺ ـ وكثر القيل والقال وحسم الأمر)[2].

وحادثة الإفك كما ذكرها الإمام ابن العربي وغيره من المفسرين والمحدثين لم يرد فيها ذكر صفوان بأنّه شاب جميل، وصفوان كان قد دخل الإسلام وامتثل لتعاليمه، وعندما رأى عائشة عرفها أنّها زوجة قائده ونبيه محمد ـ ﷺ ـ فعاملها معاملة الشهم والمسلم العفيف كما سنرى في الرواية

(١) نفس المراجع ـ جـ ١٥ ص ٤٢٣.

(٢) دائرة المعارف ـ جـ ١٥ ص ٤٣٣.

الصحيحة والسؤال الذي يطرح، لماذا لم يقذف عائشة، إلا أربعة من أهل المدينة فقط، أحدهما رجل يهودي صاحب الفتن، والآخر شيخ كبير طاعن في السن صدّق هذا الخبر وهو حسان بن ثابت والثالث هو امرأة هي حمنة بنت جحش والرابع هو مسطح بن أثاثة الفقير المعوز الذي كان يكرمه أبو بكر. لكن كل الصحابة والصحابيات لم يتكلّموا بهذا الإفك، وذلك لمعرفتهم بعفة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبشرف وشهامة وحسن خلق صفوان ـ رضي الله عنه ـ.

لقد كانت حادثة الإفك ابتلاء شديداً لعائشة ـ رضي الله عنها ـ ودخولها المدينة مع صفوان بن المعطل الصحابي الجليل، لم يثر ثائرة المسلمين وعددهم كبير بل أول من روّج لهذه الحادثة هو اليهودي ابن أبي سلول وثلاثة من المسلمين.

لكن المستشرقين الذين حاولوا نقل هذه الرواية بموضوعية دسوا السم في الدسم، ماذا يهم القارىء إذا كان صفوان بن المعطل شاباً جميلاً، وهذه الصفة لم تذكر في المصادر الموثوقة، لكن المستشرقين بذكرهم لهذه الصفات، جاء من بعدهم من يقول بأن عائشة ملّت من الرسول ـ ﷺ ـ وخاصة وأنّها شابة صغيرة وهو شيخ فاتفقت مع هذا الشاب وبالتالي أوجدت حيلة للتخلص من زوجها والجيش وتخلفت لموعد قد عقدته مع صفوان، ومثل هذا الكلام تقرأه كثيراً في كتابات النساء المستشرقات والمستغربات ومنهن فاطمة المرنيسي وغيرها.

وهذا بروكلمان المستشرق الألماني الذي يعده الكثير من الباحثين المسلمين منصفاً وموضوعياً يكتب عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيقول (... فاتفق مرة أن أضاعت الزوجة المفضلة عائشة بنت أبي بكر قلادتها، فخرجت تبحث عنها مساء، ففاتتها قوافل الغزاة، ولم تعد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي، برفقتها شاب كانت قد عرفته من قبل، وتطرق الشك في

إخلاص عائشة إلى النبي - ﷺ - فردّها إلى أبويها، ولم يلبث أن برأها القرآن)[1].

هذا ما قاله بروكلمان عن حادثة الإفك، وفي كلامه الكثير من الافتراء والإشارات المغرضة، وإلا ما معنى قوله (وكانت قد عرفته من قبل).

وما دخل معرفتها له بدخولها معه وما هي العلاقة التي أراد أن يربطها بروكلمان بين دخوله بها المدينة ومعرفتها له؟.

ثم ما معنى قوله: (وتطرق الشك في إخلاصها للنبي) ولماذا لم يتطرق الشك في كونها ارتكبت جرماً لا يستساغ من المرأة الحرة وهو الخلوة برجل أجنبي؟ وجاء كلامه في إخلاصها للنبي - ﷺ - ومعناه أنّها تريد الشاب الوسيم والجميل...؟

ثم أن النبي - ﷺ - لم يردّ عائشة إلى بيت أهلها بل هي التي استأذنت لما كانت مريضة كي تذهب إلى بيت أهلها فسمح لها - ﷺ - والرواية الصحيحة التي ذكرها ابن العربي روى ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن أبي وقاص وعبيدالله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة زوج النبي - ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا... وقالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، وخرجت مع رسول الله - ﷺ - بعدما نزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - ﷺ - من غزوته تلك وقف، ودنونا عن المدينة قافلين، أذن ليله بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رجلي، فإذا عقد لي فقد انقطع فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل

---

(١) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - دار العلم للملايين بيروت - ١٩٩٣ - ص ٥٤.

الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه...

وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عن منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه، حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة، وما سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك.

وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر شيئاً من ذلك... وأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، قالت: وازددت مرضاً على مرضي. قالت: فلما رجعت إلى بيتي، ودخل علي رسول الله فسلّم، ثم قال: «**كيف تيكم**» قالت: أتأذن لي أن آتي أبوَي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما...

فقال رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت من أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي...**» وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فشهد رسول الله - ﷺ - حين جلس ثم قال: «**أما بعد عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب**

فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»... قلت: «أنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم إني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني بريئة، لتصدقونني، والله ما أجد لي ولكم إلا قول أبي يوسف: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون).

قالت: ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أنني بريئة، وأن الله سيبرئني، ولكن ما كنت أظن أنه ينزل في قرآن ويتلى... ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ ﷺ ـ رؤيا في النوم يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله مكانه، وما خرج من أهل البيت حتى أنزل الله عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق. وهو في يوم شات من ثقل القول عليه. فلما سري عن رسول الله سرى عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها: «**أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك**». وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ...﴾[1].

هذه هي إذن الرواية الصحيحة التي أوردها العلماء في حادثة الإفك وكيف جرت وقائعها، وهي تدل على ظرف عصيب مرت به عائشة ـ رضي الله عنها ـ نتيجة زور وافتراء قام بترويجه ابن أبي سلول المنافق الكبير، وقد حكت عائشة القصة عن نفسها بكل التفاصيل وهي تثني على صفوان وشهامته وتعتز بنفسها وببراءتها.

---

(١) أحكام القرآن ـ ابن العربي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ـ مج ٣ ص ٣٥٨ ـ ٣٦٦.

زينب بنت جحش والفكر الاستشراقي:

كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ وعلاقتها بزيد، وزواجها من الرسول ـ ﷺ ـ موضوعاً وحدثاً هاماً للفكر الاستشراقي الذي تناول حياة الرسول والإسلام عموماً.

فبعدما تكلموا عن عائشة كلاماً كثيراً، جاء دور زينب التي وجدوا في قصتها، منفذاً للتلفيق والتشويه وإبراز حقائق الإسلام بصورة مزورة ومشوهة ومنفرة وهذا من أهم مناهجهم.

قد جعلوا علاقة الرسول ـ ﷺ ـ بزينب علاقة حب وعواطف متأججه، إغراء من جانبها واستسلام من جانبه، كما حاولوا إبراز أمر غريب خارج عن العادة وهو زواج محمد من زوجة ابنه وهي عادة قبيحة ومرفوضة في مجتمع الشرق ـ وكل هذه الوقائع والروايات إما نقلها هؤلاء المستشرقون من المصادر العربية والتاريخية ككتب التفسير والسير والتاريخ الإسلامي، كتاريخ الطبري والنيسابوري وابن الجوزي والبيضاوي وكذلك كتب التفسير لهؤلاء العلماء. وهي روايات اعتمدتها عائشة بنت الشاطىء ـ رحمها الله ـ في كتابها (تراجم سيدات بيت النبوة) في الفصل الذي تحدثت فيه عن زواج النبي ـ ﷺ ـ من زينب بنت جحش وهي كلها روايات ضعيفة ردها المحققون من المفسرين كالقرطبي وابن العربي كما سنرى فيما بعد.

ومما قاله هؤلاء المستشرقون ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية.

وفي هذا السياق يقول أيضاً غوستاف لوبون عن هذا الزواج (. . . فأطلق محمد العنان لهذا الحب، حتى أنه رأى اتفاقاً زوجة ابنة بانبي، وهي عارية، فوقع في قلبه منها شيء، فسرحها بعلها، ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون، فأوحى إلى محمد بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يومياً آيات تسوغ ذلك. . . فانقلب الإنقياد إلى سكوت) في هذا النص مغالطات كثيرة منها:

ـ عدم تحكم الرسول ـ ﷺ ـ في عواطفه.

ـ إكراه الرسول ـ ﷺ ـ لزيد حتى يفارق زوجه وكأنه أخذها منه بالقوة.

ـ موافقة القرآن لأهواء الرسول ـ ﷺ ـ.

ـ إغراء زينب للرسول ـ ﷺ ـ حين رآها وهي عارية.

هذه المغالطات غير صحيحة بدليل النصوص التي أمر فيها الرسول ـ ﷺ ـ زيداً بأن يمسك زوجه ويصبر عليها.

لم يوافق القرآن أهواء الرسول ـ ﷺ ـ حينما اغتم المسلمون لهذا الأمر على حد قول هذا المستشرق، فنزل القرآن ليسكتهم، لماذا يغتم المسلمون، لو قال المؤلف وتعجب المسلمون لكان موضوعياً، لأن زيد كان متبنى الرسول ـ ﷺ ـ والعرب ترى في المتبنى ابناً، فنزل القرآن يبطل هذه العادة. وأما قوله: ورآها عارية فهذا ما لم يوجد في أي مصدر عربي من تفسير أو تاريخ أو سير.

فقد أورد الطبري وابن سعد وغيرهما الرواية بوصف زينب (جاء رسول الله ـ ﷺ ـ بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد إنما يقال له: زيد بن محمد... فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فضلاً فأعرض رسول الله عنها...)[1] وكلمة فضلاً لا تعني عارية بل تعني لباس البيت. لباساً خفيفاً، والحجاب لم ينزل بعد، فالفرق شاسع بين عبارة فضلاً وعبارة «عارية» هذا إذا سلمنا بصحة الروايات.

وهذا المستشرق (إميل درمنغم) يقول في كتابه: «حياة محمد» (شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء... ودخل محمد ذات

---

(١) وهذه الروايات ضعيفة.

يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بني النضير، وكان زيد في ذلك اليوم غائب عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زوجة زيد زينب بنت جحش التي كانت أجمل فتيات قومها، وكانت زينب هذه آنذاك سافرة شبه عارية، وعاملة على زينتها وادارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض في نفسه، فقال: «**سبحان مقلب القلوب**»، ولم ينطق بغير هذه الكلمة، وانصرف حالاً، قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك وبدا الوضع محيراً إلى الغاية...)[1].

لم يختلف هذا الكلام عن سابقه الذي قاله لوبون، وإن كان هذا خفف من عبارة عارية فقال: سافرة شبه عارية، إلا أنه زاد في وصف زينب بالجمال والشباب والفتنة والجاذبية، لتنصرف الأذهان إلى صحة هذا القول، لا إلى تكذيبه ومعرفة السبب الحقيقي لهذا الزواج.

وقال المستشرق (مونت جرمري وات) في كتابه محمد في المدينة (وقد ذهبت ـ أي زينب ـ إلى المدينة وأخوتها وزوجها محمد بالرغم عنها من ربيبه زيد بن حارثة، وقد ذهب محمد، فيما بعد حوالي السنة الرابعة للهجرة إلى بيت زيد، للتحدث إليه، وكان زيد غائباً فشاهد زينب وهي عارية فأحبها، كما يقول ونتلوه فمضى وهو يقول لنفسه: «**سبحان الله مقلب القلوب**»)[2]. يوافق هذا المستشرق غيره، ويذكر الرواية الضعيفة التي ذكرتها مصادر كثيرة، وصور هو وغيره اندهاش الرسول ـ ﷺ ـ عند رؤيته لزينب وتسبيحه لرؤيتها، وكأنه لأول مرة، يراها مع أنها كانت ابنة عمته وهو الذي زوجها لزيد، والشيء الذي ذكره هذا المستشرق ولم يذكره غيره وهو جعله زيد بن حارثة ربيب النبي والحقيقة ليست كذلك. فشرعاً الربيب هو ابن الزوجة والنبي ـ ﷺ ـ لم يتزوج أم زيد ـ رضي الله عنه ـ وقد أضاف بودلي

---

(١) حياة محمد ـ إميل درمنعم ـ ترجمة عادل زعيتر ـ ص ٢٩٩.

(٢) محمد في المدينة ـ مونتجرمري وات ـ ترجمة شعبان بركات ص ٣٤.

تفصيلاً آخر لهذه الحادثة من خياله الغريب، ملفقاً تهماً لا أساس فيقول (وفي يوم من الأيام ذهب محمد ليزور زيد... ثم دخل البيت حيث اطلع على زينب الفاتنة، وكانت نصف عارية، فأثر هذا في عواطفه حتى قال: «**سبحان مقلب القلوب**»، ثم هرول خارجاً في ارتباك، رأت زينب محمد في عينيها، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف تعلق بما قال. فقدرت ما سيعقب هذا القول. فلما عاد زوجها أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلاً، وأضافت تفاصيل قليلة من عندها... وكانت لزينب أفكار آخر: فكانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء، وكانت متيقنة من إحسانه نحوها، وكانت ضاقت ذرعاً بزيد وكانت ترغب في أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيماً، فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم، وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج، ثم ضم زينب إلى زوجاته فابتدأت المتاعب)[1].

لقد جعل هذا المستشرق زينب ـ رضي الله عنها ـ تدبر المكائد وتحيك الحبل لتسقط محمداً ـ ﷺ ـ في شباكها، ومن أجل الوصول إلى غرضها، اتخذت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل الوصول إلى غرضها، كسرد قصة موقف الرسول ـ ﷺ ـ منها حينما جاء يبحث عن زيد وكإحداث مشاكل والنفور من زيد والتكبر عليه من أجل أن يطلقها وتتزوج محمداً ـ ﷺ ـ هذه الأمور كلها لا تتصف بها امرأة مؤمنة عادية، فكيف بصحابية جليلة مهاجرة اتفقت كل الروايات الصحيحة، على إيمانها الصادق والتزامها بالشرع، وخوفها من الله ـ تعالى ـ والابتعاد عن المحرمات. قالت عنها عائشة ـ رضي الله عنها ـ (كانت زينب هي التي تساميني من أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ ولم أر قط امرأة خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً

(١) حياة محمد ـ بودلي ـ ص ١٢٥.

لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل. . .)[1].

ويرجع الكثير من الباحثين تصوير صورة زواجه - ﷺ - من زينب وأسباب هذا الزواج: من طرف المفسرين والمؤرخين والمستشرقين إلى ذلك النصراني يوحنا الدمشقي الذي كان يعيش في عهد عبد الملك بن مروان، وهو الذي دس أول فرية وقصة مبتكرة وملفقة تناقلها الناس فيما بعد، من أن النبي - ﷺ - عشق زينب بنت جحش وأراد زواجها، فراحت هذه الرواية في عهد تابعي التابعين، فأوردها المفسرون والمؤرخون وكانت الروايات ضعيفة وموضوعة بينها الكثير من العلماء المحققين.

وقد اتبع المستشرقين نفس هذا المنهج ونقلوا القصة كما أوردها يوحنا الدمشقي منهم درمنغم وموبرو وأرفنج ولامنس وتشيريجو وبودلي ولوبون وغيرهم وأوردوا هذه الشبهات:

١ ـ تزوجه من حليلة ابنه مع نهيه على التزوج من حلائل الأبناء.

٢ ـ زواجه من زينب كان نتيجة حب وقع في نفسه عند رؤيته لها وخلوته بها عند غياب زوجها.

٣ ـ إشارة القرآن الكريم إلى هذه العلاقة القلبية بين زينب والرسول - ﷺ - ولهذا عاتب الله رسوله على كتمان هذا الميل القلبي.

٤ ـ تصوير زينب - رضي الله عنها - بصورة المرأة اللعوب، التي تريد أن تثير الرسول - ﷺ - بتبرجها وإغراءها له.

٥ ـ أنه - ﷺ - رجل شهواني تذوب شخصيته في مخادع النساء.

هذا وقد كتب علماء الإسلام يردون عن هذه الشبهات الكثيرة فهذا الأستاذ محمد حسنين هيكل يقول (أما قصة زينب بنت جحش وما جعلوها

---

(١) انظر صحيح مسلم - جـ ٤ - ١٨٩٩.

قصة غرام ووله، ويكفي لحضر هذا الادعاء، أن زينب هي ابنة عمته، ربيت ببيته وعنايته، وكان يعرفها معرفة جيدة وهو الذي خطبها لزيد، وما قصة رؤيته لها ضرب من الخيال فقد كان يراها قبل زواجها، وقبل نزول الحجاب، فلا معنى لما يردده هؤلاء، فهذه شهوة للتبشير تارة، والتبشير باسم العلم تارة والخصومة القديمة للإسلام تارة أخرى)[1].

وقال عباس محمود العقاد في هذا الأمر (ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها في قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام، كما شاعت في القرون الوسطى. وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد، لا شك فيه من أخبارها الكثيرة وهو أن زوجة زيد كانت ابنة عمته والنبي ـ ﷺ ـ هو الذي زوجها من زيد، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها من مولاه ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها، وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ويكفي أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها. وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين، ليعرفوا القصة المحرفة... تلك القصة التي أرسلوها في غياهيب القرون الوسطى لينظر الناس في ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها خلق الإنسان، ويعاف الدين الذي يدعو إليه من أجله...)[2].

هذه ردود بعض العلماء عن مزاعم المستشرقين حول قصة زواج الرسول ـ ﷺ ـ من زينب ـ رضي الله عنها ـ وسبق القول أن المستشرقين اعتمدوا على الروايات الموجودة في المصادر الإسلامية من تاريخ وتفسير وغيرها.

وقلنا أن المحققين من المفسرين ردوا تلك الروايات الضعيفة كابن

---

(١) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل.

(٢) عبقرية محمد ـ عباس محمود العقاد.

العربي والقرطبي والألوسي الذين رجحوا رواية الحسن بن علي من أن الله أعلم رسوله ـ ﷺ ـ بأن زينب ستكون من أزواجه، وأنه أخفى ذلك حياء، وهذا الذي كان يخفيه في نفسه. وقالوا: هذا الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين.

كما قالوا: إن مثل هذا الأمر، وهو أنه لما رأى زينب وقع في حبها... قالوا لا يصح وأن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية، لم يقدروا مقام النبوة حق قدره، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها.

وإنما الصحيح منها ما روي عن عائشة أنها قالت (لو كان النبي ـ ﷺ ـ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بمعنى الإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ فأعتقته ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأن الرسول ـ ﷺ ـ لما تزوجها ـ أي زينب ـ قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وكان الرسول ـ ﷺ ـ تبناه صغيراً، فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذه هي الروايات الصحيحة، وما عداها فهي أخبار إسرائيلية تسربت إلى كتب التفسير والسير، استغلها المستشرقون لأغراضهم التي لا تخف على أحد.

الفصل الخامس

نظام الأسرة في الإسلام والفكر الاستشراقي

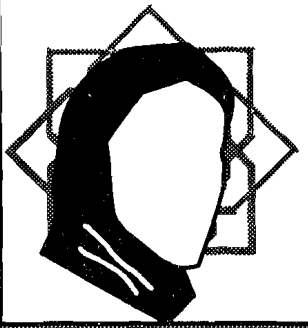

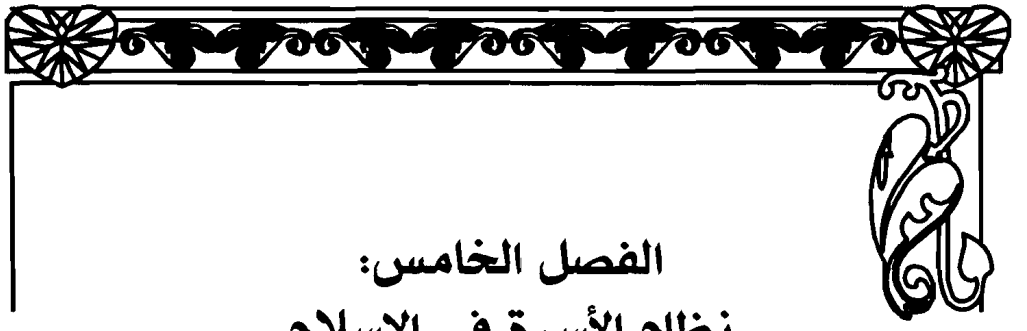

الفصل الخامس:
نظام الأسرة في الإسلام
والفكر الاستشراقي:

من المحاور التي درسها المستشرقون محور الأسرة المسلمة، فقد كتبوا عن نظام الأسرة في الإسلام في مختلف الدراسات والأبحاث التي نشرت، وأقحموا هذا الموضوع في كل الميادين العلمية، في علم الاجتماع وفي التاريخ، وفي الفقه، وفي السيرة وغيرها...

وعند كلامهم عن نظام الأسرة في الإسلام، لم يهملوا طبعاً الكلام عن وضعية المرأة داخل الأسرة، والهدف عندهم من كلامهم عن الأسرة، هو الحديث عن المرأة المسلمة وتصوير وضعيتها بالمزرية وغير العادلة داخل الأسرة فإن تكلموا عن علاقة المرأة بالرجل داخل الأسرة صوروا الرجل بالوحش والظالم والمستبد والمتحكم في كل شيء، وإن تكلموا عن المهر جعلوه ثمن لشراء الزوجة وعوض عن صفقة تتم بين الزوج والأب وتكون المرأة سلعة.

وإن تكلموا عن الخطبة صوروا المرأة بأنها مغلوبة على أمرها لا حق لها في إبداء رأيها ولاتستشار في اختيار زوجها وإن تكلموا عن حقوق الزوجة صوروها بأنها لا حقوق لها على الإطلاق بل هي الأمة والخادمة والمنقادة انقياداً تاماً لزوجها.

هذه صورة المرأة داخل الأسرة في الإسلام عند المستشرقين، الذين شغلوا أنفسهم بكل صغيرة وكبيرة عن الشرق، دون موضوعية ولا تحر للحقائق، بل هناك خلط كبير في كتاباتهم بين حقائق الإسلام والعادات وتصرفات الأفراد الخاطئة.

الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، ولا يوجد مجتمع قائماً بالفعل ولا يشتمل على بناءات أسرية على أية صورة من الصور، وجميع الناس في كل المجتمعات ولدوا وتربوا في «أسرة» تتكون كل منها في مجموعها من ثلاثة أعضاء على الأقل ينتميان إلى جيلين (جيل الآباء وجيل الأبناء)، وتحدد معظم القواعد والمعايير الأسرية، وكذلك الضغوط الاجتماعية التي تفرض لطاعة هذه القواعد والمعايير للأبناء والأزواج والآباء طريقة سلوكهم وتعاملهم وشعورهم في هذا النوع من الوحدة البشرية.

(والأسرة في اللغة العربية مصطلح يستخدم ليشير إلى الجماعة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما الذين يقيمون في مسكن واحد.

وفي نفس الوقت يطلق مصطلح عائلة ليشير إلى الأسرة الممتدة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما الذكور والإناث غير المتزوجين والأولاد وزوجاتهم وأبناءهم وغيرهم من الأقارب كالعم والعمة والابنة والأرملة الخ... وهؤلاء جميعاً يقيمون في نفس المسكن ويشاركون في حياة اقتصادية واجتماعية واحدة تحت رئاسة الأب الأكبر أو رئيس العائلة)[1].

ومهما كان النموذج للأسرة النواة أو الأسرة الممتدة فلا يخرج عن كونها أسرة. وهي أقوى نظم المجتمع، فهي النظام الذي عن طريقه يكتسب

---

(١) علم الاجتماع ـ محمد عاطف غيث ـ دار المعارف ـ ص ١٠ ـ ١٢.

الإنسان إنسانيته، ولا يمكن صياغة بني الإنسان سوى تربيتهم في أسرة، فهي إذن المهد الحقيقي للطبيعة الإنسانية.

ويرى الباحثون في علم الاجتماع أن الأسرة أحد مقومات الوجود الاجتماعي في المجتمع الإنساني، وهي لذلك تعتبر نظاماً عالمياً.

هذا هو مفهوم الأسرة عموماً، ونظام الأسرة في الإسلام هو نظام متكامل، حيث حدد الشرع حقوق وواجبات الزوجين، تحديداً فيه الكثير من العدل والتساوي، وتبادل الأدوار حسب كل جنس فللمرأة دورها الفعال داخل الأسرة، والرجل كذلك دوره الفعال داخل الأسرة. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقال الرسول ـ ﷺ ـ: «**النساء شقائق الرجال**»[1].

والزوجية سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، وهي عامة مطردة، لا يشذ عنها عالم الإنسان، أو عالم الحيوان، أو عالم النبات، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

وقد تولى الشرع رعاية عقد الزواج، وذلك بوضع نظام ملائم، فجعله من مقاصد الشريعة، حفظ النسل وحفظ النفس، ولا تحفظ النفس البشرية وترعى إلا في الأسرة، كما راعى حفظ النسب والنسل، لأن ضياعها يؤدي إلى الفوضى في الأعراض والأنساب.

كما حدد الشرع حقوق وواجبات الزوجين، وكيفية إجراء العقد وكيف يعيشان وإذا حصل بينهما مشكل، كيف ينفصلان بالمعروف وما يثبت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

لكليهما من حقوق مادية ومعنوية أثناء قيام الزوجية وأثناء انحلالها وبعد انجلالها.

إلا أنّ المستشرقين، إما لعدم اطلاعهم الجيّد على نظام الأسرة في الشريعة اطلاعاً واسعاً أو لنواياهم التي لا تخف على أحد، أو لملاحظاتهم لتصرفات بعض الأفراد الخاطئة في المجتمع المسلم... كتبوا الكثير عن الأسرة المسلمة، فهذا (روم لاندو) يقول (لما كانت عادات الزواج في الإسلام، مصدر اهتمام مشوش في الغرب كان من الخير أن نقول كلمة في بعض تلك العادات التي اكتسبت صفة القانون...)[1].

فهذا المستشرق يعترف بأن نظام الأسرة في الإسلام فيه الكثير من الخلط للحقائق عند الغرب، وتحريفها وفهمها على غير ما أرادها الشرع.

وكتب جاك ريسلر (الأسرة الإسلامية تدين في تكوينها للسلطة التي يتمتع بها رب الأسرة، والتي تبدو كبيرة ومفرطة في نظر الغربيين)[2]. فجاك ريسلر جعل نظام الأسرة منوطاً بالأب فقط، وألغى دور الأم التي هي الزوجة وهكذا نجد كلّ أقوالهم فيها تصريح أو تلميح لإلغاء دور المرأة داخل الأسرة أو تقزيمه وجعله ثانوياً.

فيقول بهذا الصدد جاك ريسلر دائماً (إن مكانة المرأة على صعيد الزواج هي وضعية انقياد تام... فهي رفيقة متعة الرجل للحظة وخادمته على الدوام)[3].

وهناك من المستشرقين من ينسب وضعية المرأة المسلمة المتدهورة إلى القرآن الكريم (إن القرآن قليل الرأفة بالنساء... ومع ذلك فإن القرآن أسبغ

---

(١) الإسلام والعرب ـ روم لاندو ـ ترجمة منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ص ٢٠٢.

(٢) حضارة العرب ـ جاك ريسلر ـ ص ٥٩.

(٣) نفس المرجع.

موهبة الكمال على امرأتين هي آسيا زوجة فرعون ومريم أم عيسى وسيضيف محمد إليهما زوجته خديجة وابنته فاطمة. . .)[1].

هكذا نجدهم يحاولون بشتى الطرق الحط من وضعية المرأة والافتراء على الله ورسوله في كل مناسبة، فالرسول ـ ﷺ ـ لم يضف إلى زوجته وابنته إلى آسيا ومريم النساء الكاملات من تلقاء نفسه بل بوحي.

والكلام عن الأسرة في الإسلام لا يخرج المستشرقين عن الكلام عن تعدّد الزوجات (كانت الحياة العائلية محكومة بأحكام النص المنزّل، ولو أن هذه الأحكام لم تفعل في الغالب، سرى تكريس بعض العادات السابقة، مع إدخال بعض التعديلات، ومن ذلك تعدد الزوجات غير المحدود في حال الجواري والمنظم بتحريم القرآن لاتخاذ أكثر من أربعة زوجات شرعيات، وهذا عنصر هام يتحكم بالسلوك الفردي، كما بالتنظيم الداخلي للمدينة الإسلامية التي بقيت فيها بعض الأعراف العربية ما قبل الإسلام)[2].

ومع أن الأسرة نظام عالمي وإنساني، وتعدد الزوجات في الإسلام له أحكامه وشروطه التي تختلف عن تعدد الزوجات في الأمم والمجتمعات السابقة واللاحقة، إلا أن المستشرقين يرون في الأسرة المسلمة خللاً واضطراباً ويقول روم لاندو عن نظام الزواج والأسرة في الإسلام (كان أول عامل أثر في نشأة الشرع الإسلامي ذلك التبني الطبيعي للعادات الوثنية التي كانت سائدة بين بدو الجزيرة العربية وقرويتها كانت المتعة أو الزواج المؤقت معروفة عند هؤلاء القوم فتسامح بها النبي، أما اليوم فلا يجيز المتعة غير مذهب فقهي إسلامي واحد، وكذلك اقتبس المهر عن الأعراف قبل

(١) المؤسسات الإسلامية ـ غودفروا ديموميين ـ ص ١٧٣.

(٢) الإسلام والعرب ـ روملاندو ـ ص ١٨٨.

الإسلام، حيث كان في الواقع ثمن شراء، وقد عدّل الإسلام بهذه الفكرة من صفقة تجارية خالصة إلى ضرب من هدية زفاف)[1].

هذا الكلام يبدو موضوعياً وسليماً وصحيحاً إلى حد بعيد، إلا أنّ الذي يتابع قراءة هذا الكتاب (الإسلام والعرب) يجد هناك تناقضاً وخلطاً كبيراً في الفقرات التي تتحدث عن الأسرة، فكلامه عن المهر في هذه الفقرة يناقض ما قاله فيما بعد (والواقع أنّ تعديلاً كبيراً طرأ على المهر من حيث القصد أو الغرض المراد منه، لكن الشكل ظل كما كان، إنّ جزءاً من المهر فحسب يدفع عند الزفاف، ومن المفروض يصطنعه والد العروس في تجهيزها، فإذا انحلت عقدة النكاح تعيّن دفع بقيته إلى أبي العروس، وذلك رادع فعال يحول دون استعجال الطلاق)[2].

هذا التفصيل في مسألة المهر فيه شيء من أحكام المذهب الحنفي، الذي يجيز دفع المهر على دفعتين معجل ومؤجل إلى وقت محدّد بطلاق أو وفاة، وهو عادة عن بعض الشعوب الإسلامية دون غيرها ولكن لماذا يدفع المهر أبي العروس؟ فهذا لم ينص عليه المذهب الحنفي ولا المذاهب الأخرى فالمهر حق خالص للزوجة، فإن كان هذا المستشرق قد جعل العادات والأخطاء التي تصدر عن بعض الناس شرعاً فهو مخطىء لا محالة. وقال في زواج المتعة وكان قد ذكر من قبل أنّ الشرع حرّمه إلا مذهب واحد (وأجازت الشريعة الزواج المؤقت المعروف (بالمتعة)، ولكن العرف قضى بأن يعقد المحترمون من الناس أمثال هذه العقود إذا رغبوا في ذلك لأجل لا يقل عن ٩٩ عاماً)[3].

وتكلم هذا المستشرق عن الطلاق ووصفه باليسر ولعله يشير إلى

---

(١) الإسلام والعرب ـ روملاندو ـ ص ٢٠٢.

(٢) نفس المرجع.

(٣) الإسلام والعرب ـ ص ١٨٨.

المسيحية التي تعتبر الطلاق صعباً ويقول (الطلاق يسير، نسبياً على المسلم، فليس عليه حتى تنفصم رابطة الزوجية إلا أن يعلن عن رغبته بكلام ملفوظ في ثلاث مناسات مختلفات. أما المرأة فلا تستطيع تطليق زوجها إلا في عسر، ولكن ذلك أمسى في هذه الأيام أيسر منالاً، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**، فإذن فيجب القيام بجميع المحاولات للحؤول دون حدوثه)[1].

يظهر هذا الكاتب قليل البضاعة في مسائل الفقه، إذ يعتبر صورة الطلاق في الإسلام هي الطلاق الثلاث وهو طلاق بدعي ولا تنحل الرابطة بمجرد التلفظ بكلمات في ثلاث مناسبات بل تسبق ذلك محاولات للحؤول دون حدوثه من قبل وهي الصلح. . .

ويقارن هذا المستشرق بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية في مسألة التملك والإرث ويعترف للمرأة المسلمة بالأسبقية في نيل حقوقها المادية إلا أن يصف نظام الميراث بالجائر فالمرأة الغربية لا ترث لا نصفاً ولا غيره (يوم كانت النسوة يعتبرون في العالم الغربي مجرد متاع من الأمتعة ويوم كان القوم هناك في ريب جدي من أن لهن أرواحاً، كان الشرع الإسلامي قد منحهن حق التملك، وتلقت الأرامل نصيباً من ميراث أزواجهن، ولكن البنات كان عليهن أن يقنعن بنصف حصة الذكر وفي ضوء التطور العصري قد يبدو واضحاً أنّ أمثال هذه القوانين الخاصة بالإرث لا تخلو من جور. . . ولكن علينا أن لا ننسى أنّ الأبناء الذكور وحدهم كانوا حتى فترة حديثة نسبياً ينالون في الديار الغربية حصة من الإرث)[2].

هذه آراء روم لاندو في نظام الأسرة الإسلامي وهو أستاذ الدراسات

---

(١) نفس المرجع ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٢.

الإسلامية والشمال افريقية في جامعة المحيط الهادىء وكاليفورنيا وبوصفه مترجم كتابه «الإسلام والعرب»، منير البعلبكي بأنّه من المعتدلين والذين لهم إعجاب كبير بالعرب وبآثرهم.

وهذا جاك ريسو يخصص جزء من كتابه «حضارة العرب» للحديث عن المجتمع الإسلامي، ووضعية الأسرة، والمرأة في هذا المجتمع، ولا يختلف عن غيره في إبراز بعض الحقائق ونقلها صحيحة، وتشويه الكثير منها فعند كلامه عن المرأة داخل الأسرة يقول: (إنّ مكانة المرأة على صعيد الزواج هي وضعية انقياد تام، تصحح إلى حد ما السلطة التي تسمدها من مفاتنها بشكل طبيعي، لكن مصيرها الحقيقي سرعان ما ينزلق وفي لحظات معدودات من موقع عبادة الحب إلى موقع العمل المضني على امتداد حياتها كلّها، فهي رفيقة متعة الرجل للحظة وخادمته على الدوام، لكن محمداً رأى أن من واجبه السعي لتحسين مكانتها الاجتماعية، وعليه فإنّ المرأة وضعت على قدم المساواة مع الرجل على صعيد التقاضي في موضوع الأموال والأملاك، فهي من الآن فصاعداً يمكنها أن ترث وأن تشهد وأن تمارس مهنة مشروعة، ومع ذلك بقي موقعها محصوراً في المنزل وفي إنجاب الأولاد، فيه (حرث لكم) واحترامها يتوقف على خصوبتها، وهذا الأمر طبيعي في مجتمع زراعي بطريكي (أبوي)، كما أن النبي رسم لها واجبها (كل امرأة تموت وزوجها راض عنها ستدخل الجنة) وانطلاقاً من هذا الشرع، يمكن أن تكون عقوبة الخيانة الزوجية الموت، والحقيقة أنّ تعدد الزوجات يخفض الغوايات الخارجية إلى أدنى حد إذ أن الشريعة الإسلامية توطّد الأسرة وتسوغ في الوقت ذاته عقوبة الزوج الزاني)[1].

وقال في شأن الخطبة (لا تستشار الفتيات أبداً في اختيار أزواجهن).

---

(١) حضارة العرب ـ جاك ريسلر ـ ص ٥٩ ـ ٦٠.

ويقول عن علاقة المرأة بالرجل (والمرأة ملزمة بطاعة الرجل، وإذا تمردت عليه، فمن حقه أن يجلدها، إلا أن القرآن يذكر الرجال بأنّ أمهاتهم قد حملنهم وهن على وهن وأنجبتهم وأرضعتهن وأنّ الجنة تحت أقدام الأمهات كما يقال)[1].

هذه آراء جاك ريسو في نظام الأسرة الإسلامي، ووضعية المرأة المزرية داخل الأسرة ابنة وزوجة، فهي لا تستشار في اختيار زوجها وإذا تمردت تجلد؟ وعملها داخل الأسرة شاق ومضني، ولا احترام لها إلا إذا أنجبت عدد كبير من الأولاد الذكور؟...

ولا يعترف الإسلام بالمرأة ولا يوليها مكانة إلا إذا كانت أماً. ولا يخرج المستشرق ريمون شارل على منهج سابقيه فهو يقول في نظام الأسرة في الإسلام (إنّ خضوع المرأة لزوجها كان الأصل في قانوننا القديم. والنصوص التي اتخذتها الثورة الفرنسية، انفردت بسن المساواة القانونية المطلقة، فعدلتها المجلة المدنية للتي حددت حقوق الزوجة، ثم عادت المرأة شيئاً فشيئاً إلى اكتساب هذه الحقوق بفضل القوانين اللاحقة، وهكذا لم تكتسب المرأة المساواة إلا بعناء...

أما المحتوى الهيكلي لمؤسسة الزواج الإسلامي، فإنها بقيت في وضعها القديم العتيق الذي يباين مصالح القرينين، فالمرأة لا تدخل في أسرة زوجها، وليس هناك شيوع في الأموال... والحق يقال أنّ سيطرة رئيس الأسرة، وسيطرة الذكور المطلقة تغطي هذا التباين المزعوم، وتجعله وهمياً للغاية من حيث مفعوله المادي، فالسيد والمولى أنيطت بهما مسؤولية الدفاع على النظام الداخلي والخارجي للأسرة... أضف إلى ذلك أن اقتصاد العشيرة المطلق تسوغ هذه الأساليب التعسفية التي تذهب النساء عادة ضحية لها بسبب حرمانهن من الميراث)[2].

---

(١) مناهج المستشرقين ـ ج ٢ ـ ص ١٥٣.

(٢) مناهج المستشرقين ـ جـ ٢ ـ ص ١٥٢.

هكذا جعل هذا المستشرق الثورة الفرنسية هي مصدر الخير والحقوق الكاملة للمرأة، والأسرة المسلمة في نظره لم تتطور ولم تتحسن وضعية المرأة مع مرور الوقت، إذ بقيت المرأة تابعة للرجل وتحت سيطرته. . . واعتبر شارل أن السبب في كلّ ما يحدد نظام الأسرة هو الفقه الذي ضيق على الناس حرياتهم وأن تعاليم ومقاييس الفقه تحاصر الإنسان من كل ناحية، وهو بذلك يفقد إنسانيته ويتحول إلى آلة تؤدي إلى الجمود والتوقف عن الاختراع والابتكار والتطور فحياة المسلمين اليومية في نظر المؤلف (غير طبيعية إذ هي تخضع دوماً وبصفة لا مناص منها لمقاييس تعاليم الفقه التي ضبطها وجمدها وأدنى جزء يأتها بحيث لم تبق أية إمكانية للتصرف الحر عند المسلمين، فهم لا يتصرفون في جميع أقوالهم وأحاسيسهم، إلا طبقاً لهذه التعليمات التي تفننت في تقنين جميع أنواع السلوك البشري، سواء أكان ذلك على المستوى الفردي أم الجماعي أم كان ذلك على صعيد الفكر أم في مستوى التعايش الاجتماعي أم المعاملات الاقتصادية أم العلاقات السياسية فالفقه لم يبق كبيرة ولا صغيرة إلا وأصدر فيها مقولة أصبحت بمثابة الحاجز بين الإنسان المسلم وحياته مما جعل الفقه سلباً للوجود ونفياً للحرية وطمساً للبصيرة. . .).

هكذا تصبح الشريعة بشمولها ومرونتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان سلباً للوجود ونفياً للحرية وطمساً للبصيرة عند المستشرقين.

ويقول الدكتور عبد الوهاب أبو حجيبة (إن غرض ريمون شارل من إثارة هذه القضايا حسبما يبدو وتفسيرها حسب أهوائه، كان الغرض منه إعطاء صورة مشوّهة عن الحياة داخل الأسرة الإسلامية، ولعل ذلك كان بقصد إثارة اهتمام المستعمرين الذين طالما حاولوا انتهاك حرمة المجتمعات الإسلامية، فوجدوا الأسرة وما فيها من تقاليد إسلامية عريقة وتعاليم دينية سمحة وما بنيت عليه من احتشام وحياء وعفة وطهارة تحول دون المسخ

والفرنسة والاغتراب، وبقيت حياة المسلم داخل أسرته أمراً غامضاً مبهماً بالنسبة إليهم، وحين عجزوا عن معرفة حقيقة واقع الأسرة الإسلامية لم يجدوا في نهاية الأمر إلا ما كتب في مؤلفات الفقه أو ما يباع أو يتاجر به في أسواق الفجور فعمموا ذلك على كامل المجتمعات الإسلامية، واستشهدوا بالخرافات والحكايات المتداولة لتسويغ فهمهم، والوصول إلى الغايات التي كانوا يريدون الوصول إليها)[1].

والمستشرقان جورديان تروللر وكلاوده ديفارجه بالغا كثيراً في وصف المرأة المسلمة داخل الأسرة، وبكثير من الافتراء والحقد وتشويه الحقائق قالا: (... إنّه يكفي أن تعبد الرجل، الذي هو الصلة بينها وبين ربها، إن دنس المرأة معد، وقابل للانتقال كوسخ الكلاب والخنازير، ولا يسمح للرجل أن يلمسها، فإذا ما اضطر للمسها فعليه أن يتطهر ويغسل نفسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبعد أن يتنظف من دنس المرأة، يحل له أن يصلي، وأن يقف أمام وجه ربه، هذه ليست خرافات مقرعة كاذبة، إنما أصور بخطوط عريضة فقط طبيعة الحياة النفسية والأرض التي تعيش بها نساء العالم الإسلامي، فيما بين مراكش وباكستان ومركز هذا العالم هم العرب)[2].

إن هذا الكلام هو خرافات مفزعة كاذبة لا تنطبق إلا على من يحسن هذا الكلام لأنّه لا يوجد ولم يقل به لا عالم ولا فقيه إلا من هو عدو لدود للمرأة والإسلام، فالغسل الذي هو واجب على المرأة والرجل أصبح خاصاً بالرجل والحكمة منه هو التنظيف من دنس المرأة، ومن يقول هذا الكلام إلا محرّفو التوراة والإنجيل.

---

(١) نفس المرجع ص ١٥٤.

(٢) الجنس الملعون ـ مقال بقلم جورديان تروللر وكلاوده ديفارجه ـ نشرته مجلة حضارة الإسلام بعد ترجمته من الألمانية إلى العربية ـ العدد ١٠ ـ ١٩٦٦ ـ ص ٦١ ـ ١٠١.

ومن الخرافات التي ذكرها هذان المستشرقان أن المسلمين والعلماء يأمرون (بعلف النساء بالمعكرونة حتى يسمن إذ أن سعر الزوجة يقدر بحسن وزنها، ثانياً: حجز النساء في غرف مظلمة، وتلك عادة معمول بها في كثير من أجزاء العالم العربي حتى يبيض جلدهن وتستدير أطرافهن وأجسادهن... إن زلات الفتيات والنساء في العالم الإسلامي ليست خطايا أو ذنوباً كما هي في المفهوم المسيحي... إن الخطيئة موروثة[1] أو قابلية الإنسان للخطيئة المولودة معه غير معروفة هناك... ومحمد يسمح للمرأة أن تظهر وجهها فقط للرجل الذي باعها أو أهداها إليه أبوها، فالمرأة في نظره غير ناضجة (عقلياً) حتى نهاية حياتها، مسلوبة الحق في تقرير مصيرها والتعبير عن أحاسيسها، تقع مسؤولية سلوكها وأعمالها أولاً وأخيراً على الأب أو الزوج وعلى ذلك فإن الشرف سوف يكون عرضة للألسن إذا أرادت المرأة ألا تكون شيئاً مسلوب الإرادة، بل أن تكون ببساطة مجرد إنسان ولهذا فإنها تسجن وتحتجز وتخفى عن الأعين وترهب فهذا ما يتطلبه شرف الرجل..)[2].

هذه هي إذن صورة المرأة المسلمة عند المستشرقين، سلعة تباع وتشرى لا ذمة لها ولا شخصية ولا حق لها وذنوبها عار وهذه كلّها افتراءات إذا نظرنا إلى الإسلام من جانب النصوص، أي من حيث التنظير، ومن حيث التطبيق وممارسات الأفراد فإن هذه الآراء لا تنطبق على كلّ المسلمين، هذا إذا سلمنا بأن مثل هذه السلوكات موجودة في مجتمع المسلم.

وعلى الرغم من كلّ هذه الصور القائمة، والخرافات المفزعة الكاذبة، والنظرة الاستعلائية، فإن هناك صوراً مشرفة من طرف المستشرقين أنفسهم،

---

(١) في الديانة المسيحية يعتقدون أن الشخص يولد مذنباً وذلك لورثته لذنوب آدم وحواء.

(٢) الجنس الملعون ـ مقال نشرته مجلة نور الإسلام.

الذين اتصفوا بالموضوعية، والدقة وسعة الاطلاع، فقد كتبوا على نظام الأسرة الإسلامي بكثير من الإعجاب والتقدير، وانتقدوا المجتمع الغربي، وقارنوا بين الأسرة المسلمة المنسجمة المتعاونة والتي يؤدي كلّ فرد منها دوره على أحسن ما يرام، وبين الأسرة الغربية المفككة، المضطربة، ومنهم الدكتورة سغريد هونكة التي تعترف أنّ المرأة لم تكن مظلومة، في ظل الإسلام زوجة أو أماً أو بنتاً، وأن علاقة الرجل بالمرأة، علاقة ودّ واحترام وإنسانية، وتعتبر أن الغرب هم الذين أخضعوا المرأة لسيطرة الرجل، لتكفر عما ارتكبته من إثم فتقول (وتزلف الرجل للمرأة وخطبه لودّها، وتقديسه سواء أكان هذا من باب الأدب في المجتمعات، أو كان عن حب صادق، فإنّه لا يتفق مع أصول الحب في المجتمع الجرماني، الذي كان يرنو إلى مساواة تامة بين الرجل والمرأة، مع اعتداد كلّ منهما بنفسه وشخصيته المستقلة، وعارض الكتاب المقدس ذلك المسلك العربي ونصّ أن الرجل سيّد المرأة، ونشطت الكنيسة تحارب الأفكار المخالفة، وتعمل كل ما في وسعها لإبقاء المرأة تحت سيطرة الرجل تبعاً لمشيئة الرب. . .)[1].

إن أبسط مقارنة للنص الذي كتبته كلاوده ديفارجه، وسجريد هونكه وهما مستشرقتان من بلد واحد هو ألمانيا يرى كيف أن كلاودة اعتبرت وضع المرأة المسلمة مزرياً، وكيف اعتبرت سغريد وضع المرأة الغربية مزرياً، وهكذا يؤكد أن كلاودة أسقطت أفكارها المسيحية واليهودية على المرأة المسلمة، وشتان بين الاعترافان.

وتقول سغريد كذلك (ظلت المرأة في الإسلام، تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية، وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون (الفقه) والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد، ويفسرن أحكام

(١) شمس العرب تشرق على الغرب ـ الدكتورة سغريد هونكه ـ ص ٤٦.

الدين، فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحاً لتدرس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجاً عن التقاليد. . .)[1].

هذه هي المرأة المسلمة في ظل الإسلام وآدابه وأحكامه، فهي عالمة وشيخة وفقيهة وأم رحيمة وزوجة محترمة، وليست سجينة وسلعة ودنس كما تراها كلاودة وغيرها.

ويقول مراد هوفمان عن نظام الأسرة في الإسلام صوّر فرجيل غيور غيو مكانة المرأة وأهميتها لدى البدوي تصويراً قديراً في تناوله سيرة الرسول ـ ﷺ ـ مؤرخاً له، تناولاً يمتاز بالشاعرية وعمق الأحاسيس، فراح يقول: (المكانة التي تحظى بها المرأة لدى العربي، لا تكاد تحظى بها لدى سواه من الرجال على ظهر هذه الأرض. . . إنها النعومة التي تميس وسط قسوة الصحراء، متمايلة القد والأعطاف، فتذكرك بميّاس الشجر، محملاً بالثمر، ففي الصحراء تغنيك الغواني الحسان، عن البساتين والجنان، بما فيها مما لذّ وطاب من ثمر وزهر، فهنّ الجداول والغدران، والعطر والريحان وهن الشلالات المنحدرة والينابيع المشقشة المثرثرة. . . فالمرأة في الصحراء أروع وأجمل ما خطر على أرضها، وما أظلته السماء، كل ذلك النعيم، تجمع في جسد واحد، هو جسد حواء)[2].

وقال أيضاً (وقد يعلم القارىء أن القرآن ليس فيه سورة واحدة اسمها الرجل أو الرجال، بينما خصص القرآن سورة كاملة للمرأة تكريماً لها وهي سورة النساء حيث عرض لحقوق النساء ولحياتهن الأسرية، بل إنّ أولى

---

(١) شمس العرب تشرق على الغرب ص ٥٦.

(٢) الإسلام كبديل ـ مراد هوفمان ـ مكتبة العبيكان ـ ط ٢ ـ ١٩٩٧ الرياض ص ١٩٧.

آيات سورة النساء هذه تلمح على أنه لا فرق بين أصل المرأة والرجل، بل تلمح أكثر على المساواة بين الجنسين... ولقد كان النبي ـ ﷺ ـ نفسه بلا ريب، رجلاً بكل ما لهذه الكلمة من مدلول، وكانت المرأة تحتل لديه مكانة عليا، وتتمتع بتكريمه لها، متحملة مسؤوليات كبرى... على أنني أخشى أن هذا الباب يعالج المرأة في الإسلام لن يجد قبولاً على الإطلاق لدى بعض القراء الأوروبيين، لأنّه لا يوائم العصر الذي يسود... وماذا عسى فلسفة الأخلاق المتزمتة المقيدة للإباحة الجنسية أن يبلغ أن نشد في عالم سادر لا يعرف محرّماً أو ممنوعاً، في هذا الميدان؟ أليس الأطفال الصغار أنفسهم ضحية الاتجاه المتزايد للماسوشستيين والساديين والاعتداء الجنسي؟ وما جدوى التغني بالحياة الزوجية وروعتها في عالم اليوم الذي يشهد الاطراد المتزايد في عدد النساء اللائي يصورن على تنشئة أطفالهن دون أب بحيث يكن وحدهن وليات الأمر؟) إن الدكتور مراد هوفمان الألماني المسلم الذي يعرف عن الغرب وفلسفاته المتعددة، استطاع أن يكشف لنا ويبرز صورة المرأة المسلمة ويقارنها بما هو عليه الغرب من تفكك عائلي واضطراب اجتماعي.

وفي نفس السياق يأخذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إلى مقارنة أخرى بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية ويحدد الفرق في الرؤى والفلسفات إذ يقول (أما نحن، فنقدر المرأة من خلال كونها عضواً أساسياً في الأسرة ثم المجتمع، ومن خلال اليقين بأن الأسرة السليمة هي العمود الفقري في المجتمع المسلم، أما هم، فيقدرون المرأة من خلال كونها عضواً أساسياً في أركان المتعة ومن خلال اليقين بأن المتعة هي أول أسرار الحياة وأهم أهدافها، وكلّ ما نراه من فرق بين المجتمعين، الإسلامي والغربي، في الأنظمة والقوانين المتعلقة بالمرأة إنما هو أثر لهاتين الرؤيتين المختلفتين...).

هذا هو إذن باختصار مفهوم الأسرة في الإسلام ووضعية المرأة داخل

هذه الأسرة وهي وضعية المرأة داخل هذه الأسرة وهي وضعية تكريم واحترام ومفهوم الأسرة المسلمة عند المستشرقين بكل فئاتهم المنصفة والمغرضة، وتبقى الأسرة المسلمة هي الخلية الأساسية للمجتمعات الإسلامية ومرآة المجتمع المسلم ومحضن الأجيال المسلمة.

إن غوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب، الذي لم يكن موضوعياً ولا منصفاً عند حديثه عن زوجات الرسول ـ ﷺ ـ نجده عند كلامه عن المرأة في الإسلام والنصرانية ومكانتها يقول: (الإسلام إذن لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل، الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع... وإذا تصفحت كتب التاريخ ذلك الزمن، وجدت ما يزيل كلّ شك في هذا الأمر وعلمت أن عصر رجال الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء، قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى، ومن الأدلة على أهمية النساء الأدبية، وقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في المشرق والعصر الأموي في إسبانيا)[1].

هذا اعتراف بأنّ الإسلام كرّم المرأة، وتدهور وضعيتها ليس عائداً إلى الإسلام وتعاليمه، بل إلى الجهل الذي ساد بلاد الإسلام وظروف الاستعمار ويقول دواميس عن المرأة في الشرق (إنّ المرأة في الشرق تحترم بنبل وكرم على العموم، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق، ولا يجرؤ جندي أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب حتى أثناء الشغب، وفي الشرق يشمل الزوج زوجته بعين رعايته، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأم درجة العبادة، وفي الشرق يدفع الزوج مهراً لزوجته، فلا تجيء الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبة بأكثر من جهازها...)[2].

---

(١) حضارة العرب ـ ص ٤٠٣٢ ـ نفس المرجع ـ ص ٤١٢.

(٢) نفس المرجع ـ ص ٤١٢.

هكذا يكون وصف المرأة الشرقية المسلمة، إذا كان لصاحبه خلفية موضوعية علمية، لا خلفية استعمارية استشراقية.

وقد أحسن لوبون تصوير نظام الأسرة الغربية، فهي أسرة مفككة، تفتقد إلى الاستقرار والتعاون بين الزوجين، فلا سكن ولا استقرار ولا مودة والسبب هو مطالب المرأة الغربية، وإرادتها للمساواة المطلقة بالرجل (قامت المرأة تطالب بالمساواة بالرجل في الحقوق، وفي التربية، وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة في القوة العاقلة، وهي إذا فازت بمطلبها، جعلت الأوربي رجلاً من الرحّل، لا يعرف له بيتاً يؤويه، ولا عائلة يسكن إليها...)[1].

وقد علّق على هذا الكلام الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ بقوله: (كتب لوبون هذا الكلام، منذ ثمانين عاماً تقريباً، وقد تحقق ما قاله عن البيت الأوربي، إلى حد كبير كما يشهد بذلك الأقوال والإحصاءات التي ذكرناها في هذه الملاحق...)[2].

وأخيراً نظرة عامة على حقوق المرأة في الإسلام ومبادئها.

١ ـ إنّها كالرجل في الإنسانية سواء بسواء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]

وقال ـ ﷺ ـ «**النساء شقائق الرجال**»[3].

٢ ـ دفع عنها اللعنة التي كان يلصقها بها رجال الديانات السابقة، فلم يحمّل عقوبة آدم بالخروج من الجنّة ناشئاً منها وحدها بل منهما معاً. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) حضارة العرب ـ لوبون ـ ص ٤١٣.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٢٥٠.

(٣) سبق تخريجه.

٣ ـ أنّها مثله في التدين والعبادة ودخول الجنّة، ومعاقبتها إن أساءت مثل الرجل سواء بسواء، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

٤ ـ حرّم وأدها، والتشاؤم بها والحزن لولادتها، كما كانت تفعل العرب ولا يزال شأن كثير من الأمم ومنهم بعض الغربيين (كما تحققت ذلك بنفسي)[1]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

٥ ـ أمر الإسلام بإكرامها بنتاً وزوجة وأما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ . . .﴾ [الأحقاف: ١].

وقال في شأن الزوجة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [الروم: ٢١].

وقال في شأن البنت «**أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها**».

٦ ـ رغّب الإسلام في تعليمها كالرجل قال ـ ﷺ ـ «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم**» واللفظ عام يشمل الجنسين باتفاق.

٧ ـ أعطاها حق الإرث أمّاً وزوجة وبنتاً كبيرة كانت أو صغيرة أو حملاً في بطن أمها. حقاً خالصاً لها لا تنفق منه إلا بإرادتها.

٨ ـ نظم حقوق الزوجين، وجعل لها حقوقاً كحقوق الرجل في الحياة

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ مصطفى السباعي ـ.

الزوجية وفي إدارة شؤون البيت قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٩ ـ نظم قضية الطلاق بما يمنع من تعسف الرجل فيه، واستبداده في أمره فجعله مرة رجعياً وأخرى وفي الثالث لا يمكن معها الرجوع وهذا احتراماً لكرامة المرأة.

١٠ ـ حدّ من تعدد الزوجات فجعله أربعاً وقرنه بشرط العدل.

١١ ـ جعل المرأة قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وجعل ولايتهم عليها ولاية رعاية وتأديب وعناية بشؤونها، وتنمية أموالها، لا ولاية تملك واستبداد. وجعلها بعد البلوغ كاملة الأهلية وفي الالتزامات المالية فهي كالرجل سواء بسواء، ومن تتبع أحكام الفقه الإسلامي لم يجد فرقاً بين أهلية الرجل والمرأة في شتى أنواع التصرفات المالية كالبيع والإقالة والخيارات والسلم والصرف والشفعة والإجارة والرهن والقسمة والبينات والإقرار والصلح والوكالة والكفالة والحوالة والشركة والمضاربة والوديعة والهبة والوقف والعتق وغيرها.

فالإسلام أحلّ للمرأة المكانة اللائقة بها في المجال الإنساني والاجتماعي والاقتصادي والحقوقي إن كانت ثمة فوارق في بعض الأمور فهي راجعة إلى طبيعة الجنسين.

الفصل السادس

نظام تعدد الزوجات والفكر الاستشراقي

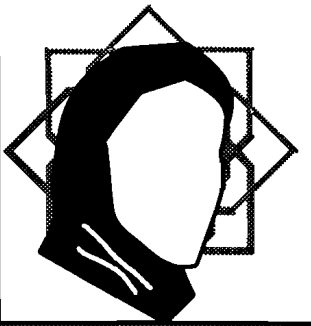

الفصل السادس:
نظام تعدد الزوجات والفكر الاستشراقي

تبعاً للكلام عن نظام الأسرة في الإسلام والفكر الاستشراقي، ذكرنا لأقوالهم وآرائهم في الأسرة المسلمة، فإن الحديث عن تعدد الزوجات لا ينفصل عن هذا المحور، ولعل ما يعرفه الغرب عن الإسلام ـ إن لم يعرفوا أي شيء ـ هو تعدد الزوجات.

وقد شنوا حملة كبيرة وكتبوا كثيراً عن النبي ـ ﷺ ـ وزوجاته، وتساءلوا كثيراً، كيف لنبي جاء لتطهير البشر من الذنوب يتزوج هذا العدد الكبير من النساء، وتارة جعلوا الرسول ـ ﷺ ـ يتخذ نظام تعدد الزوجات وإباحته إغراء الناس حتى يدخلوا في الدين الجديد، وتارة يصفون الرجل العربي بأوصاف سيئة كقلة ذكائه وانغماسه في الشهوات، وجاء الدين الإسلامي ليوافق ميوله وساعده النبي على ذلك...

إن نظام تعدد الزوجات في الإسلام، ليس نظاماً جديداً ولا مستحدثاً، بل هو نظام قديم وجد عند شعوب الأرض القديمة وعند كلّ الأمم والحضارات. وكان هذا النظام لا يخضع إلى ضوابط ولا إلى أحكام عادلة، لا من حيث العدد ولا من حيث المعاملة وإعطاء الزوجات حقوقهن.

والإسلام إذا أبقى على نظام تعدد الزوجات، أبقى عليه بضوابط ومقاييس عادلة، وإن أساء الناس وبعض المسلمين استخدامها ـ فقد قال الله ـ

سبحانه وتعالى ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

وقد روى البخاري أنّ عروة بن الزبير سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن هذه الآية فقالت هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها، ويريد أن ينتقص صداقها، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا في إكمال الصداق وأمروا بنكاح سواهن).

وقد ضبط الشرع الحكيم تعدد الزوجات، بضابط مهم هو العدل، وقد قال الفقهاء في ذلك:

١ ـ أن لا يكون عدد الزوجات أكثر من أربعة نساء.

٢ ـ أن يكون في استطاعته الإنفاق على الزوجات جميعاً.

٣ ـ أن يكون في استطاعته العدل بين كلّ الزوجات.

ويتمثل العدل في النفقة والمبيت وحسن المعاشرة وغيرها. إلا أنّ المستشرقين كتبوا كثيراً عن هذه المسألة بعيداً عن الموضوعية والتحري للحقيقة.

ومما ذكره هنري دي كاستري (يرى الناس في أكثر الأزمان الوسطى، أنّ أكبر عمل أتى به النبي ـ ﷺ ـ هو إباحته تعدد الزوجات لأنّه توصل بذلك إلى استجلاب الرجال، وتطرّف بيرون، فقال: والنساء لأنّه وعدهنّ بتعدد الأزواج)[1].

ويعلق هنري دي كاستري على هذا الكلام (إنّ نظام تعدد الزوجات يجرح أخلاقنا المتمدنة وعوائدنا الدينية على الخصوص، فلا نكاد نفقه في

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح ـ الكونت هنري دي كاستري ـ ترجمة أحمد فتحي باشا ـ المكتبة التجارية ـ شارع محمد علي ـ القاهرة ـ ص ٥١.

شريعة موسى وهي أيضاً شريعة إلهية كدين المسيح...)[1].

ويبرر دولست ويحلل نظام تعدد الزوجات عند العرب بعيب أدبي فيهم فيقول (وفي آداب الساميين نقص يوجد مع أهل الخلقة، لا يمكن جبره مدى الأيام، وهو كثرة شهوتهم، وذلك عيب أدبي لا محالة، إلا أنّه برهان على قوة الجسم وسلامة الجنس، فالذكور الشرقيين أكثر قوّة ونشاطاً من الغربي، ولذلك قال بعض المشتغلين بعلم طبائع الأمم أن تعدد الزوجات أمر من ضروريات الأمم الشرقية لما فيهم من القوة العظيمة...)[2].

ويربط هنري دي كاسترى نظام تعدد الزوجات بالعقائد والتوحيد وهي مقارنة عجيبة غريبة (ومن الغرائب الإلهية التي تحار في إدراكها الأفهام، أن الغربي مع ميله إلى الاعتقاد بتعدد الآلهة كان على الدوام يأبى الزواج بأكثر من امرأة واحدة، والشرقي الذي لا يعبد غير إله واحد يقول بتعدد الزوجات، فآلهة كثيرون وزوجة واحدة صيغة تليق عادة بالغربي وإله واحد زوجات متعددات صيغة تحمل بالشرقيين)[3].

وتقول دومنيك وجانين سورديل: ولا شك أن بعض المستشرقين قد تقدموا بفرضية مضادة تفترض أنّ محمداً ـ ﷺ ـ قد حدّد بإدخاله تشريع تعدد الزوجات في مجتمع كان في السابق أمومياً، وذلك عقب الخسائر التي مني بها المؤمنون، خلال المعارك الأولى، وما نشأ عنها من تكاثر عدد النساء الأرامل اللواتي بقين بلا معيل، ولكن يبدو أنّ فرضيتهم لا تقوم على دليل جدي، على أية حال، يبدو أن محمداً قد سعى إلى تحسين وضع المرأة الهش لا إلى تخفيضه...)[4].

---

(١) نفس المرجع ٥٣.
(٢) نفس المرجع ٥٩.
(٣) نفس المرجع ٦٠.
(٤) الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي ـ دومنيك وجانين سورديل ـ ترجمة حسني الزينة ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٠ ـ ١٠ ـ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

وقال كلودي فو المستشرق الفرنسي في كتابه «الغزالي» (هضم الإسلام حق المرأة، حيث أعطاها نصف نصيب الرجل في الميراث، وجعل الزوج يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع، وجعل الطلاق بيد الرجل، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة، فحرمها كثيراً من الحقوق التي تمتع بها الرجل).

أما المستشرق الألماني الدكتور كورنرامف فإنّه يؤكد ما قلته من قبل أنّ تعدد الزوجات هو علامة وضابط لمعرفة الإسلام، فمن ذكر تعدد الزوجات ذكر الإسلام فيقول: (حرية تعدد الزوجات في الإسلام معروفة لكل ألماني، حتى لو لم يكن يعرف شيئاً آخر عن هذا الدين، فهي بالنسبة له تعتبر الفرق الحاسم بين المسيحية والإسلام، والعلامة المميزة للأخير وقد تفسر حرية تعدد الزوجات في القرآن بطريقة أو بأخرى، ولكن بمجرد وجودها يعتبر بالنسبة له شيئاً غير مفهوم أو مقبول)[1].

ثم يتكلم عن المرأة الألمانية التي لا تستسيغ فكرة تعدد الزوجات ولو نظرياً فيقول (كلا هؤلاء النساء لسن على استعداد أن يشاركن أزواجهن مع نساء أخريات لهن نفس الحقوق التي لهن على الأقل من الناحية النظرية ولن يوافقهن على أخذ دور ثانوي في المجتمع ويبقين في المنزل بينما يمتع أزواجهن أنفسهم...)[2].

وقالت المستشرقة سغريد هونكه في هذه المسألة (وكان تعدد الزوجات في الجاهلية ضرورة اقتضتها ظروف المعيشة والرغبة في العدد الكبير من الأولاد لتقوية مركز القبيلة ولتوطيد العلاقات بين مختلف القبائل بالمصاهرة، وبظهور الإسلام استمرت تلك الضرورة نتيجة لبدء الفتوح... فالإسلام

---

(١) المسلمون ـ مجلة العالم الإسلامي ـ العدد ـ ٧ ـ ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ص ٧٤٠.

(٢) شمس العرب تشرق على الغرب ـ ص ٤٧.

قدّس الزواج وطالب بالعدل بين الزوجتين أو الثلاث أو الأربع في المعاملة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1].

ويرد عليها مصححاً بعض المفاهيم التي جاءت في كلامها هذا الأستاذ عبد القادر السبسي (إن الكاتبة المستشرقة تريد أن تقول في الأصل لا يوجد تعدد زوجات، وأن الكتب السماوية لم تبح ذلك، بل هذا التعدد نشأ في زمن الجاهلية لضرورة اقتضتها الظروف، وقد استمرت تلك الضرورة بظهور الإسلام نتيجة لبدء الفتوح، وتزعم أن الإسلام قد منع هذا التعدد وأمر بالرجوع إلى التزوج بواحدة فحسب لعدم استطاعة العدل بين النساء ولذلك رأيت أن الردّ عليها وعلى أمثالها ضروري.

١ ـ تعدد الزوجات منشأه قديم، فقد عرفت الشعوب القديمة لاستراليا وأمريكا والصين وغيرهم هذا النظام وكذلك قبائل أوربا القديمة كالجرمانيين والصقالية قبل المسيحية.

٢ ـ أباح بعض رجال الكنيسة من البابوات لبعض الملوك بعد الإسلام تعدد الزوجات كشرلمان ملك فرنسا الذي كان معاصراً للخليفتين المهدي والرشيد في العصر العباسي زوجتان وكثير من السراري، وكان لملك إيرلندا زوجتان وسريتان.

٣ ـ لقد أباحت الأديان السماوية تعدد الزوجات ومنه الديانة الموسوية والديانة المسيحية وكذلك الديانات السابقة للمسيحية واليهودية، فقد كان لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ زوجتان وكلّ أنبياء التوراة كان لهم زوجات كثيرات كيعقوب وداود وسليمان ولم يأت الإنجيل بنص يحرم أو يدل على التحريم، وإنّما ورد على سبيل الموعظة بأن الله خلق لكل رجل زوجته،

---

(١) انظر مجلة الوعي الإسلامي ـ مقالة الأستاذ ـ العدد ٧٤ عام ١٩٧١.

وهذا لا يفيد على أبعد الاحتمالات إلا الترغيب بأن يقتصر الرجل في الأحوال العادية على زوجة واحدة.

ولكن أين الدليل على أن زواج الرجل ـ بزوجة ثانية مع بقاء زوجته الأولى في عصمته يعتبر زنى ويكون العقد باطلاً ليس في الأناجيل نص على ذلك بل ورد في رسالة بولس الأولى المرسلة إلى دنيو شاوس ما يفيد أنّ التعدد جائز. وقال جورجي زيدان (فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتباعها من التزوج من امرأتين فأكثر، ولو شاءوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم ولكن رؤساءها القدماء وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها ـ وكان شائعاً ذلك في الدولة الرومانية ـ فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار التزوج بغير امرأة حراماً كما هو مشهور) فالواقع يشهد أن نظام تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم، وعند كلّ الملّل والنحل، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم، مهما تشددت القوانين في تحريمه، وإذا لم يكن مشروعاً في القوانين، كان نوعاً من النفاق المتستر لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه.

(لقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين، ونخص منهم بالذكر «جيرال دي تيرفال» والليدي موجان، أن تعدد الزوجات عند المسلمين ـ وهم يعترفون بهذا المبدأ ـ أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنّهم يرحمون الزواج بأكثر من واحدة، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية، فالمسيحيون يجدون لذة الشره المحرمة عند خروجهم على مبئهم في هذا. . .)[1].

ويذهب لوبون إلى نفس الرأي وهو أن نظام تعدد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام وحده فيقول: (وأقول أن نظام تعدد الزوجات ليس خاصاً

(١) انظر حياة محمد ـ ﷺ ـ اتيان دينيه ـ ص ٢٣٥.

بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب، وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور محمد، ولم تر فيه الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غنماً جديداً إذن... ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوربيين، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أدنى منه، وبهذا يدرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة)[1].

لقد صدق لوبون فمن تعدد الزوجات الشرعيات في الشرق إلى تعدد الخليلات في الغرب، وشتان بين هذا وذاك؟

لقد ردّ ألفونس عن مبدأ تعدد الزوجات في رسالته القيّمة «أشعة خاصة بنور الإسلام» وقال: (على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها، وإنّما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور، حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى)، لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة، ولأنّه الدال على أحسن مقاصد الخير، والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا للقصر نأخذ بأشهرها، وهو الشامل في سبيل تعدد الزوجات، وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمة، ومطاعن كثيرة، ومما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق... والذي فعله الإسلام أول كل شيء، أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ وأي رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات، ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ، ولكن أنظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية في الرقة والدقة واللطف مع

(١) حضارة العرب ـ ص ٣٩٨.

الحكمة. ثم أنظر هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها، وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مآخذه؟ وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا، دع عندك الأفراد، الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات، وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام، إنّ تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم... على أن نظرية التوحيد في الزوجة... وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين).

هكذا يحلّل هذا المستشرق نظام تعدد الزوجات في الإسلام بكثير من الموضوعية والدقة وتحري الحقائق، كما يبين أن المسيحيين لم يكونوا يطبقون نظام الاكتفاء بالزوجة الواحدة، بل هناك الكثير منهم ملوكاً وعواماً كانت لهم أكثر من واحدة، وبعلم الكنيسة، ويذكر أن إبطال العمل بنظام تعدد الزوجات يؤدي إلى انتشار الدعارة والعلاقات المحرّمة والعنوسة وكثرة الأطفال غير شرعيين، وهذا ما لا يخفى على أحد في هذا العصر، لقد سبق أن ذكرت أن أحد المستشرقين الألمان ذكر أن الشعب الألماني إن لم يعرف شيئاً عن الإسلام فإنه يعلم بإباحة تعدد الزوجات والسبب كما ذكر ذلك الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ[1] (لقد عقد مؤتمر عام **١٩٤٨**م في ألمانيا للشباب العالمي وتحديد «بمبونيخ» واشترك فيه بعض الباحثين المسلمين من البلاد العربية، وكان من لجانه لجنة تبحث مشكلة زيادة عدد النساء في ألمانيا أضعافاً مضاعفة عن عدد الرجال بعد الحرب، وقد استعرضت مختلف الحلول لهذه المشكلة، وتقدم الأعضاء المسلمون في

(١) انظر المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٧٥ ـ ٧٦.

هذه اللجنة باقتراح إباحة تعدد الزوجات، وقوبل هذا الرأي بشيء من الدهشة والاشمئزاز، ولكن أعضاء اللجنة اشتركوا جميعاً في مناقشة فتبيّن بعد البحث الطويل أنّه حلّ لا غيره وكانت النتيجة أن أقرت اللجنة توصية المؤتمر المطالبة بإباحة تعدد الزوجات لحل المشكلة.

وفي عام **١٩٤٩** تقدم أهالي «بون» عاصمة ألمانيا الإتحادية آنذاك إلى السلطات بطلب إلى السلطات المختصة يطلبون فيه أن ينص في الدستور الألماني على إباحة تعدد الزوجات)[١].

ويضيف الدكتور السباعي (أن الصحف نشرت أن الحكومة الألمانية أرسلت إلى مشيخة الأزهر تطلب منها نظام تعدد الزوجات في الإسلام، لأنها تفكر في الاستفادة منه لحل مشكلة زيادة النساء، ثم اتبع ذلك وصول وفد من العلماء الألمان اتصلوا بشيخ الأزهر لهذه الغاية، كما التحقت بعض الألمانيات المسلمات بالأزهر لتطلع بنفسها على أحكام الإسلام في موضوع المرأة عامة وتعدد الزوجات خاصة).

ولا يكاد مسلم يسافر إلى الغرب، وبمجرد أن يكشف عن هويته الإسلامية إلا ويقابل بسيل من الأسئلة تارة ومن الاستفزازات تارة أخرى، والمحور دائماً هو تعدد الزوجات، وقد أكد ذلك الدكتور السباعي حين التقى بأوربا بالمستشرق أندرسون بجامعة لندن، وبمدير مدرسة بليدن، فعن لقاءه مع أندرسون يقول ـ رحمه الله ـ (حين سافرت إلى أوربا في عام **١٩٥٦** موفداً من جامعة دمشق في رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة، كان ممن اجتمعت بهم في لندن «البروفسور أندرسون» رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية بجامعة لندن، وفيما جرى من أحاديث نقاش حول تعدد الزوجات في الإسلام.

---

(١) انظر المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٧٥ ـ ٧٦.

سألني أندرسون: ما رأيك في تعدد الزوجات؟ قلت له: نظام صالح يفيد المجتمعات في كثير من الظروف إذا نفذ بشروطه.

قال: أنت إذن على رأي محمد عبده بوجوب تقييده؟

قلت: قريباً من رأيه لا تماماً، فإني أرى أن يقيّد بقدره الزوج على الإنفاق على الزوجة الثانية ليمكن تحقيق العدل بين الزوجات كما طلب الإمام.

قال: وهل مثلك في هذا العصر يدافع عن تعدد الزوجات؟

قلت: إني أسألك فأجبني بصراحة، من كانت عنده زوجة فمرضت مرضاً معدياً أو منفرداً لا أمل بالشفاء منه، وهو في مقتبل العمر والشباب فماذا يفعل؟ هل أمامه إلا ثلاث حالات: أن يطلقها، أو يتزوج عليها أو يخونها ويتصل بغيرها اتصالاً غير مشروع؟

قال: بل هناك رابعة، وهي: أن يصبر ويعف نفسه عن الحرام.

قلت: وهل كل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك.

قال: نحن المسيحيين نستطيع أن نفعل ذلك بتأثير الإيمان في نفوسنا.

فتبسمت وقلت: أتقول هذا وأنت غربي، أنا أفهم أن يقول هذا القول مسلم أو مسيحي شرقي، فقد يستطيع أن يكف نفسه عن الحرام، لأنّ محيطه لا يهيء له وسائل الاختلاط بالمرأة في كل ساعة يشاء وأنى يشاء، ولأن تقاليده وأخلاقه لا تزالان تسيطران على تصرفاته، ولأن الدين لا يزال له تأثير في بلاده. أما أنتم الغربيون الذين لم تتركوا وسيلة للاتصال بالمرأة والاختلاط بها والتأثير عليها وإغوائها إلا فعلتم، حتى لم تعودوا تستطيعون أن تعيشوا ساعة من نهار أو ليل دون أن تروا المرأة أو تخالطوها منذ تغادرون البيت حتى تعودوا إليه، أنتم الذين يضج مجتمعكم بالأندية والبارات والمراقص، وتغص شوارعكم بالأولاد غير الشرعيين، تدعون أن

دينكم يمنعكم من خيانة الزوجة المريضة؟ وكيف ذلك وخيانات الزوجات الجميلات الصحيحات الشابات تملأ أخبارها أعمدة الصحف والكتب وتصك الآذان، وتشغل دوائر القضاء.

قال: إنني أخبرك عن نفسي، فأنا أستطيع أن أضبط نفسي وأصبر.

قلت: حسناً، فكم تبلغ نسبة الذين يضبطون أنفسهم من المسيحيين الغربيين أمثالك بالنسبة إلى الذين لا يصبرون.

قال: لا أنكر إنهم قليلون جداً.

قلت: هل ترى أن التشريع يوضع للقلة التي يمكن أن تعدّ على الأصابع أم للكثرة والجمهرة من الناس؟ وما فائدة التشريع الذي لا يستطيع تطبيقه إلا أفراد قليلون؟

فسكت، وانتهت المناقشة فيما بيننا.

وهذه محاورة أخرى أوردها الدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ في كتابه المرأة بين الفقه والقانون، وتدور في نفس الموضوع، وكان الردّ حاسماً وحكيماً، وكان ذلك عام **١٩٥٩** حين زار إيرلندا والتقى هناك بمدير مدرسة الآباء اليسوعيين في دبلن، فيقول:

(فكان ما قلته له، لماذا تحملون على الإسلام ونبيه ـ ﷺ ـ وبخاصة في كتبكم المدرسية، مما لا يصحّ أن يقال في مثل هذا العصر الذي تعارفت فيه الشعوب والتقت الثقافات.

فأجابني: نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلاً تزوج تسعة نساء؟

قلت له: هل تحترمون نبي الله داود ونبيه سليمان؟

قال: نعم وهما عندنا من أنبياء التوراة.

قلت له: إن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ كان له تسع وتسعون زوجة

وأكملهنّ بمائة بالزواج من زوجة قائد (أوربا) كما هو معلوم ونبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ كانت له ـ كما جاء في التوراة ـ سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري، فلم يستحق احترامكم من يتزوج بألف امرأة، ولا يستحق من تزوج تسعاً؟ لماذا لا يستحق احترامكم من تزوج تسعة، ثمانية منهن ثيبات وأمهات وبعضهن عجائز، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول ـ ﷺ ـ طيلة عمره.

فسكت قليلاً، وقال: لقد أخطأت التعبير، أنا أقصد أننا نحن ـ الغربيين ـ لا نستطيع الزواج، بأكثر من واحدة، ويبدو لنا أن من يعدد الزوجات غريب الأطوار وعارم الشهوة، قلت: فما تقولون في داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وبقية أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا جميعاً معددين للزوجات، بدء من إبراهيم ـ عليه السلام ـ فسكت ولم يجد جواباً.

هذه نماذج من أفكار وآراء الغرب السلبية والإيجابية عند تعدد الزوجات فهناك المتحامل المشوه للحقائق، والذي يخلط بين تصرفات الأشخاص التي تكون خاطئة، وبين تعاليم الشرع السمحة.

وهناك من فهم خصائص هذه الشريعة، وأهميتها في علاج أحوال البشر ومرونتها ودورها في إيجاد الحلول لكل أحوال في كل زمان ومكان.

ومهما كان وضع المرأة الغربية المسلمة، فإن المرأة الغربية وضعيتها صعبة وسيئة وأحوالها تختلف كثيراً عن أحوال المرأة المسلمة بل أسوأ باعتراف الكثيرات منهن، كسغريد هونكه وإيفا لاهاك ديمترار بأن المرأة الغربية خسرت كثيراً بسبب الحرية المزعومة، فهذه قاضية سويدية «بريجت أوف هامر» التي كلفتها الأمم المتحدة بزيارة للبلاد العربية لدراسة أوضاع المرأة الاجتماعية والقانونية تحدثت في بداية تقريرها عن المأساة التي خلفتها أوضاع الحرية المزعومة في السويد قالت: «إن المرأة السويدية فجأة اكتشفت أنّها اشترت وهماً هائلاً، نقصد الحرّية التي أعطيت لها، ثمن مفزع هو

سعادتها الحقيقية، . . . إن المرأة بالسويد تحن إلى حياة استقرار العائلة المتوازنة جنسياً وعاطفياً ونفسياً، فهي تريد أن تتنازل عن معظم حريتها في سبيل كل سعادتها)[1].

هذا وقد علّق أحمد موسى سالم على المستشرقين الذين عابوا على المسلمين وجود نظام تعدد الزوجات بقوله: (حريماً مفتوحاً في المطاعم والفنادق، وعلى الأرصفة، وتحت أشجار الحدائق العامة وبجوار حوائط الليل المظلمة، وفي ساحات المراقص اللعوب والأحفال الساهرة، فكل من شاء يفعل ما شاء، ومع من شاء ومن تشاء، إنه عنوان التحرر العجيب من الخلق هو العفاف وضوابط النسل وحدود الله في الأسرة).

وهذه حقائق تؤكدها عقلاء الغرب، وهو أن نظام تعدد الزوجات حتى ولو كان غير مستساغ عندهم إلا أنهم يطبقونه بطرق أخرى وهذا اعتراف من مستشرق آخر وهو (هرمان اشتيجليكو) في كتابه عقائد الإسلام: إذ يقول (إنّ الفهم السلبي لتعدد الزوجات في الإسلام لدى كل أوربي جاهل بمثل هذه المسائل يعد فهماً غير منصف وقائماً على غير أساس تاريخي، وذلك لأنّه كان من المستحيل على محمد منع تعدد الزوجات، وتحقيق هذا المنع عملياً، في ذلك العصريين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى أيضاً، وعلينا أن نستعيد في ذاكرتنا كيف أنّه كان من الصعب على المسيحية فرض الزواج بامرأة واحدة بين الشعوب المختلفة، وينبغي أن نضع في اعتبارنا أيضاً أن ذلك لا يزال حتى اليوم يعدّ من الصعوبات البالغة التي تواجه المسيحية في المحافظة على هذه الواجهة (يقصد الزواج بواحدة فقط) تلك الواجهة المهددة دائماً بالأخطار، كما أن عدد هؤلاء الذين يمارسون الزواج الواحد في العالم ـ وهم في الحقيقة يجدون الطريق).

---

(١) المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم ـ عمر سليمان الأشقر ـ ص ٣٨ ـ ٣٧.

الفصل السابع

الحجاب والفكر الاستشراقي

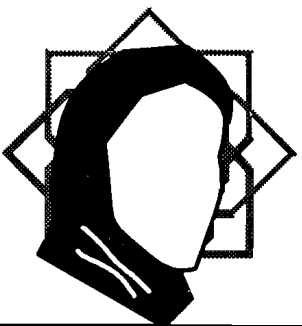

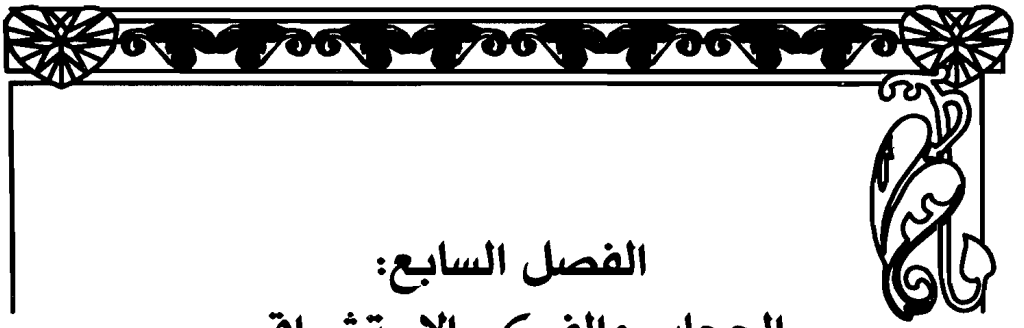

الفصل السابع:
الحجاب والفكر الاستشراقي

لقد تميزت المرأة المسلمة بالحياء والصلاح والإيمان، وإكمالاً لكلّ هذا الصلاح النفسي، كان ستر الجسد واجب عليها إكمالاً لجمال العفاف وأنوار الطهر والفضيلة، والحجاب في الإسلام نظرية قائمة وليس مجرد إجراء تعسفي للحد من حرية المرأة وتهميشها.

وقال أحد المفكرين (الحجاب منهج وأسلوب ووسيلة تهدف إلى تحقيق تراجع ملموس في الحضور الجسدي للمرأة في الحياة العامة، لفائدة حضورها الفكري والعملي والروحي).

لقد جاء بتكريم المرأة وضمان حقوقها، ووضع منهجاً كاملاً لتربيتها وتعليمها، وجعلها شريكة الرجل في الأحكام، وضمن مشاركتها الكاملة في بناء المجتمع والدولة والحضارة، وتشريع الحجاب جزء من تكريم المرأة وضمان حقوقها في هذه الشريعة الغرّاء.

قال الله تعالى في شأن الحجاب: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ

نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقال ـ عز وجلّ ـ في آية أخرى مخاطباً زوجات الرسول وبناته وكل المؤمنات بالتزام الحشمة في اللباس قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ومن السنّة ما رواه البخاري (كان نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة متلفعات بمروطهن).

ومن حديث الإمام مالك في الموطأ: (حدثني يحيى عن مالك أنّه بلغه أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ كانت تصلي في الدرع والخمار).

فالحجاب فرض عين على كلّ نساء المسلمات بنص القرآن والسنّة وزادت النصوص في خصوصية حجاب نساء النبي ـ ﷺ ـ فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ولا غيرها، ولا يجوز لهن إظهار وجوههن وإن كنّ مستترات...)[1].

أما عامة النساء فالحجاب في حقهن واجب بشروط معروفة وقد اختلف الفقهاء في الآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ والزينة هنا خلقية (طبيعية) ومكتسبة.

فذهب المالكية والحنفية إلى جواز كشف الوجه واليدين، وفسروا الاستثناء الموجود في الآية بالوجه والكفين، كما استدلوا بحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) شرح مسلم ـ النووي ـ جـ ١٤ ص ١٥١.

وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا**»، وأشار إلى وجهه وكفه[1].

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن المرأة يجب عليها أن تستر جميع بدنها بما في ذلك الوجه والكفين.

ومهما كان الخلاف فإن الستر للمرأة لجميع بدنها فرض حين خروجها من بيتها، أو تواجد أجانب غير محارم لها في بيتها.

هذا هو التأصيل الشرعي للباس المرأة المسلمة، وهو لباس ينم عن الحشمة والحياء، ويحفظ توازن المجتمع.

إلا أنّ المستشرقين والمستشرقات يرون بأن حجاب المرأة المسلمة هو دائماً رمز للفكر الظلامي المتنكر لحقوق المرأة والمهين لشخصيتها؟ والحجاب عندهم هو ذلك الشبح الأسود الذي لا هوية له ولا وجه ولا شخصية ولا وجود، بل هو مجرد سواد متحرك في ذله مظهر يوحي بالشؤم ويثير الحزن في القلوب ويخيف الأطفال...

ويعتبرون الحجاب حاجزاً أمام مشاركة المرأة في الحياة العامة بشكل طبيعي، وعائقاً يحول بينها وبين القيام بدورها كاملاً في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

فهذا أحد المستشرقين يقول في مسألة نزول الحجاب (... بما أنّه أصبح عبداً لحب النساء بطريقة عنيفة، فلقد كان كذلك غيوراً من تلك اللواتي تزوج منهن، وهكذا ليجعلهن لا يفكرن فيما يخيفه هددهن بعقاب أكثر من العقاب الذي تتعرض له الأخريات في هذا العالم، وفي العالم الآخر في حالة خيانتهن له، ولما كان بعض التابعين له يترددون مراراً على

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب اللباس ـ باب فيما تبدي المرأة من زينتها جـ ٤ ص ٦٢، وهو ضعيف، وقد صحح هذا الحديث الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ.

منزله ويتجاذبون أطراف الحديث مع بعض نسائه غاظه ذلك إلى درجة أنّه كي يمنعهم من تكرار هذا السلوك جاء بتلك السور من القرآن وكأنها كلام الله، حيث يأمرهم بعدم دخول بيت النبي بدون إذن منه، وحتى وإن استضيفوا إلى مأدبة عنده فعليهم مغادرة المنزل مباشرة بعد الأكل دون الدخول في حديث مع نسائه ثم يتابع بأن الله لا يخجل من أن يواجههم بالحقيقة إذا كان محمد يخجل من أن يواجههم بها، وفي نفس الباب يحرم محمد على نسائه الحديث مع أي رجل إلا إذا كانت وجوههن محجبة وأخيراً ظل محمد يحمل هذه الغيرة على نسائه إلى ما وراء القبر، فيما أنّه لم يتحمل أن تكون لغيره علاقة بهن حتى بعد موته فلقد حرم بصرامة على تابعيه أن يتعاملوا معهن ما دمن على قيد الحياة)[1].

هكذا يقزم الحجاب الشرعي في نظر هذا المستشرق، ويعتبر إجحافاً بحق المرأة وظلماً لها على يد من جاء يحررها ويعطيها المكانة اللائقة بها وهو محمد ـ ﷺ ـ وهذا باعتراف الكثير من المستشرقين.

لقد طرح المستشرقون مسألة الحجاب في حديثهم عن زوجات النبي[*] ـ ﷺ ـ وعند حديثهم عن المرأة الشرقية عموماً، إلا أن الذي أشكل على المستشرقين المعاصرين، هو عودة المرأة المسلمة في الشرق والغرب إلى الحجاب وإذا كان الحجاب في العصور الإسلامية الزاهية قد فهم على أساس أنّه تكريم للمرأة المسلمة، والدليل، أنّه لم يحرمها من جميع حقوقها المادية والمعنوية فهي العالمة والمجاهدة والفقيهة والمحدثة والخارجة لقضاء حوائجها والسائلة عن أمور دينها والمعلمة لكبار العلماء والفقهاء.

---

(١) حياة محمد ـ هو مفراي بريدو ـ ١٧٩٧ من كتاب أحكام الغرب حول المسلمين والعرب ـ ص ١٣٥.

(*) ربما لا يعرف هذا المستشرق بأن نساء النبي ـ ﷺ ـ لهن الجزاء والثواب أكثر من غيرهن من النساء، ولكن المنهج الإسقاطي لا يتخلص منه.

إلاّ أنّه في عصور الانحطاط والجهل والتخلف، أخذ الحجاب معنى آخر، فأصبح يعني منع المرأة من جميع حقوقها المادية والمعنوية، فلا تتعلم ولا تسأل عن دينها ولا تقضي حوائجها خارج البيت، واستغل الاستعمار هذه الحالة التي تعيشها المرأة، فأصبح يجند علماءه وأتباعه من العرب نساء ورجالاً كي تنزع المرأة حجابها باسم المساواة والحرية، وما كتابات سلامة موسى ومرقص فهمي وقاسم أمين إلا انعكاس لهذا الأمر فعوض المناداة بالمحافظة على الشرع والعودة إلى تعاليم الدين الحنيف، وتوعية المرأة بأحكام دينها وتعليمها ما ينفعها، أصبحت المناداة بترك الحجاب وتقليد الغرب[1].

وفي العصر الحالي هناك عودة إلى الحجاب عن وعي وعلم، ولم يعد الحجاب لباس تلك المرأة الحبيسة في البيت، أو تلك العجوز التي فاتها سن الشباب، بل هو لباس الطبقة المثقفة من نساء العالم الإسلامي والغربي، وهذا الذي جعلهم يتساءلون كثيراً لماذا الرجوع إلى الحجاب، وهو الذي يعتبر من صور الانحطاط البائدة التي تجاوزها الزمن؟ لماذا هذه العودة بقوّة إلى اللباس الشرعي في عز المدينة والتمدن، وفي عصر العولمة والتكنولوجيا؟ أسئلة كثيرة قد تتعب صنفاً كبيراً من المستشرقين والمستشرقات والمستغربين والمستغربات حول موضوع الحجاب.

فهذه الصحفية صاحبة كتاب (تسعة أجزاء للرغبة: العالم الخفي للمرأة المسلمة) والتي كانت مراسلة بالقاهرة لصحيفة أمريكية تقول (... لمدة عام كنت محتارة في عملي الجديد حتى جاء يوم فتحت لي سارة طريقاً جديداً للتفكير، ففي الأيام الأولى من رمضان فتحت المكتب لأجد أمامي سارة... محجبة ملامح سارة اختلفت، ملابسها تغيرت، مكياجها لم يعد

---

(١) سأفصل الكلام في الفصل القادم عند الحديث عن أثر المستشرقين في المفكرين العرب والمسلمين.

هو، فقد أصبح وجهها خالياً من المساحيق كنت أعتقد حتى هذا الوقت أن العودة إلى الإسلام هي اختيار المضطرين من الفقراء، ولكن سارة لم تكن فقيرة ولا مضطرة، لقد خلعت المرأة المصرية حجابها التقليدي منذ سنة **١٩٢٣**م عندما ذهب وفد للمرأة المصرية بقيادة هدى الشعراوي وسيزانيرواي إلى محطة مصر للسكك الحديدية لمقابلة زعيم الأمة سعد زغلول العائد من المنفى وفعلت مثلهما العشرات من النساء والفتيات اللواتي كنّ معهما في استقبال الزعيم. ومنذ ذلك الوقت والمرأة المصرية تواصل مكتسباتها في العمل والمساواة، ووالدة سارة التي عاشت تحت النفوذ الرمزي لحركة هدى الشعراوي وزميلاتها لم تكن محجبة قط».

إن الكاتبة لم تخف تعجبها من حجاب سارة الفتاة المتحضرة خريجة الجامعة الأمريكية التي كانت أنيقة ورشيقة وتقارب المرأة الغربية في النشاط وتوقد الذهن كما وصفتها الكاتبة قبل تحجبها. وتواصل الكاتبة في تحليل مسألة تحجب سارة، وأثارها الخطيرة على حياتها العامة والخاصة فتقول (قبول سارة بالحجاب يعني قبولاً بأن تكون نصف شاهدة، وأن تقبل حياة بيتية من حق زوجها فيها أن يضربها إن هي عصت أي أمر من أوامره، ويمكن أن يشركها زوجها مع ثلاث زوجات أخريات، ويطلقها متى ما أراد، ويحتفظ بحضانة أولادها دون أن تحتج) قصة سارة الطويلة وغيرها من القصص التي أوردتها هذه المؤلفة في كتابها والتي معظمها يدور حول هذه الموضوعات، قد تكون مغربية بالقراءة للقارىء الغربي خاصة، وقد تزيده يقيناً باحتقار الإسلام للمرأة وتردي وضعية المرأة المسلمة في المجتمع المسلم وفي ظل تعاليم الشريعة السمحاء مع أن العكس هو الصحيح - وإن كان هناك بعض المظاهر توحي بذلك.

وليس ببعيد قامت ضجة كبيرة بفرنسا حول ما يسمى بالخمار الإسلامي (LE FOULARD ISLAMIQUE) وذلك عندما ظهرت بعض الفتيات المسلمات في المدارس والجامعات بالخمار على رؤوسهن، وحول

هذا الخمار دارت نقاشات وحوارات ومعارك إعلامية وسياسية قامت بها منظمات نقابية ونسائية، ففي عام **١٩٨٩** كان القرار الصادر من مدرسة GABRIEL - HAVEZ DE GREIL (OISE) بضواحي باريس يتضمن طرد ثلاث تلميذات مغربيات يضعن الخمار على رؤوسهن ومنه انطلقت حول هذا الأمر حملة إعلامية مكثفة ليس في فرنسا فقط بل في أوربا وفي الوطن العربي، وأصبح هذا الأمر إشكالاً وطنياً يتجاوز الجدال السياسي التقليدي، فقد طلب وزير التربية الوطنية بفرنسا رأي مجلس الدولة في هذا الموضوع.

وجاء القرار ينص على المبدأ التالي (بأن ارتداء علامات دينية لا يتعارض في حد ذاته مع علمانية المدرسة العمومية) واحتج أولياء الفتيات ورفعوا قضاياهم إلى المحكمة كما ضغطت الجمعيات الإسلامية، فأعطى الأمر برجوع الفتيات إلى مقاعد الدراسة، وفي سنة **١٩٩٢** وكذلك في سنة **١٩٩٤**، اضطر مجلس الدولة إلى الفصل في عدد من الدعاوى القضائية، التي رفعها أولياء تلميذات كثيرات فصلن عن المدارس والثانويات في مختلف الولايات الفرنسية، وكانت النتيجة هي إدماجهن، لأنهن لم يسبق لهنّ أن أحدثن أي اضطراب داخل المؤسسة.

وعادت هذه الأحداث في السنة الماضية بفرنسا حينما جدد قرار منع المرأة المحجبة من الدراسة والعمل بفرنسا...

كلّ هذه الشواهد تبرز رأي الغرب ونظراته إلى الحجاب، وإذا قلنا الغرب تتمثل لنا الطبقة المثقفة وهم المستشرقون. الذين كتبوا ودرسوا وقدموا هذا الشرق بهذه الصورة المفزعة والمظلمة للغرب، ومنه كانت هذه أحكام العامة والخاصة المتبناة من تلك الأفكار الاستشراقية.

وإن كان من بين هؤلاء المستشرقين من كانت له نظرة أخرى، وتصور إيجابي لهذا الشرق وهو يسعى لتبليغه لهذا الغرب، ويحاول محو أفكار تراكمت مع الزمن، فهذا الدكتور مراد هوفمان يتساءل (وماذا ينبغي الإسلام بتشريعاته حول لباس المرأة أو ستر العورة في عصر المتبرجات العرايا المثيرات للسأم في الحلقات التليفزيونية التي تذاع على الهواء، أو تعاد

إذاعتها وبثها، ومن يفرض نفسه بديلاً، قادماً من بيئة مخالفة، مواجهة حقيقته تصدم الفلسفة العصرية الغربية، وجهلها بالقيم، وإباحيتها لكل شيء، حسب التعبير الأمريكي «لا شيء ممنوع» هذه المدنية العصرية الغربية تصطدم بالمخطط الإسلامي المضاد الجاد الذي يراه البعض عتيقاً بالياً، لا شيء سوى قيام صرحه واستمراره، غير المرتبط بعنصر الزمان، بمعنى صلاحيته لكل العصور)[1].

وكذلك الدكتورة آنا ماري شمل، التي كتبت مقدمة كتاب الإسلام كبديل، لمراد هوفمان، وهي عميدة الاستشراق الإيجابي فتقول في مسألة الحجاب (... أما كنا ـ ولا زلنا ـ نذهب إلى القداس في الكنائس غير حاسرات الرؤوس؟... إن تغطية الشعر عادة معروفة في القدم، لم يبتدعها الإسلام، ذلك أن الشعر في معتقدات إنسان ما قبل الميلاد بقرون، كان مشحوناً بالقوة، وحسبنا أن نشير إلى قصة شمشون ودليلة، وكيف فقد شمشون قوته الخرافية بعد اجتزاز شعره، وتعرف اليهودية عادة تغطية الرأس، عادة متبعة لدى المتدينين والمتدينات من اليهود، ولا تزال المرأة اليهودية الحريصة على دينها تغطي شعرها ولوبيا روكة شعر مستعار ولا يزال اليهودي الحريص على دينه يحضر إلى جامعة هارفارد ـ سواء الطالب أو المحاضر ـ وعلى رأسه الطاقية التي تغطي قمة رأسه.

فلماذا إذن لا ينبغي أن تغطي التركية ذات الدين رأسها أو شعرها؟ إن على المسلمة أن تغطي شعرها أثناء الصلاة أو تلاوة القرآن... حقّاً إنّ المرء عدو ما يجهل، ذلك أنّ المرء إذا حاول الرجوع إلى جذور الحضارة التي يجهلها ينكشف له الكثير ويصبح قريباً إلى الفهم...)، فإذا كان الحجاب رمزاً لفطرة إنسانية لصيقة بالمرأة وهي الحياء، فالحياء يستلزم الستر عادة، فإنّه موجود في كل الديانات ومأمور به في كلّ الشرائع، والتفسيرات

---

(١) الإسلام كبديل، ص ٢٠٦.

التي لا معنى لها تخص أصحابها فقط، كأن يقال أن الحجاب الشرعي في الإسلام مستمد من الديانة اليهودية التي ترى في المرأة رمزاً للخطيئة الأولى وغيرها... ومهما اختلفت التفسيرات والتأويلات، فإن الحجاب في الوقت الحالي في نظر الغرب وغيره مانع للمرأة من الظهور الاجتماعي فهم يعتبرون الحجاب حاجزاً أمام مشاركة المرأة في الحياة العامة بشكل طبيعي، وعائقاً يحول دون القيام بدورها كاملاً في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وعاملاً من عوامل تكريس[1] التهميش والإبعاد المسلطين على المرأة من طرف الرجال في عصر الحرية والمساواة.

يقول الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري في كتابه القيّم (المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير، (تأثر العالم كلّه بموت الليدي ديانا أميرة القلوب وتتبع المشاهدون جنازتها في أنحاء الدنيا بحزن وأسى، وتنافس رؤساء الدول في تدبيج التعازي تجاوباً مع شعور شعوبهم.

هل نستطيع أن نعتبر ديانا تجسيماً وتشخيصاً للمرأة النموذيجة ثمرة المنهج الغربي والتربية الغربية، والمثل الأعلى للمرأة في الحضارة الغربية؟ إنها امرأة مثقفة أنيقة رياضية مشاركة وإيجابية، ولكنها امرأة تخون زوجها وتموت مع عشيقها ويمتلىء سجل سيرتها الذاتية بالفضائح.

لا يتردد أحد في القول بأن هذه المرأة النموذج كان لها إلى جانب حضورها الفكري والروحي في مجتمعها وفي العالم، حضور جسدي بفتنتها وأناقتها وألبستها المكشوفة وفضائحها.

وكان هذا الحضور الجسدي يغري الصحافة والمصورين، وكانت معظم الاستجوابات التي أجريت معها تركز على هذا الجسد الحاضر بإغرائه

---

(١) ويرى مونتسكيو أن الحجاب لا يفرض على نساء الشمال، وإنما على مناطق أخرى بسبب ما عليه من ضعف وسوء انضباط ويقول (وماذا ينفع حجب النساء في بلادنا الشمالية، حيث تكون أخلاقهن صالحة بحكم الطبيعة).

ومغامراته شيء طبيعي أن يطغى الحضور الجسدي على الحضور الفكري بالنسبة للمرأة بصفة عامة، لأن المرأة كائن جميل.

إن أي امرأة كيفما كانت مكانتها الفكرية أو الاجتماعية تلتفت أول ما تلتفت في حضورها إلى أناقتها، ويلتفت الناس أكثر ما يلتفتون إلى مظهرها. والسؤال الممكن طرحه في مثل هذه الحالة هو كيف نستطيع التخفيف من هذا الحضور الجسدي الفاتن المغوي لفائدة حضور المرأة بفكرها وذكائها وقلبها؟

كيف نستطيع تخليص المرأة من جسدها في حياتها العامة والاحتفاظ لها به فقط في حياتها الخاصة. مع زوجها وفي بيتها؟)[1].

إن الحجاب الشرعي المتضمن اللباس الستور السابغ الذي يغطي جميع البدن ومصاحباً بالعفة والحياء والتواضع هو الشيء الوحيد الذي يضمن للمرأة الحضور الفكري والقلبي ويواري الحضور الإغرائي الفاتن.

هذا رأي المستشرقين خصوصاً والغرب عموماً عن اللباس الشرعي للمرأة، مع أنّ بإمكان كلّ واحد من المسلمين أن يقدم حالة تمثل في حد ذاتها تكذيباً لكل ما يلصق بالحجاب من تهم وعيوب وهذه الحالة من صميم المجتمع الغربي ومتواجدة في مختلف دول أوربا وأمريكا وكذلك في العالم الإسلامي، وفي الجزائر خاصة كنّا نجاورهم ونراهم في كلّ مكان.

إنّهن النساء المحجبات اللواتي عشن في وسط المجتمع الغربي قروناً بحجابهن، وشاركن مشاركة فعالة في بناء النهضة الأوربية الحديثة وخدمن مجتمعهن ومبادىء المسيحية والتنصير في كلّ مكان، إنّهن الراهبات الكاثوليك اللواتي فيهن العالمات، والمثقفات النابغات، والفنانات والطبيبات

---

(١) المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير ـ د عبد الكبير المدغري مطبعة فضالة ـ المحمدية المغرب ـ ١٩٩٩.

والممرضات والمدرسات والمختصات في التدبير والتسيير والماهرات في الصناعات والحرف، وكلّهن نساء محجبات ويعيّنن كذلك بأحجبتهن الزرقاء أو البيضاء، التي لا تترك من الجسم جزءاً مكشوفاً سوى الوجه والكفين، ولم يتسبب هذا الحجاب لا في التقليل من نشاطهن ولا عرقلة أعمالهن، ولو ذكرنا فقط خدماتهن الإنسانية في بلادهن وفي البلاد التي كانت مستعمرات لدولهن من معالجة المرضى والمعوقين والأطفال واليتامى والمشردين والفقراء ونشر المسيحية بل كان لهن فرعاً نسوياً نشيطاً لحملات التنصير والتبشير في الدول الإسلامية، كما سبق أن ذكرت.

وما قامت هؤلاء النسوة ـ بكلّ موضوعية ـ في كافة الميادين أكثر من النساء المتحررات من الحجاب.

والغريب أنّ الغرب يتلقى هذا الحجاب بكل قبول، وهؤلاء النساء بذلك الحجاب يعشن وسط هذا المجتمع بشكل طبيعي تحوطهن هالة من الاحترام والوقار والحاضر الغائب هو الجسد بفتنته، وأما الفكر والروح والقلب والعمل والإنتاج والعطاء فكلّه حاضر بارز.

فإذن دعوى أن الحجاب في حدّ ذاته مانع للمرأة من العمل، وحائل دون مشاركتها الفعالة والإيجابية في بناء الإنسان وبناء المجتمع وبناء الحضارة دعوى ساقطة.

فإذا كانت تعاليم الدين المسيحي تنص على تحجب النساء اللواتي يودن أن يكنّ راهبات.

وإذا كان التديّن في المسيحية خاص بالرهبان والراهبات، وبمن أراد أن يتطوع ويدخل الدين ليتخرج راهباً، فإن من مبادىء الإسلام الراسخة، أن التدين وتطبيق تعاليم الشرع، ليس خاصاً بفئة معينة من المكلفين دون الأخرين، بل التكليف يشمل كل من توفرت فيه شروط التكليف من بلوغ

وعقل واختيار، فالجميع مكلّف بالخضوع لأمر الله ونهيه، ومطالب بطاعة الله - عز وجل - وطاعة رسوله - ﷺ - ومكلّف بتبليغ دعوة الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه فإن جميع النساء المسلمات ملزمات بارتداء الحجاب والالتزام بالعفة والشرف والطهر، والدعوة إلى هذا الدين الحنيف.

(وليس من المنطق في شيء أن يقبل المجتمع الغربي غدو رواح الراهبات بحجابهن في مدنه وقراه وفي جميع المؤسسات ثم يقيم الدنيا ولا يقعدها إذا ارتدت الفتاة المسلمة حجابها في المدرسة أو الجامعة ويطالب بطردها...)[1].

فالحجاب ليس سجن ولا حاجز يمنع المرأة من التحرر، بل هو الحريّة بعينها إذ تتخلص المرأة فيه من كونها أنثى فاتنة لا ينظر إلا إلى جمالها، إلى امرأة مساوية للرجل في التكليف وفي خدمة الحضارة والمجتمع ودون أن يخدش شعورها أحد، أن تشعر بأنها مجرد دمية أو جارية.

(وعندما نجلس بين يديك أيتها المرأة لنتلقى العلم مثلاً لا نريد أن تشغلينا أو تشغلي نفسك بساقيك المشكوفتين، وذراعيك العاريتين، وصدرك المحلى بالجواهر وإنما نريد علمك وفكرك، وما أتاك الله من حكَمة: وعندما تخدميننا نحن المواطنين في الإدارة أو في المتاجر، أو المصانع لا نريد أن تقدمي لنا مفاتنك، بل نريد كفاءتك وجدرتك، وبراعتك وأدبك وشعورك بالواجب وإخلاصك في خدمة بلدك)[2].

وفي هذا السياق تقول الدكتورة عائشة الفيشاوي (إنّ الحكمة الإلهية

---

(١) المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير - ص ٢٤٩.

(٢) نفس المرجع - ص ٢٤٥.

في فرض الحجاب، هو أنّه يرمي إلى تحطيم (هوى) المرأة الدمية، التي لا تجد ذاتها وسعادتها إلا في إبراز مفاتنها وجمالها والتفاف المعجبين حولها.

وفي هذا التشريع رحمة بقطاع وافر من النساء، قد لا يتمتع بالمقاييس الموضوعة للجمال، وفيه رحمة بالجميلات، لأنّ كلّما قدم بالمرأة العمر ذبل جمالها، وانفض المعجبون من حولها.

إن الإسلام حطّم فعلاً المرأة الجسد، ورفع المرأة العقل، إلى درجة سامية لا تشرئب لها إلا المرأة المؤمنة، وقد اختار الرسول ـ ﷺ ـ المرأة ذات الدين، لأن ذات الدين يتبلور فيها العقل الواعي في غير ذات الدين يتمثل العقل الهابط الراكن إلى الماديات، وقد ربطت آية سورة النور، بين غض البصر، وحفظ الفرج والحجاب، فالاحتشام وحده، لا يكفي لحماية المجتمع من الرذيلة بل لا بد من التلازم الزماني بينهما جميعاً).

بعد هذا هل يريد الاستشراق فعلاً دراسة الشرق بكلّ موضوعية؟ أم يريد تقعيد القواعد، والتنظير للمجتمع الغربي، كيف يمكنه علمنة وعولمة وتمسيح ومحو الهويّات، لهذا الشرق الجذاب.

الفصل الثامن

أثر الاستشراق في الشرق

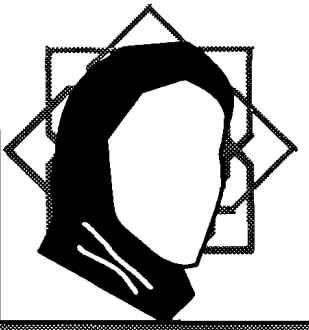

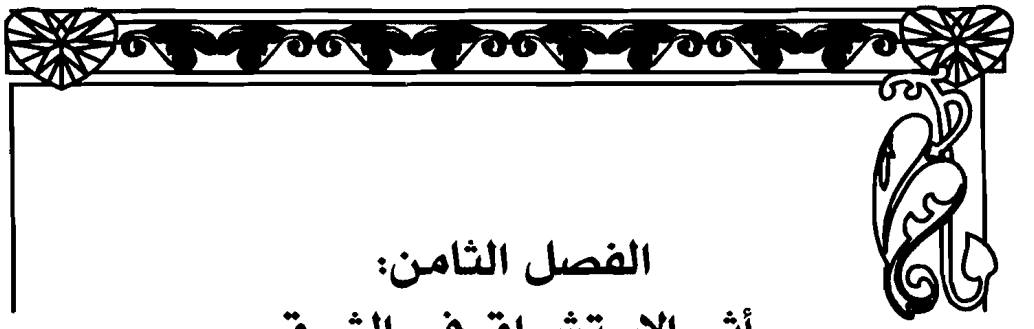

الفصل الثامن:
أثر الاستشراق في الشرق

لا أقصد بهذا العنوان، ردّ فعل الشرق تجاه ما كتبه المستشرقون، فقد سبق تخصيص فصل لهذا الموضوع وهو موقف المسلمين والعرب من الاستشراق بل أقصد كيف أثّر الاستشراق بأفكاره وآراءه ومناهجه على الكثير من المفكرين في البلاد الإسلامية، وخاصة في موضوع قضايا المرأة المسلمة، فلو قرأنا كتاباً لمثل هؤلاء الكتاب ولم نقرأ اسم المؤلف، فإننا نعتقد أن أحد المستشرقين يخاطبنا.

والأمر المؤسف حقاً أن المستشرقين على اختلاف مللهم ونحلهم ومناهجهم وأغراضهم يوجد منهم النزهاء والموضوعيون لكن هؤلاء لا يقلدون ولا يتأثرون إلا بمن يسب حضارتهم ويحتقر قيمهم؟ ولذلك نجدهم يرددون كلّ ما يقوله المستشرقون لفظاً ومعناً ومنهجاً، وبكلّ إعجاب وانبهار؟

وإذا عدنا إلى تاريخ تأثر الشرق بالفكر الاستشراقي، حول قضايا المرأة خاصة والكثير من القضايا عامة، فإنّه يعود إلى أيام الاستعمار والحملات الثقافية على البلدان الإسلامية، وأهمها حملة نابليون، والاستعمار الفرنسي والإنجليزي لدول الإسلام.

فقد برزت منذ القرن التاسع عشر، كتابات[1] صريحة وصارخة في قضايا المرأة المسلمة، المنافية للقيم والمبادىء الإسلامية، هذه المرأة التي كانت تعاني مثلها مثل الرجل من الظلم والاضطهاد والاستعمار، فعوض أن ينادي هؤلاء الكتاب بخروج الاستعمار والعودة إلى القيم السامية والمبادىء الإسلامية، ونبذ التقاليد البالية والجهل والتخلف، كانوا ينادون بتحرير المرأة عن دينها وقيمها.

ويرجع الكثير من الباحثين ظهور مثل هذه الكتابات في موضوع المرأة المسلمة إلى القرن التاسع عشر بمصر ثم عمت البلاد العربية.

وكانت البدايات على يد رفاعة الطهطاوي، الذي يعتبر أول من أثار قضية المرأة في الوطن العربي، بطريقة مخالفة للقيم والتعاليم الإسلامية المعروفة، فقد سافر رفاعة الطهطاوي من مصر إلى باريس في بعثة كواعظ وإمام لها (١٨٢٦ ـ ١٨٣١) وما أن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة عن البيئة المصرية المسلمة، مثل فكرة (الوطنية القومية) بمفهومها المادي المنابذ للرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم.

كما استوحى من الحياة الفرنسية أفكاراً عن المرأة هي أبعد ما تكون عن شرائع الإسلام وآدابه، وتجلى ذلك في مواقفه الجريئة من قضاياها. كاختلاط الجنسين، والسفور، وتحديد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات... وذكر في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) قال (إنّ السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد) وقال في موضع آخر (الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء بل هو أناقة وفتوة).

وبعد ذلك يظهر كاتب عربي آخر سنة ١٨٩٤، بعد الاحتلال

---

(١) اقتصرت على بعض النماذج والأمثلة، لأن هذا الفصل يحتاج إلى أن يفرد له بحث مطول وكتاب مستقبل ليوفى حقه.

الإنجليزي لمصر بحوالي اثني عشرة سنة، وهو من أولياء كرومر يسمى مرقص فهمي المحامي ويعد كتاباً عنوانه (المرأة في الشرق) دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى:

١ ـ القضاء على الحجاب الإسلامي.

٢ ـ إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها:

٣ ـ تقييد الطلاق وإيجاب وقوعه أمام القاضي.

٤ ـ منع الزواج بأكثر من واحدة.

٥ ـ إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط.

وقد روّج الاستعمار كثيراً لهذا الكتاب، عن طريق عقد جلسات في صالونات نساء مواليات للاستعمار كصالون الأميرة (نازلي فاضل) وغيرها.

وبعد هذا الكاتب ظهر كاتب آخر اشتهر أكثر من سابقيه، وهو قاسم أمين وذلك عام ١٨٩٩م والذي أصدر كتابه (تحرير المرأة) ودعا فيه إلى نفس ما دعا إليه رفاعة الطهطاوي ومرقص فهمي، إلا أنّه لم يتعرض إلى مسألة زواج المسلمات من الأقباط. ثم أصدر كتاباً آخر في نفس الموضوع أكثر جرأة، وصراحة في أهدافه، وهو (المرأة الجديدة) وبدأ أثر الغرب والاستشراق واضحاً، وقلّد فيه مناهج الغرب، والمرأة الجديدة التي قصدها قاسم أمين هي المرأة الأوربية، التي أراد من المرأة المصرية أن تتحوّل إليها وتتخذها مثلاً أعلى إذ يقول (هذا التحوّل هو كل ما نقصد، وغاية ما نسعى إليه، وهو أن تصل المرأة المصرية إلى هذا المقام الرفيع، وأن تخطو هذه الخطوة على سلم الكمال، وأن تكون مثلها تحرراً، فالبنات في سن العشرين يتركن عائلتهن، ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض وحدهن، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، منتقلات من بلد إلى آخر، ولم يخطر على بال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى

خطر ما، وكان من تحررها، أن يكون لها أصحاب، غير أصحاب الزوج، والرجل يرى أن زوجته لها أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها)[1].

وقال أيضاً... (وليس من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها... إذا أتى هذا الحين - ونرجو أن لا يكون بعيداً - انجلت الحقيقة أمام عيوننا ساطعة سطوع الشمس، وعرفنا قيمة التمدن الغربي)[2].

---

(١) المرأة الجديدة - قاسم أمين - مطبعة الشعب - مصر - ١٩١١ - ص ٧٠.

(٢) نفس المرجع - ص ٧١.

لقد انعقد مؤتمر بمصر بمناسبة مرور مائة سنة على قاسم أمين الذي حرّر المرأة وكان عنوان المؤتمر (مرور مائة عام على تحرير المرأة العربية) وانعقد من ٢٣ إلى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٩، وشارك في المؤتمر عدد كبير من الباحثين العرب والأوربيين، وحشد فيه العديد من أقطاب الفكر العلماني والنسوي الغربي جلسات عديدة وبحوث مختلفة أدت قراءة قاسم أمين، وكذا بعض رواد تحرير المرأة، بخاصة في مصر باعتبار أن أطروحات تحرير المرأة في العالم العربي بدأت منها، مائة عام مرت تغيّر فيها الكثير، تحولت المطالب من التحري والمساواة والاعتراض على أوضاع كنّا وما زلنا نراها ظالمة (كالجهل والتخلف والتعسف في الطلاق والحبس والإضرار بالزوجة، ومنع البنت من التعليم...) إلى مطالب نسوية لا تقبل التعارض، حادة لا تقبل التحاور، مدعومة حكومياً ودولياً، لا ترضى التنازل، خلال أسبوع كامل ألقيت حوالي عشرين محاضرة حول قاسم أمين وكتابية «تحرير امرأة» و«المرأة الجديدة» ومن بين الذين قدموا بحوثهم باحثة أوربية (إيزابيلا كامير ذانيقو» بعنوان (لماذا بقي قاسم أمين مجهولاً في الغرب)؟ هذه المداخلة تعني الكثير من خلال عنوانها وتبرز هدف ومقصد المؤتمر، وتتدخل في هذا الملتقى نوال السعداوي لتلقي محاضرة تحت عنوان (الإبداع والتمرد في حياة المرأة المصرية) السؤال المطروح هل المرأة لا تكون مبدعة إلا إذا كانت متمردة، وهل التمرد لا يعني إلا الخروج عن الشرع وتعاليمه؟ جميل أن يكون التمرد على الجهل والغرب، ليكون الإنسان العربي مبدعاً أصيلاً، ولكن هذا يعيد عما تعنيه نوال السعداوي في هذه المداخلة...).

هذه الفقرة مقتبسة من مقال كتبته في جريدة البصائر الأسبوعية لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحت عنوان (عولمة الأسرة والنسائية الغربية) العدد ١٠ جويلية ٢٠٠٠.

أما انعكاس هذه الكتابات على المرأة الشرقية المسلمة، فقد كان سلبياً وإيجابياً، فقد ظهرت نساء كثيرات يحاولن تطبيق وتوعية الأخريات بهذه المفاهيم الجديدة، كما ظهرت نساء ينادين بالتحذير من هذه المفاهيم؟

وتبعاً لحركة قاسم أمين الذي صرّح فيما بعد عن تراجعه، عن الكثير مما قاله حول قضايا المرأة (لقد كنت أدعو إلى اقتفاء أثر، الإفرنج في تحرير نسائهم، وغاليت في هذا المعنى، حتى دعوتهن إلى تمزيق الحجاب، وإلى إشراك الرجال في كلّ أعمالهم، ومآدبهم وولائمهم، ولكنني أدركت الآن خطر هذه الدعوة، بما اختبرته من أخلاق الناس فلقد تتبعت خطوات النساء في كثير من الأحياء لأعرف درجة احترام الناس لهن، فرأيت من فساد أخلاق الرجال ـ بكل أسف ـ ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي، استنفر الناس إلى معارضتي، لهذا لا أجد الوقت المناسب للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذي قصدته من قبل)[1].

فإن كان قاسم أمين قد تراجع عن بعض مواقفه فإن أفكاره المتأثرة بالاستشراق كانت عاملاً في ظهور حركة نسائية تحررية، غذتها نساء غريبات كزوجة حسن باشا الفرنسية صاحب كتاب (حريم ومسلمات مصر) وكتاب (المطلقات) هذه المرأة التي أعدّت هدى الشعراوي وغيرها من نساء مصر للنهوض بالمرأة على الطريقة الغربية، مع محاربة القيم والمبادىء الإسلامية.

قالت إحدى الكاتبات (لما عادت هدى الشعراوي للمرة الأولى من الغرب[2] كانت تفكر في هذه التقاليد الموروثة التي لا تسمح لها بالظهور سافرة في بلادها، فثارت عليها، وما كادت تطل على الاسكندرية، حتى ألقت الحجاب جانباً، ودخلت مصر مع صديقها منير الشعراوي.

---

(١) معلمة الإسلام ـ أنور الجندي ـ ص ١٩٨.

(٢) عودتها من الغرب كانت بعد حضور مؤتمر النساء الدولي عقد بروما عام ١٩٢٣.

وبعد هدى الشعراوي تأتي درّية شفيق، التي تحصلت على الدكتوراه من فرنسا وتعود لمصر لتشكل حزب (بنت النيل) ثم ترحل إلى إنجلترا لتقابل سيزانبراوي بدون حجاب... ولم يكن هذا الأمر من رائدة النهضة النسوية بدعاً، أو خروجاً على الحشمة والوقار بل كان منها سلوكاً مثالياً في السفور السليم)[1].

هناك بحفاوة، تلقتها الصحافة ورحبت بها، ونشرت لها عدة أحاديث تصوّرها بالداعية الكبرى إلى تحرير المرأة المصرية من أغلال الإسلام وتقاليده، وأغلال الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وإدخال القوانين الغربية في الأحوال الشخصية. وتقول هذه المرأة في كتابها تطور النهضة النسائية ص ٩٧ (وبالرغم من أن ثقافة معظم المصريين المتعلمين متأثرة أشد التأثر بالثقافة الفرنسية، وبالرغم من أن كثيراً من مظاهر حياتنا الاجتماعية منقول عن مظاهر الحياة الفرنسية الاجتماعية، فإنا لا نجد في ظروفنا الحاضرة مثلاً أرفع من مثل الإنجليزية المثالية التي نرجو أن نخطو في نشاطنا النسائي على نهجنا وهداها).

ومن الذين تأثروا بالمستشرقين سلامة موسى، فقد كتب في مطلع هذا القرن كتابان يدلان على أنّه التلميذ النجيب والمطيع للغرب عامة والاستشراق خاصة، وهذان الكتابان هما «ما هي النهضة»، و«المرأة ليست لعبة الرجل».

وقد نادى بتحرير المرأة من المبادىء والقيم صراحة، بل نادى بوجوب التخلص من الغيبيات كشرط لنهضتنا كما نهضت أوربا فيقول (... أي النظر إلى هذه الدنيا كأنها الغاية التي ليس وراءها غاية تخدم، وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمت بأي صلة للغيبيات،

---

(١) نساء شهيرات من الشرق والغرب. وداد العبيكاكيني ص ٥٢.

ويصرح في موقع آخر بوجوب التخلص من العقائد الدينية والاعتماد كلّياً على العقل... وأن الانحطاط لم يعن في القرون الوسطى، وهو لا يعني الآن في الشرق أو الغرب سوى قصر الذهن البشري على خدمة ما وراء الطبيعة وتشدان السعادة والهناء في غير هذه الأرض).

هذه هي الفلسفة المادية التي يؤمن بها هذا الرجل، ولا يخفى على عاقل كم عانت أوربا منها، وكتابانه عن المرأة لم تخرج عن نهج سابقيه، فحرية المرأة عنده مطلقة لا قيود ولا حدود لها.

ومن الكتاب والأدباء المشهورين والمعروفين في القرن العشرين طه حسين الذي تتلمذ على المستشرقين وتأثر بهم تأثراً كبيراً في آرائه وكتاباته، والذي يقرأ هذه الفقرة، كمثال، لا يفرق بين ما كتبه المستشرقون الحاقدون على الإسلام وبين ما كتبه العرب المقلدون لهم كطه حسين.

فهو يقول: (إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين إلهي نزل يبيّن الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية، ويتخذ كمنطلق لتجديد الأمة، فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين)[1].

وقد استحق طه حسين ثناء كبار المستشرقين بعمله على نشر أفكار منافية للقيم والشريعة الإسلامية، قال الدكتور زكي مبارك (وقف المستشرق ماسينيون يوم أديت امتحان الدكتوراه، فقال: إنني حين أقرأ بحثاً لطه حسين أقول هذه بضاعتنا ردّت إلينا)[2].

هذه وتلميذته أمينة سعيد وهي من المناديات بتحرر المرأة من القيم إذ

---

(١) انظر كتاب مستقبل الثقافة في مصر ـ طه حسين ـ ص ٦٥.

(٢) زكي مبارك ـ أنور الجندي ـ ص ١٣٢.

تقول: (عجب لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهن على قيد الحياة)[1].

ومن يقرأ مقالة من تأثر بالمستشرقين لا يفرق بين هذه المقالة وما قالته الصحيفة الاسترالية جير الدين بروك في موضوع الحجاب: (المرأة اليوم بعد كلّ ما صنعته أخوات لها من بنات الجيل الماضي لترفع عنها نير الهوان ـ تتبرع سلفاً بحجاب نفسها، قبل أن يأمرها بالحجاب والد أو زوج، فكأنها بذلك الحجاب الطوعي تقف على مئذنة لتصيح في الناس ها هي ذي سلعة من عهود الحريم لمن يشتري)[2].

وفي هذا السياق نجد أن المستشرقين يرون في حجاب المرأة تقليد للرومان وليس تشريعاً قرآنياً وقد عبرت عن ذلك تلميذتهم الوفية المخلصة نوال السعداوي فقد كتبت مقالة بعنوان: (ليس هناك نص... أتحدى؟) (إن ما هو طبيعي وما هو إنساني أن تعامل المرأة كعقل وجسد، وتتعامل مع الآخرين من هذا المنطلق، أنا ضد أن نحكم على المرأة بالزي فحجاب المرأة ونقابها ما هو إلا اختزال لإنسانيتها، وأنا ضده بالذات حين يكون باسم الدين، والذين ينادون بأن تتحجب المرأة لم يفهموا المرأة المسلمة، ولم يدرسوا أحاديث الرسول، ولم يقرأوا القرآن قراءة صحيحة، ولم يطلعوا على التاريخ، بل أخذوا أشياء دخيلة على الإسلام الحقيقي وعلى الحضارة المصرية والعربية الحقيقية، وأنا لي خمس وعشرون عاماً أدرس الدين الإسلامي وأقارن، ولا توجد آية قرآنية واحدة تنص على تحجب المرأة، وزوجات سيّدنا محمد لم يكّن محجبات، وأتحدى أي شخص يقول بأنّ السيدة خديجة مثلاً، كانت محجبة، وأن سيدنا محمد فرضه عليها، والحجاب تاريخياً بدأ في الدين اليهودي الذي يرى أن حواء ترمز إلى

---

(١) عودة الحجاب ـ محمد أحمد إسماعيل مقدم ـ دار طيبة ـ جـ ١ ـ ص ١٢٦.

(٢) انظر الصحوة في عالم المرأة ـ د/ عبد الحي القرماوي ـ ص ١١٢.

الخطيئة الأولى، وما هي إلا جسد فقط، على عكس آدم الذي يرمز للعقل، لذلك يجب أن تشعر بطبيعتها الناقصة، وتغطي رأسها خجلاً وعاراً) هذا إسقاط واضح للمناهج الغربية على الشريعة، وفي النص أخطاء كثيرة وشنيعة وزادتها شناعة قراءة الكاتبة للقرآن والأحاديث لمدة خمس وعشرين سنة دون أن تفهم من النصوص شيئاً، فالحجاب شرّع بالكتاب والسنّة بعد الهجرة وزوجات الرسول ـ ﷺ ـ كلّهن محجبات ومطيعات لله ورسوله ـ ﷺ ـ وأما أن خديجة ـ رضي الله عنها ـ لم تكن محجبة فإن الحجاب لم ينزل تشريعه بمكة، وخديجة ـ رضي الله عنها ـ ماتت في السنوات الأولى للبعثة، وكان الإسلام يهتم بترسيخ العقائد والتوحيد ونبذ الشرك والأصنام، والتاريخ يذكر بأن النساء العربيات الشريفات كنّ مستورات ولباسهن محتشم، وإن كنّ لم يقرأن القرآن وأحاديث الرسول ـ ﷺ ـ لمدة خمس وعشرين سنة...؟

وتقول الدكتورة صفيناز كاظم (... ولو أننا نظرنا في كلّ ما تقوله، وتكتبه وتدلي به من أحاديث، لوجدنا أنّه لا يخرج عن انعكاسات لما هو قائم بالفعل في الذهنية الغربية منذ أمد طويل، الهجوم على القوانين الإسلامية والتنديد بالالتزام الإسلامي للمرأة في تمسكها بالزي الإسلامي، أو ما يطلقونه على الحجاب أو المعايرة بالترخيص لرجل بالزواج من أربع نسوة وتشويه هذا الترخيص المشروط بالعدل والمحكوم بظروف استثنائية)[1].

وتقول أيضاً (إن نوال السعداوي اسم أصبح شاهداً على إفلاس للفكر العلماني وشهادة على خواء ما يسمى بقضية المرأة، وما يعقبه من تداعيات، ولولا التركيز الإعلامي الغربي على نوال السعداوي لما كان لهذا الاسم وجود فعلي على مستوى الشارع المصري والعربي والإسلامي لا يكاد أحد يعرف من هي نوال السعداوي)[2].

---

(١) تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة ـ أنور الجندي ـ مكتب التراث الإسلامي ـ ص ٣٥٩.

(٢) نفس المرجع.

وكتابات نوال السعداوي فيها جرأة وتحدي لا يستطيعها إلا أمثالها، فهي من المناديات بالحرية الجنسية وقد نشرت، سمومها في الكثير من المجلات الغربية التي وصفتها بأنّها سيمون دي بوفوار الشرق الأوسط، وقد ردّت عليها باحثة من الغرب (كاتي كاترين) تستنكر عليها هذه الآراء التي رفضها ومجها الغرب فتقول كاتي كاترين (بأن الحرية الجنسية في الغرب كانت عاملاً مهماً جداً في تنامي ما أسمته الإسلام الأصولي، وقالت أن بعض المتعصبين يخشون العري والإختلاط مما يدفعهم إلى حماية نسائهم بواسطة النقاب).

ومن الطروحات الجريئة التي تفوق الطروحات الاستشراقية ما كتبه أحدهم (لا بد للحجاب من أن يحمي الرجل من هذا الفزع المحرق، وهذا الاضطراب العنيف الذي تسببه المرأة، حجراً بعد حجر بدأ يقوم عالم تهوسي ذو أركان عديدة مثل:

١ ـ المرأة أدنى عقلاً وديناً (فالحيض يمنعها من استكمال صلواتها وصيامها).

٢ ـ هي أصل النزاعات والخطايا.

٣ ـ الزيادة الشديدة في عدد النساء إحدى علامات الساعة.

٤ ـ هي رمز النجاسة.

٥ ـ النساء هنّ غالبة أهل الجحيم.

٦ ـ في الجنة هي الجانب الأساسي من الملذات التي بُشر بها الصالحون[1].

---

(١) انظر الضمير والتشريع (العقلية المدنية والحقوق الحديثة) عياض عاشور المركز الثقافي العربي ـ ١٩٩٨.

هناك خلط كبير في هذا النص بين تعاليم الإسلام ونصوص المسيحية واليهودية المغرضة في شأن المرأة، ففي الإسلام المرأة ليست أدنى ولا أقل شأناً من رجل وعدم استكمال صلواتها وصيامها بسبب الحيض، هي حكمة لا يفهمها من اختار الاستشراق مدرسة والغرب نهجاً، وليس هناك نص صريح أو غير صريح يدل على أنّ المرأة أصل النزاعات والخطايا، إلا عند اليهود والمرأة ليست رمزاً للنجاسة عند المسلمين بل هي رمز للطهر والعفاف، واليهودية والمسيحية هي التي نعتتها بهذه الأوصاف، والقول بغالبية النساء في النار فإنه حديث قاله عليه الصلاة والسلام في شأن النساء على سبيل الترهيب وبسبب أعمالهن وليس من باب احتقارهن.

فقد قال ـ ﷺ ـ: «**يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار**»، فقلن: ولم يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرنّ العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكنّ**» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل**»، قلن: بلى، قال: «**فتلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟**»، قلن: بلى، قال: «**فتلك من نقصان دينها**»[1].

ومن الدراسات الشرقية المتأثرة بالغرب والاستشراق كتاب الطاهر حدد والذي عنوانه: «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع»، وقد هللت الدوائر الاستعمارية عام **١٩٣١** لصدور هذا الكتاب في تونس، والذي يحتوي على أفكار لا تختلف عمّا كتبه قاسم أمين وغيره، ويعتبر المرجع والأساس للحركات التحريرية النسائية بتونس.

أما كتابات الكاتبة المغربية فاطمة المرنيسي لا تختلف عن سابقاتها من

---

(١) أخرجه البخاري، رقم **٢٩٣**.

حيث جرأة الطرح ولا أقول جرأة الطرح العلمي لأن هذه صفة الباحثين الناجحين وإنما أقول الجرأة على الدين والقيم والتعاليم ولا يختلف منهجها عن أي مستشرق لا يرى في اقرآن ولا في سنة قداسةً واحتراماً.

ولم يخرج منهجها عن منهج جولدزيهر وغيره من الذين شككوا في القرآن والحديث فكتابها: «الحريم السياسي النبي والنساء» مليء بالتحريفات والخرافات فهي تدعو صراحةً إلى التخلص من الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة، لنجدها ضمن عرضها التاريخي لحياة الرسول ﷺ وتلخيصها لقواعد الإسلام، تدسّ ما يفيد أن بعض الوحي الذي نزل في الفترة المكية كان تحت ضغط قريش، وأن الرسول حذفه من القرآن بمجرد ما تخلص من هذا الضغط وتأتي بقصة الغرانيق[1].

ولو التزمت النهج العلمي الصحيح لوجدت أن حديث الغرانيق لا أصل له، ولكن لا تعجب فمدرسة المستشرقين وخريجيها لا يهتمون إلا لكل ضعيف وموضوع ومنكر من النصوص ـ كما سبق أن ذكرت ـ وتضعيف كلّ صحيح، كما فعلت الكاتبة في حديث: «**لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة**»[2] الذين درست وردته ورفضت صحته في فصل سمته (البحث عن حديث ضد النساء) وهذا الحديث صحيح لكن الكاتبة ردته لأنّ فيه أبا بكرة الصحابي الذي رواه وسمعه من رسول الله ـ ﷺ ـ وتقول (فما هي المناسبة التي تذكر فيها أبو بكرة هذه الملاحظة (الحديث) التي كانت قد صدرت عن الرسول ـ ﷺ ـ ولماذا شعر بالحاجة إلى روايتها؟ لا بد أن تكون لأبي بكرة ذاكرة أسطورية طالما أنه تذكرها بعد ربع قرن من وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وفي الفترة التي استرد فيها على البصرة بعد أن غلب عليها عائشة في موقعة الجمل).

---

(١) انظر الحريم السياسي النبي والنساء ـ فاطمة المرنيسي ـ ترجمة عبد الهادي عباس ـ دار الحصاد ـ سورية ـ ط ٢ ـ ١٩٩٣ ـ ص ٥١.

(٢) أخرجه البخاري ـ كتاب الفتن ـ والترمذي وأحمد والنسائي.

وتقول في موضع آخر من كتابها (لماذا إذن تميّز أبو بكرة بوضعية معادية للنساء لا مثيل لها؟) غريب هذا التعليق وهذا الكلام، فأبو بكرة مجرد راو للحديث الصحيح، الذي أخرجه البخاري، وللكاتبة ربط غريب بين الوقائع والأحاديث، وتسقطها على الصحابي، وبعد وفاة علي في معركة صفين أخرج أبو بكرة حديثاً آخر في هذه المناسبة لتولي الحسن مكان والده يقول سمعت ـ ﷺ ـ يقول (إن الحسن بن علي سوف يكون رجل الصالحات) قاله عندما كان الحسن طفلاً وترجع الرواية إلى ابن حجر وتعلق (لكن لأبي بكرة ذاكرة مدهشة للأحاديث السياسية المناسبة، كانت تعوض بشكل غريب في قلب التاريخ)[1].

وتصل إلى النتيجة والتي هي استبعاد أبي بكرة على الفور من رواية الأحاديث والسبب هو أنه جلد عندما شهد على المغيرة بن شعبة بالزنا ولم تكتمل الشهادة ليدان الصحابي المغيرة، فجلد عمر ـ رضي الله عنه ـ الثلاثة منهم أبي بكرة. وترى بأن كلّ الأحاديث التي رواها هذا الصحابي يجب رفضها عجيب هذا المنطق (فالكاتبة تعاني من نقص كبير في معرفة علوم القرآن وعلوم الحديث وأصول الفقه، وخرج كتابها هذا عن نطاق البحث العلمي الجاد إلى نطاق العمل السطحي والمتسرع في الدرس والفهم وإطلاق الأحكام، كما يقول أحد الباحثين)[2].

أما كتابها (ما وراء الحجاب) فهو لا يقل عن سابقه في التأثر بالغرب والاستشراق في دراسة شخصية النبي ـ ﷺ ـ فهي لا تختلف عما قاله مستشرقون كثيرون حول النبي وزوجاته بل تنقل منهم مثل شاخت وغيره. فتقول على سبيل المثال (والملفت للإنتباه في تعامله مع النساء هو ذلك

---

(١) الحريم السياسي ـ ص ٦٧ أعطت الكاتبة عنواناً للفصل الرابع هو (البحث عن أحاديث أخرى معادية للنساء)؟؟

(٢) انظر المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير ـ ص ٢٤.

التناقض بين المثل التي بشّر بها كنموذج يحتذيه المؤمنون في تعاملهم مع النساء وبين الطريقة التي تعامل بها معهن)[1].

وهناك موضوعات كثيرة كرّست فيها الكاتبة أفكارها العدوانية والعدائية بكل جرأة واعتبرت الجاهلية أحسن من الإسلام ووضعية المرأة في الجاهلية وحقوقها كانت أحسن بكثير من وضعيتها في الإسلام؟؟

وإذا كانت كلّ هذه الكتابات، تنصب في مجال الدفاع عن حقوق المرأة، وتقليداً للغرب بشكل أعمى فإن المرأة العربية المسلمة لم تكن لها قضية تشبه قضية المرأة الغربية، لأن المرأة الغربية منطلقها لم يكن هو نفسه ما تريده المرأة المسلمة، يقول (ويل ديورانت) في كتابه (لذات الفلسفة): تحرر المرأة كان من آثار الثورة الصناعية، إذ أصبح للمرأة قضية، وازدادت قضيتها حدّة بعد الحرب العالمية العظمى، وبعد أن افتقدت الملايين من أيدي الرجال العاملة، فاشتغلت المصانع والمعامل، حاجة المرأة الماسة إلى العمل، وشغلتها ساعات طويلة وأعطتها أجراً أقل بكثير من أجر الرجل الذي كان يقوم معها بنفس العمل في نفس المصنع وكان لا بد بعد هذا التمييز في الأجر والإحجاف بالحق، من ثورة تعرب فيها المرأة عن استيائها من مظاهر الظلم والتمييز، فابتدأت بالإضراب عن العمل، وتظاهرت مع رفيقات لها، مما أتاح لها بعد ذلك أن تتفوه بالمطالب وتقاضي الرجل بما يسمى حقوق المرأة).

فالقضية إذن في بدء المسيرة، لم تكن قضية مساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية، بقدر ما كانت قضية استياء وكفاح من أجل الوصول إلى العدل والإنصاف.

---

(١) ما وراء الحجاب ـ ديناميكا المذكر ـ المؤنث في المجتمع الإسلامي الحديث ـ ترجمة أحمد صالح ـ دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ـ سوريا ط ١ ـ ١٩٩٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

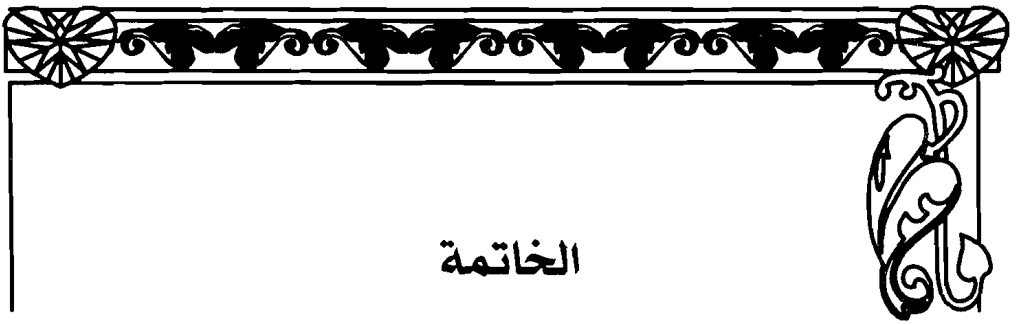

الخاتمة

إن الاستشراق هو دراسة الشرق، والشرق يعني الإسلام، يعني اللغة العربية، والمبادىء السامية ولذلك كان الاستشراق، وسيبقى مهما تغيرت مصطلحاته وتسمياته، ما دام هذا الشرق يتميز بخصوصياته، ويتفرد بصفاته عن الغرب، الذي يريد تنميط الدنيا كلها بنمطه الخاص.

لقد كان الاستشراق نتاج علمي لدول كثيرة بأوروبا، اختلفت فيما بينها وتناحرت ولكنها اتفقت في وصف الشرق ودراسته، والبعد عن الموضوعية خاصة عند دراسته الإسلام والقرآن والرسول ﷺ؟!!!

لقد لبس الاستشراق كل الألوان التي لبستها السياسة الأوروبية والأمريكية فقد كان صليبياً عندما كانت أوربا صليبية، وكان تبشيرياً عندما كان النشاط التبشيري في أوجه، وأصبح الآن يكتسي صبغة الشعارات العظمى التي تهتف بها أمريكا كالعولمة وحوار الحضارات والاهتمام بالإعلام. كما أصبح الاستشراق في هذه السنوات الأخيرة أمريكياً أكثر منه أوربياً والسبب واضح!

لو جئنا نقيِّم الاستشراق من حيث الإنتاج الفكري، فقد كان إنتاجه غزيراً وكبيراً جداً. وصل إلى ٦٠ ألف كتاب في أقل من قرنين، وهذا الإنتاج يبرز الأهداف الواضحة للاستشراق، والاتجاهات العلمية والموضوعية لهؤلاء المستشرقين، فصنف كان موضوعياً وعلمياً وأثبت حقائق الإسلام

الناصعة والكثير من هؤلاء دخل الإسلام، صنف كان بعيداً عن الموضوعية والعلمية، وكانت كتاباته مليئة بالحقد والأباطيل والمغالطات والتعصب.

لم تخرج كتابات المستشرقين عند إطار الشريعة الإسلامية، فقد أكثروا الكتابة والتأليف في مسائل القرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية، الفقه وأصوله، التاريخ الإسلامي، التراث واللغة العربية.

هذه الكتابات والدراسات جعلت العرب والمسلمين يقفون مواقف مختلفة، بين منبهر ومعجب بهذا الغرب وبكل ما يقوله وبين مستاء غاصب، ينتقد بشدة هذا الغرب وإنتاجه، يقول محمد أركون في كتابه: (تاريخ الفكر العربي ص ٢٤٥).

«لماذا نعود مرة أخرى إلى الاستشراق؟ لماذا نعود إلى ذلك الصراع الذي يغيظ البعض أكثر فأكثر، ويترك البعض الآخر منفرين أو لا مبالين، ويزيد في أغلب الأحيان من الخلط وسوء الفهم فيما يخص الروابط بين الشرق والغرب؟... هل يقيناً هنالك فكرة جديدة لم تستغل بعد في هذا الموضوع؟ هل بقي من نقد محكم وبناء لم يقم به أحد، أو حقل من البحث والتأمل لم يفتتح ويلحظ حتى الآن من قبل المسلمين الذين يجترون الكلام ومشاعر الغيظ أو من قبل المستشرقين الذين يردون على اتهامات المسلمين بشكل عنجهي ومتعال مفتخرين بعلميتهم وتفوقهم؟!!».

ويقترح أركون في كتابه هذا على القراء والباحثين أن يعتمدوا على (المقابلة المنهجية بين الخطابات الإسلامية والخطابات الاستشراقية...).

هناك تناقض في كلامه، ففي بداية الفقرة، يقول أن الاستشراق انتهى والأفكار كلها استهلكت، ولماذا العودة إليه. وكلا الموقفين خطأ (المسلمين والمستشرقين) ثم يقترح منهجاً لدراسة خطابات المسلمين والمستشرقين لماذا؟ هل تدرس من أجل التقاطع أم الاختلاف؟ أم من حيث التأثير والتأثر.

ومهما انتقد موقف المسلمين الذين تصدوا للاستشراق فإن هذا الموقف هو الأحق والأصح، وإذا رد المسلمون والعرب على المستشرقين، فليس الهدف الوحيد هو إقناعهم بحقائق الإسلام والعدول عن أرائهم وحقدهم وأباطيلهم... لأن هذا الهدف قد لا يتحقق، وإنما الهدف هو تصحيح المفاهيم وتنبيه السواد الأعظم من القراء في الغرب والشرق، على أنّ هذه الكتابات ليست بريئة من الخداع والدوائر الاستعمارية ولعل من نافلة القول التذكير برد الفعل الذي هز المستشرقين في أوربا وأمريكا عند صدور كتاب الاستشراق لإدوارد السعيد. ولم يكن ردّ فعل المستشرقين هذه المرة بشكل عنهجي ومتعال وافتخار بالعلمية والموضوعية بل بمشاعر الغيظ والاحتجاج والدفاع.

كما يتساءل أركون: هل بقيت هنالك فكرة جديدة لم تستغل بعد في هذا الموضوع؟ هل بقي من نقد محكم وبناء لم يقم به أحد؟...

أقول: نعم بقيت أفكار جديدة كثيرة، وموضوعات متعددة لم تطرق وقد أشار إدوارد السعيد أن الأبحاث في هذا المجال من طرف العرب والمسلمين قليلة جداً منها التربية والاستشراق...

وأضيف: المرأة المسلمة، حقوق الإنسان، الحريات العامة، كلها موضوعات يجب أن تدرس من قبل الباحثين والدارسين المسلمين والعرب، لبيان مناهج وآراء المستشرقين حولها...

إن المرأة المسلمة التي جعلتها المسيحية أداة ووسيلة للتبشير ونشر المسيحية في العالم الإسلامي، أرادها الاستشراق كذلك أداة ووسيلة لهدم القيم والتعاليم الإسلامية.

وعندما نقول المرأة المسلمة، كمجال للدراسات الاستشراقية، نقول المرأة المسلمة حقوقها وواجباتها، زوجات الرسول ﷺ نظام الأسرة في

الإسلام، تعدد الزوجات، الحجاب، الكتابات النسائية الشرقية والغربية.

والكتابات الاستشراقية حول المرأة كثيرة جداً وكتبها مستشرقون من مختلف الدول والجنسيات، ومن طرف الرجال والنساء، الذين اعتمدوا في دراساتهم حول المرأة المسلمة على كل ضعيف وشاذ من الأخبار الموجودة في المصادر، أو انطلقوا من خلفياتهم التي لا تخفى على أحد...

لم يكن المستشرقون موضوعيون رغم اعتمادهم المناهج العلمية الحديثة التي توصل الحقائق، في دراسة المرأة المسلمة من مختلف الجوانب، زوجات الرسول ﷺ، نظام الأسرة في الإسلام، تعدد الزوجات، الحجاب...

تقول الدكتورة أنا ماري شمل (إن الكثير من الأحكام الظالمة التي تلصقها بالإسلام ناشئة عن سوء فهمنا وخطئنا في القياس المنطلق من معاييرها الغربية ومثلنا أو قيمنا وليدة القرن العشرين المشرف على النهاية، وهنالك المشكلة والتي يجسدها تساؤلنا؟ هل يمكن أن تكون القيم الغربية، قيم المجتمع المعدوم إلا له، قيماً مطلقاً؟!!!).

حقيقة إن أحكام الاستشراق في المرأة المسلمة أحكاماً ظالمة ومغرضة إلى حد بعيد، والذي يؤلم حقاً تلك الأهداف التي بدأت تحقق في تصرفات وكتابات النساء المسلمات والعربيات، وذلك باسم حقوق الإنسان، والتي هي من أبرز القضايا التي شغلت الشعوب والدول، وإذا كانت المرأة تشكل تقريباً نصف سكان الكرة الأرضية وتنجب النصفين معاً، فلا عجب من بروز قضية هي قضية المرأة وحقوقها والمساواة مع الرجل. ولم يجد الغرب بنسائه ورجاله سوى تصدير هذه القضايا إلى الشرق وإيهامه بأن العائق من وصول المرأة العربية إلى المساواة مع الرجل هو الإسلام بتعاليمه وقيمه وليس الجهل والتخلف والبعد على الحق والهدى، يقول محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ: «إن المرأة المطروحة وراء سجن من الجهل والعمى يموت

معها نصف الأمة، ويمرض النصف الآخر، والمرأة المتروكة للغبي والهوى اضطرب معها الأمة بأكملها ويلعب بزمامهم الشيطان، والأمة الإسلامية الآن نصفان، نصف لا مكان للمرأة فيه... ونصف مكان المرأة فيه غلط، وموضعها فيه حائر... ولا ندري متى نخلص من هذه النقائص وتهدى إلى الحق.

وأخيراً مزيد من الكتابات الجادة عن المرأة المسلمة، والغرب مزيد من قراءة الغرب وتتبع إنتاجه حول المرأة المسلمة لأن المرأة المسلمة مركز الرهان، ولب الصراع والوسيلة الناجعة والناجحة لضرب هذا الشرق في عصر لم تغير فيه وتشوه الهويات بل تمحى وتزول، إنّه عصر عولمة النسائية والأسرة الأمريكية والغربية؟؟!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

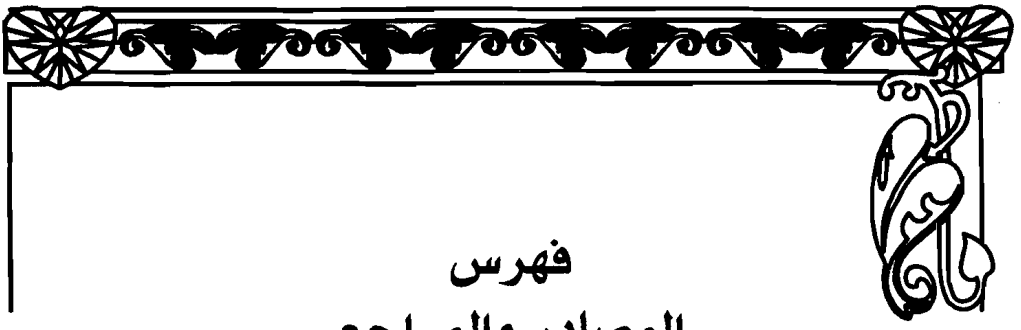

فهرس
المصادر والمراجع

١ ـ **أحكام الغرب حول المسلمين والعرب خلال خمسة وعشرين قرناً هل قلت عربي؟** محمد قاسمي وشبانتال داغرون ـ ترجمة فقيهي الصحراوي ـ مراجعة وتقديم عمر أوكان ـ أفريقيا الشرق.

٢ ـ **أحكام القرآن** ـ ابن العربي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى.

٣ ـ **إسبال الكساء على النساء** ـ السيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت **١٩٨٥**.

٤ ـ **أصول القانون** ـ السنهوري عبد الرزاق ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر **١٩٤٦**م.

٥ ـ **ألف ليلة وليلة** ـ المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ـ الجزائر **١٩٨٩**م.

٦ ـ **امرأتنا أمام الشريعة والقانون** ـ الطاهر حداد ـ.

٧ ـ **إنتاج المستشرقين** ـ مالك بن نبي ـ مجلة عالم الفكر ـ **١٩٧٥**م.

٨ ـ **الاستشراق المعرفة، السلطة، الإنشاء** ـ إدوارد السعيد ـ نقله إلى العربية كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة **١٩٩٥**م.

٩ ـ **الاستشراق والتسيير** ـ قراءة تاريخية موجزة ـ محمد سيد الجليند ـ دار القباء ـ القاهرة **١٩٩٩**م.

١٠ ـ **الاستشراق والاتجاهات الحديثة في التاريخ الإسلامي** (دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس ـ الدكتور مازن المطبقاني ـ الرياض **١٩٩٥**م ـ مطبوعات الملك فهد الوطنية).

١١ ـ **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** ـ كتاب الأمة محمد حمدي زقزوق ١٤٠٤ هـ.

١٢ ـ **الأسرة والحياة العائلية** ـ سناء الخولي ـ بيروت ـ دار النهضة ١٩٨٦م.
١٣ ـ **الإسلام** ـ هنري ماسيه ـ ترجمة بهيج شعبان ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٠م.
١٤ ـ **الإسلام خواطر وسوانح** ـ الكونت هنري دي كاشري ـ ترجمة أحمد فتحي باشا ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ.
١٥ ـ **الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكا** ـ برنارد لويس ـ إدوارد السعيد ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٩٤م.
١٦ ـ **الإسلام كبديل** ـ مراد هوفمان ـ مكتبة العبيكان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٧ ـ الرياض ـ.
١٧ ـ **الإسلام في مرآة الفكر العربي** ـ محمد حمدي زقزوق ـ دار الفكر العربي ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٩٤م.
١٨ ـ **الإسلام في مفترق الطرق** ـ محمد أسد ـ ترجمة عثمان أمين الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٧٥م.
١٩ ـ **الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار** ـ أنور الجندي ـ مطبعة الرسالة القاهرة.
٢٠ ـ **الإسلام الحضارة الغربية** ـ حسين محمد محمد ـ دار الرسالة ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٤٠٢ هـ.
٢١ ـ **الإسلام والعرب** ـ روم لاندو ـ ترجمة منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ.
٢٢ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** ـ ابن حجر العسقلاني ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٢٣ ـ **الأغاني** ـ أبو فرج الأصفهاني ـ تحقيق عبد الكريم العزياني ـ عبد العزيز مطر ـ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧٢م.
٢٤ ـ **بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر** ـ مازن المطبقاني ـ شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ـ جدة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
٢٥ ـ **بحوث ودراسات** ـ المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ـ طبعه وراجعه عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ـ المكتبة العصرية ـ بيروت.
٢٦ ـ **البداية والنهاية** ـ ابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ مكتبة النصر ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٢٧ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس** ـ الزبيدي ـ تحقيق علي شيري ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٤م.
٢٨ ـ **تاريخ بغداد** ـ الخطيب البغدادي ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٧م.
٢٩ ـ **تاريخ الشعوب العربية** ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة أمين فارس ـ ومنير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٩٣م.
٣٠ ـ **تاريخ الفكر العربي الإسلامي** ـ محمد أركون ـ ترجمة هاشم صالح ـ المركز الثقافي العربي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٦م.
٣١ ـ **تحرير المرأة** ـ قاسم أمين ـ موقم ـ ١٩٩٠م ـ الجزائر.
٣٢ ـ **التراث والحضارة الإسلامية** ـ ماهر عبد القادر ـ دار النهضة ـ بيروت.
٣٣ ـ **تعقيبات على الاستشراق** ـ إدوارد السعيد ـ ترجمة صبحي حديدي ـ دار فارس ـ عمان ١٩٩٦م.
٣٤ ـ **التفسير الكبير** ـ الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.
٣٥ ـ **تفسير الطبري** ـ الطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٧م.
٣٦ ـ **تخليص في تلخيص باريس** ـ رفاعة الطهطاوي.
٣٧ ـ **تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة** أنور الجندي ـ مكتب التراث الإسلامي.
٣٨ ـ **الحريم السياسي، النبي والنساء**، فاطمة المرنيسي ـ ترجمة عبد الهادي عباس ـ دار الحصاد ـ سورية ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٣م.
٣٩ ـ **الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي** ـ دومنيك وجانين سورديل. ترجمة حسني الزينة ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٠م.
٤٠ ـ **حضارة العرب** ـ غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبقة الثانية ـ ١٩٤٨م.
٤١ ـ **الحضارة العربية** ـ جاك ريسيل ـ ترجمة خليل أبو خليل ـ الطبعة الأولى ـ بيروت باريس ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
٤٢ ـ **حياة محمد** ـ إتيان دينه ـ ترجمة عبد الحليم محمود ـ محمد عبد الحليم ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٩م.
٤٣ ـ **حياة محمد** ـ إميل ـ دار منغام ـ ترجمة عادل زعتر.
٤٤ ـ **حياة محمد** ـ محمد حسنين هيكل ـ دار المعارف ـ ط ١ ـ القاهرة.
٤٥ ـ **دوائر الخوف لقراءة في خطاب المرأة** ـ نصر حامد أبو زيد ـ المركز الثقافي العربي ـ ١٩٩٩.

٤٦ ـ **دائرة المعارف الإسلامية** ـ مجموعة من المستشرقين ـ ترجمة إبراهيم زكي خورشيد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ.
٤٧ ـ **الدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية** ـ رودي بارت ـ ترجمة مصطفى ماهر ـ القاهرة ـ **١٩٧٦**م.
٤٨ ـ **رسالة في طريق ثقافتنا** ـ محمود محمد شاكر ـ دار الهلال ـ القاهرة **١٩٨٨**م.
٤٩ ـ **الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين** ـ نذير حمدان ـ دار المنارة ـ جدة ـ **١٩٨٦**م.
٥٠ ـ **السنة ومكانتها في التشريع** ـ الدكتور مصطفى السباعي ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ الطبعة الثانية ـ **١٩٧٦**م.
٥١ ـ **سنن أبي داود** ـ أبو داود ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ١ ـ **١٩٩٢**م.
٥٢ ـ **سير أعلام النبلاء** ـ الذهبي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ **١٩٩٧**م.
٥٣ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ـ ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ **١٩٩٥**م.
٥٤ ـ **السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني** ـ وليد الأعظمي.
٥٥ ـ **شمس العرب تسطع على الغرب** ـ سفريد مونكه ـ دار الجيل ـ دار الأفاق ـ بيروت ترجمة فاروق بيضون ـ كمال دسوقي ـ الطبعة الثانية **١٩٩٣**م.
٥٦ ـ **شرح مسلم** ـ النووي ـ دار المعرفة ـ بيروت الطبعة الخامسة ـ **١٩٩٨**م.
٥٧ ـ **صحيح البخاري** ـ للإمام البخاري ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى **١٩٩٧**م.
٥٨ ـ **صحيح مسلم** ـ الإمام مسلم ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ **١٩٩٨**م.
٥٩ ـ **الصحوة في عالم المرأة** ـ العرماوي عبد الحي ـ مكتبة التراث ـ الإسلامي ـ القاهرة ـ **١٩٨٤**م.
٦٠ ـ **الضمير والتشريع** (العقلية المدنية والحقوق الحديثة) عياض عاشور ـ المركز الثقافي العربي ـ **١٩٩٨**م.
٦١ ـ **الطبقات الكبرى** ـ ابن سعد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ عباس محمود العقاد ـ مكتبة رحاب ـ الجزائر.
٦٢ ـ **علم الاجتماع** ـ علم الاجتماع ـ محمد عاطف غيث ـ دار المعارف ـ لبنان.
٦٣ ـ **علم اجتماع المرأة** ـ حسن عبد الحميد رشوان ـ المكتب الجامعي ـ الحديث ـ الإسكندرية **١٩٨٨**م.

٦٤ - **علل وأدوية** - محمد الغزالي - دار الشروق - الطبعة الأولى **١٩٩٧**م.
٦٥ - **عودة الحجاب** - محمد أحمد إسماعيل المقدم - دار طيبة - الرياض.
٦٦ - **الفكر الأصولي واستحالة التأصيل** - محمد أركون - ترجمة هاشم صالح - دار الساقي - الطبعة الأولى **١٩٩٩**م.
٦٧ - **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد** - محمد أركون - ترجمة هاشم صالح دار الساقي - لبنان - الطبعة الثانية - **١٩٩٨**م.
٦٨ - **قصة الحضارة** - ول وايريل ديورانت - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - **١٩٩٨**م.
٦٩ - **قضايا في الفكر المعاصر** - (العولمة صراع الحضارات، العودة إلى الأخلاق الشامح، الديمقراطية ونظام القيم) محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية **١٩٩٨**م.
٧٠ - **لسان العرب** - ابن منظور - دار إحياء التراث - بيروت - الطبعة الأولى - **١٩٨٨**م.
٧١ - **محمد في مكة** - مونتجرمري وات - تعريب شعبان بركات - المكتبة العصرية - بيروت -.
٧٢ - **محمد في المدينة** - مونتجرمري وات - تعريف شعبان بركات.
٧٣ - **ما وراء الحجاب** - ديناميكا المذكر - المؤنث - في المجتمع الإسلامي الحديث - فاطمة المرنيسي - ترجمة أحمد صالح - دار حوران - سوريا - الطبعة الأولى - **١٩٩٧**م.
٧٤ - **المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير** - عبد الكبير المدغري - مطبعة فضالة - المحمدية - المغرب - **١٩٩٩**م.
٧٥ - **المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم** - عمر سليمان الشقر - الكويت.
٧٦ - **المرأة بين الشريعة والقانون** - مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - بيروت - طه ٦ - **١٩٨٤**م.
٧٧ - **المرأة الجديدة** - قاسم أمين - مطبعة الشعب - مصر - **١٩١١**م.
٧٨ - **المرأة ليست لعبة للرجل** - سلامة موسى.
٧٩ - **المرأة والحياة الاجتماعية الإسلامية في الإسلام** - تفاريد بيضون - دار النهضة العربية - بيروت - المستشرقون والدراسات القرآنية - محمد حسين علي الصغير - دار المؤرخ - الزعبي - بيروت - الطبعة الأولى - **١٩٩٩**م.

٨٠ ـ **المستشرقون والإسلام** ـ زكريا هاشم زكريا ـ لجنة التعريف بالإسلام المجلس الأعلى للشؤون الدينية الإسلامية ـ الكتاب العشرون ـ م.
٨١ ـ **المستشرقون** ـ نجيب العقيقي ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ.
٨٢ ـ **مستقبل الثقافة في مصر** ـ طه حسين ـ مكتب المعارف ـ القاهرة ـ.
٨٣ ـ **معلمة الإسلام** ـ أنور الجندي ـ دار الصحوة ـ **١٩٩١**م.
٨٤ ـ **مفهوم التاريخ** ـ عبدالله العروي ـ المركز الثقافي العربي ـ الطبعة الثالثة **١٩٩٥** ـ الجزء الثالث ـ.
٨٥ ـ **المقدمة في الاستغراب** ـ حسن عفيفي ـ.
٨٦ ـ **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**، المنظمة الرعبية للتربية والثقافة والعلوم ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج **١٩٨٥**م.
٨٧ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ـ ابن الجوزي ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية **١٣٥٧**م.
٨٨ ـ **الموسوعة العالمية** ـ مؤسسة أمال الموسوعة للنشر والتوزيع ـ السعودية ـ الطبعة الثانية **١٩٩٩**م.
٨٩ ـ **موضوعية فيليب حي في كتابه التاريخ** ـ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ـ **١٩٨٥**م.
٩٠ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ـ الذهبي ـ تحقيق البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٩١ ـ **نظرات استشراقية في الإسلام** ـ محمد غلاب ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ.
٩٢ ـ **نور الإسلام وأباطيل الاستشراق** ـ د. فاطمة هدى نجا ـ دار الإيمان ـ طرابلس ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ **١٩٩٣**م.
٩٣ ـ **هموم داعية** ـ محمد الغزالي ـ دار الشهاب ـ باتنة ـ الجزائر ـ **١٤٠٢** هـ.
٩٤ ـ **هموم الفكر والوطن** ـ حسن حنفي ـ دار قباء ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ **١٩٩٨**م.

❋ ❋ ❋

الدوريات والمجلات

٩٥ ـ **الأزهر** ـ مجلة شهرية جامعة ـ ح ١ السنة الثامنة والثلاثون.

٩٦ - **التضامن الإسلامي** - مجلة شهرية إسلامية - تصدرها وزارة الحج والأوقاف - بمكة المكرمة - ج ٨ - السنة السابعة والأربعون.
٩٧ - **حضارة الإسلام** - مجلة فكرية جامعة - العدد ١٠ السنة ١٩٦٦.
٩٨ - **الدراسات الإسلامية** - مجلة إصلاحية علمية تصدر كل شهرين عن مجمع البحوث الإسلامية.
٩٩ - **الرسالة** مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون العدد ٧٢١ - ١٩٤٧م.
١٠٠ - **الرسالة** مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون العدد ٧٧٢ - ١٩٤٨م.
١٠١ - **رسالة الزهر** - الملحق الأسبوعي لمجلة الأزهر - تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية كل يوم خميس.
١٠٢ - **الشريعة والدراسات الإسلامية** - مجلة تصدرها جامعة الكويت العدد ٣٨ - أوت ١٩٩٩.
١٠٣ - **عالم الفكر** مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عند وزارة الإعلام بالكويت.
١٠٤ - **الفكر العربي** - مجلة دورية تصدر عن معهد الإنماء العربي - بيروت - العددان - ٣١ - ٣٢ - ١٩٨٣م.
١٠٥ - **لواء الإسلام** مجلة دينية ثقافية إسلامية تصدر شهرياً من القاهرة العدد - ٤ - ١٩٦٦م.
١٠٦ - **المستقبل العربي** - السنة الثامنة - العدد ٧٦ - ١٩٨٥م.
١٠٧ - **المسلمون** مجلة العالم الإسلامي الشهرية العددان ٧ - ٨ - ١٩٦٢م.
١٠٨ - **المنهل** - مجلة شهرية للآداب والعلوم.
١٠٩ - **الوعي الإسلامي** - مجلة ثقافية إسلامية شهرية - مارس ١٩٧١م.

❋ ❋ ❋

المراجع باللغة الأجنبية

110 - encyclopidie de islam nouvelles edition etablie avec les concours des principeaux oraientalistes. paris GP maisanneur --- larousse SA.
111 - la condition de la femme dans les tradition et l evolution de I islam paris (levy brali) mansour fahmi.

112 - la bible le coran et la science - maurice baucaille seghers paris 1978.
113 - les femmes du prophete - mogali mory - mecure de france 1989.
114 - I islamisme radical Hachette paris 1987.
115 - Bordas encyclopidie philosophie religian 1980 caritani ragu.
116 - Mohamed seuil politique radinsan maxime paris 1968.
117 - Mon ame est une femme, la femme dans la pensee islamic - Annemarie schimmel, traduit de l Allement par sabine thiel jc lattes 1998 france.
118 - la france et l islam de paris 1789 pvf paris fremeaux jacque.
119 - le Harem politique par fatima mernissi.
120 - le voilees de l islame par hinde taarji.
121 - les voile cente l ecole elizabeth alts hull edition du seuil.
122 - nine parts of desire (the hidden world of islamic women - jine ddine brok).

- triste tropique, chaud pavy strausse paris 1695.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

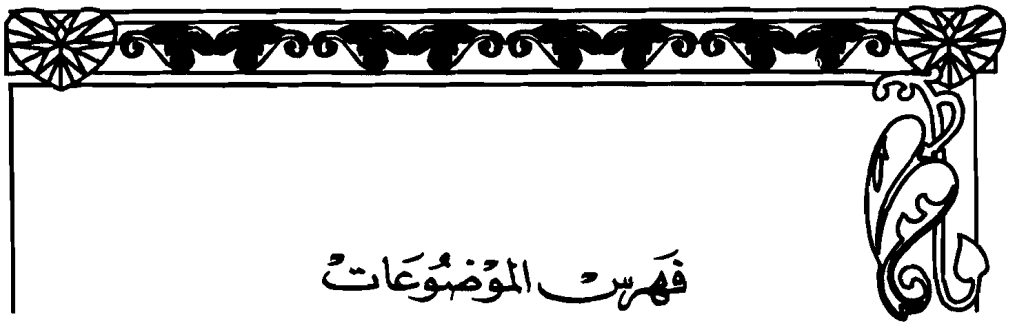

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقديم الأستاذ الدكتور أبو لبابة حسين	٧
مقدمة	٢١
الباب الأول الاستشراق	٢٧
الفصل الأول: الاستشراق أهدافه ووسائله	٢٩
المبحث الأول: تعريف الاستشراق	٣١
المبحث الثاني: الرقعة الجغرافية للاستشراق	٣٧
المبحث الثالث: أهداف الاستشراق والدراسات الاستشراقية	٤٧
المبحث الرابع: وسائل الاستشراق	٥٠
الفصل الثاني: علاقة الاستشراق بالقوى العالمية	٥٧
المبحث الأول: علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية	٦٠
المبحث الثاني: علاقة الاستشراق بالتنصير والتبشير	٦٢
المبحث الثالث: الاستشراق والعولمة	٦٥
المبحث الرابع: الاستشراق وحوار الأديان والحضارات	٦٨
المبحث الخامس: الاستشراق والإعلام	٧١
الفصل الثالث: الاتجاهات العلمية والموضوعية للاستشراق	٧٥
المبحث الأول: صنف انعدمت في دراساتهم الموضوعية والعلمية	٧٨
المبحث الثاني: صنف أخطأ في المنهج أو في النتيجة مع تحري الموضوعية	٨٢

الموضوع	الصفحة

المبحث الثالث: مستشرقون منصفون للبحث العلمي ومقرون بحقائق الإسلام الصحيحة ٨٤

الفصل الرابع: مجالات الدراسات الاستشراقية ٨٧

- المستشرقون والقرآن الكريم ٩٠
- المستشرقون والسنة النبوية ٩٣
- المستشرقون والسيرة النبوية ٩٥
- المستشرقون والفقه الإسلامي ٩٩
- المستشرقون والتاريخ ١٠١
- المستشرقون واللغة العربية ١٠٦

الفصل الخامس: مواقف العلماء المسلمين والعرب من الاستشراق ١٠٩

المبحث الأول: موقف القبول المطلق ١١٢

المبحث الثاني: موقف الرفض ١١٤

المبحث الثالث: موقف المواجهة والنقد والرد ١١٧

الباب الثاني: المرأة المسلمة والاستشراق ١٢١

الفصل الأول: المرأة المسلمة والاستشراق ١٢٣

الفصل الثاني: الاستشراق النسائي ١٤١

الفصل الثالث: المستشرقون والمصادر العربية ١٥٧

الفصل الرابع: زوجات النبي ﷺ والفكر الاستشراقي ١٧١

الفصل الخامس: نظام الأسرة في الإسلام والفكر الاستشراقي ٢٠٥

الفصل السادس: نظام تعدد الزوجات والفكر الاستشراقي ٢٢٧

الفصل السابع: الحجاب والفكر الاستشراقي ٢٤٣

الفصل الثامن: أثر الاستشراق في الشرق ٢٥٩

الخاتمة ٢٧٥

فهرس المصادر والمراجع ٢٨٠

فهرس الموضوعات ٢٨٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي